محفــوظ قــدّاش

الجــــزائـــر
فـي العصــور القديـــمة

ترجمة صالح عبّـــاد

المؤسسة الوطنية للكتاب
3، شارع زيروت يوسف
- الجزائر -

الجزائر
في العصور القديمة



رقم النشر : 09 ـ 01 ـ 92 ـ 40

محفوظ قدّاش

الجزائر في العصور القديمة

ترجمة صالح عبّاد

المؤسسة الوطنية للكتاب
3، شارع زيروت يوسف
- الجزائر -

الفصـــل الأول

الجزائـر في ماقبـل التاريـخ

. صور الفصول الخمسة الأولى مصدرها المركز الجزائري لأبحاث الانثروبولوجيا وماقبل التاريخ والإثنوغرافيا، صور الفصول الأخرى صادرة عن المصلحة الجزائرية للآثار القديمة، النقود، بديوان الأوسمة والآثار القديمة للمكتبة الوطنية بباريس.

إن ماقبل تاريخ الجزائر بعيد عن أن يكون معروفا. شكّلت أعمال العشرين سنة الأخيرة تقدما كبيرا بالنسبة لما قبل تاريخ المغرب. وستقدم المنشورات المتعلقة بموقع تيرنيفين وحقل خنزير أبي قرنين تدقيقات مفيدة وستعيد النظر في الفرضيات التي تمَّ إقتراحها بعد.

عرفت الجزائر في الزمن الرابع فترات ماطرة يسّرت معيشة الناس الأوائل القناصين وقاطفي ثمار السهول الخضراء التي أصبحت اليوم مناطق صحراوية. وخلّف إنسان الزمن الرابع آثارا عديدة في الجزائر. فقد عثر على العديد من الأسلحة والأدوات المتنوعة جدا، في مواضع ورشات ومعسكرات، إبتداء من رؤوس السهام والمكاشط الى الفؤوس المصنوعة من الحجر المصقول والإبر العظيمة والفخاريات المزينة برسوم هندسية. كما عثر على بيض النعام وعظام حيوانات داجنة.

يسمح إكتشاف أشباه الكرات ذات الوجوه المتعددة في 1948 بعين حنش بالقرب من سطيف، بتأكيد وجود الكائن البشري في أواخر الزمن الثالث كما يجيز إكتشاف 1954 لفكي بيتيكانتربوس Pithecanthropien ، في مرحلة تيرنيفين، الاعتقاد في أن الجزائر كانت مهدا من مهود البشرية.

لاتزال كرونولوجية أزمنة ماقبل التاريخ صعبة التنظيم.

الباليوليتي (العصر الحجري القديم).

تختلف جزائر ماقبل التاريخ عن جزائرنا، فالتضاريس والمناخ، وبالتالي المظهر المائي والنباتات، والحيوانات لم تكن هي التي توجد اليوم. وتسمح معطيات الباليونتولوجية باستنتاج « حالة ديمومة مناخ حار ورطب حتى العصر الحجري القديم الأعلى على الأقل ». فالفيل وفرس النهر ووحيد القرن والبقريات والزرافات والنعام كانت منتشرة جدا خلال الزمن الرابع. كما أعطى انفصال إفريقيا وأوربا والحاجز الصحراوي لهذه الحيوانات طبيعتها المختلفة، فيما بعد. فقد ارتقت نحو الحيوانات الحالية بانكماش حجمها عن حيوانات الزمن الرابع بادخال الحيوانات الأليفة مثل الحصان والجمل.

إننا نتعرف على الناس الأوائل الذين عاشوا على الأرض الجزائرية بواسطة أدواتهم. فإذا رجعنا الى أدواتهم لتحديد مختلف الفترات يبدو لنا وكأن « ثقافة الحصى pebble-culture » تتميّز بالحصى المنحوت، والأشولية acheu-léenبذات الوجهين biface والبليطة، والموستيرية Mousterien بالشظية الحادة، والعاتيرية بـ « المذنبات ».

الدلائل الأولى

إن إكتشاف الأحجار المشذبة بفظاظة من طرف س. أرنبورغ C.Arambourg« قد أعاد بدايات ماقبل تاريخ الجزائر الى الوراء، الى حدّ التماس باصول البشرية نفسها ». كانت « أشباه الكرات ذات الوجوه المحددة » هذه قد وجدت في محطات ردم بحيرة سطيف القديمة (في عين حنش على بعد 6 كم من العلمة). وتتدرج هذه الصناعة بين الفلافرانشية Villafranchien العليا والفلافرانشية السفلى. فأشباه الكرات « مشذبة في وجوه متعددة مصفحة وتحمل وجوهها المتعددة المفمرة، في بعض الأحيان على الأقل، ندبا على أطرافها، ناتجة من فعل الدّق، حوافها سليمة على العموم » (بالوت Balout) أشباه الكرات هذه وضعت في الطبقة الثالثة من « ثقافة الحصى » المغربية. وفي منصورة ينتظر حقل آخر مهم إزاحة اللثام عنه. إن حقل عين حنش إذن من حقول العالم الأكثر قدما أين ترجم

ذكاء الإنسان بواسطة صناعة أدوات غير طبيعية : الأحجار المشذبة لتشكيلات بحيرات الزمن الرابع القديم.

الأشولية

تتألف الأشولية، المعروفة في أوربا بالبيفاص (ذات الوجهين)، من البيفاص والبلطات في الجزائر كذلك. وتوجد البيفاص هذه في الطبقة العليا من الفيلافرانشية بعين حنش ومنصورة. كانت تمتدّ هذه الأشولية مابين الفترتين الجليديتين غونز الوسطى Gunz-Mindel وفورم الأولى Wirm I ، بمعنى على إمتداد آلاف السنين. وتتجمع الحقول أساسا في الطمي على ضفاف المجاري المائية القديمة أو البحيرات. أما حقول الطمي الرئيسية في الجزائر فهي حقول العمرية والعوينات وتأكدمت وأوزيدان وعرق تيهودايين. ومن بين حقول الينابيع لابد من ذكر حقول تيرنيفين بالقرب من تيغنيف. والوثائق التي توفرها هذه المحطة الأخيرة مهمة جدا ومن جهة نظر البانتولوجية البشرية والحيوانية المشتركتين في أقدم صناعة.

الموستيرية والعاتيريه

من الباليولوتي الأدنى، ننتقل الى الباليوليتي الأوسط (الموستيرية - والعاتيرية)، حيث اعتبر العديد من المؤلفين الصناعة ك « كنيوليتي بربري »، دون مبرر كذلك. ربما ولدت العاتيرية في الجزائر (بئر العاتر في النمامشة). فالعاتيرية صناعة مغربية تبرز مظهرا موستيريا. يأتي تحضير النوى في عقب شظايا غالبا ماتكون ذات وجوه. والى جانب المخارز الموستيرية النموذجية والعديد من الشفرات والمكاشط وبعض المحكات توجد كذلك أشياء وحيدة الوجه ذات ذنب بارز تماما بواسطة تنقيحات، تحتفظ بوجوه في العقب على الدوام تقريبا. لقد بقيت العاتيرية وقتا هاما جدا لأجل « أن يكون الشيء المذنب الذي يميزها نادرا في أول الأمر ووفيرا جدا بعد ذلك ». إمتدت العاتيرية، ثقافة المغرب النموذجية، الى غاية موريطانيا ومنعطف النيجر.

المضاف الى الباليوليتي

يعتبر الكثير من المؤلفين مايتبع الباليوليتي المتوسط كمضاف الى الباليوليتي Epipaleolithique ، حيث تنفصل الإبرومغربية Ibéromausien ، مثل القفصية، مع العاتيرية فجأة. إنهما لاتتفرعان من أصل واحد، فقد تفرعت الإبيرومغربية أساسا من اللوفالوازو ـ موستيرية Levalloiso-Moustérien التي تعود الى النياندرتاليين (لابد من الإنتظار أيضا لتحديد المميزات الخاصة بنياندرتاليي المغرب)، من جهة أخرى فإن الإبيرومغربية والقفصية هما نتاج لموجة الإنسان العاقل Homo Sapiens فوق الموستيرية والعاتيرية، توجد إمّا الإبيرومغربية أو القفصية دون أن يكون هناك أي إثبات لأيّ اتصال بين الاثنين.

الإبيرومغربية

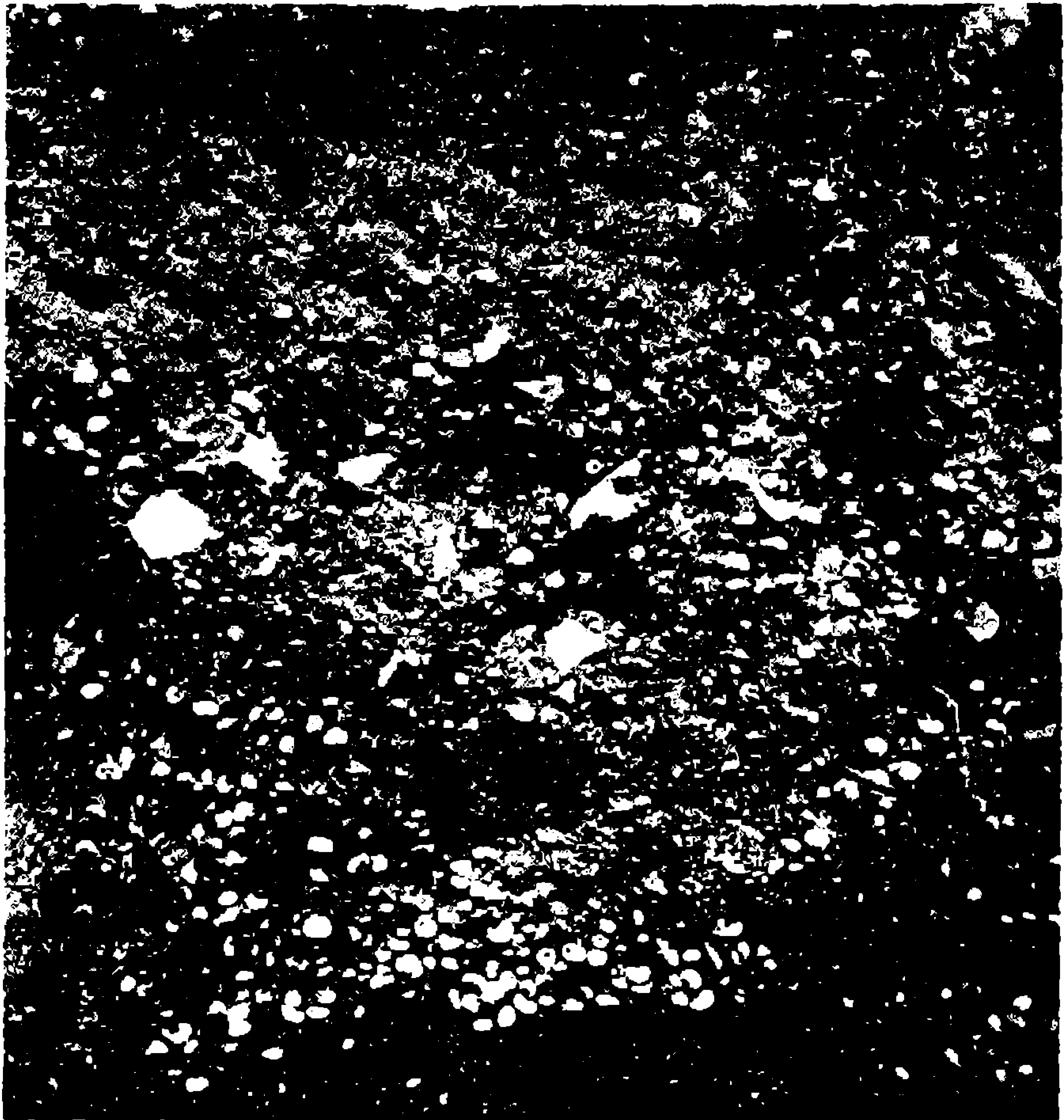
يوجد الحقل الرئيسي في مويلاح (بالقرب من مغنية). إذن كان يمكنْ أن تسمى « المويلاحية » أو « الوهرانية » كما اقترح فوفري Vaufrey . وتوجدُ كذلك في أفالو بوالرمل.

الإبيرومغربية صناعة ذات أبعاد مصغرة تتكون من شفيرات ذات ظهر منطرح، وشفيرات خامة، وشفيرات ذات ثلم ومكاشط. ويمثل ناس الإبيرومغربية ترابطا عرقيا حقيقا، تمّ الغزو من الشرق الى الغرب وبسرعة. فتمّ إحتلال السواحل والمنطقة التلية، ولم يتم عبور الأطلس التلي إلاّ في الغرب ولم تدرك السهول العليا إلاّ في تيارت. يسمى النوع الإنساني مشتى العربي، وهو معروف لدينا بفضل هياكل عظيمة مكتشفة في مغارة بالقرب من بجاية بصفة خاصة (أفالو بوالرمل)، وفي كولومناتا (بالقرب من تيارت)، وفي تافورالت (شمال وجدة) ويشبه نوع كرومانيون. شغل في النيوليتي (العصر الحجري الحديث) مناطق نزوح، كان معاصرا للقفصية لكن الحضارتين ظلتا مختلفتين.

القفصية

تعرف المناطق القفصية بالعديد من « الرمديات » المسماة أيضا الحلزونيات، التي تتراكم في السهول القسنطينية، إنها كثبيات يمكن أن يصل الى علو 10 أمتار والى طول يتراوح بين 100 و 150 مترا، متكونة من تراكم الرماد، والأدوات وعظام الأموات وقواقع الحلزونيات، على الخصوص وتمثل بقايا التجمعات البشرية القديمة. إنتهت القفصية في إنتشارها حتى قدم الأطلس التلّي في الشمال، ولامست الصحراء التي لم يدركها الإيبرومغاربة، وتتواصل آثار القفصية من الشمال القسنطيني الى غاية تيديكالت.

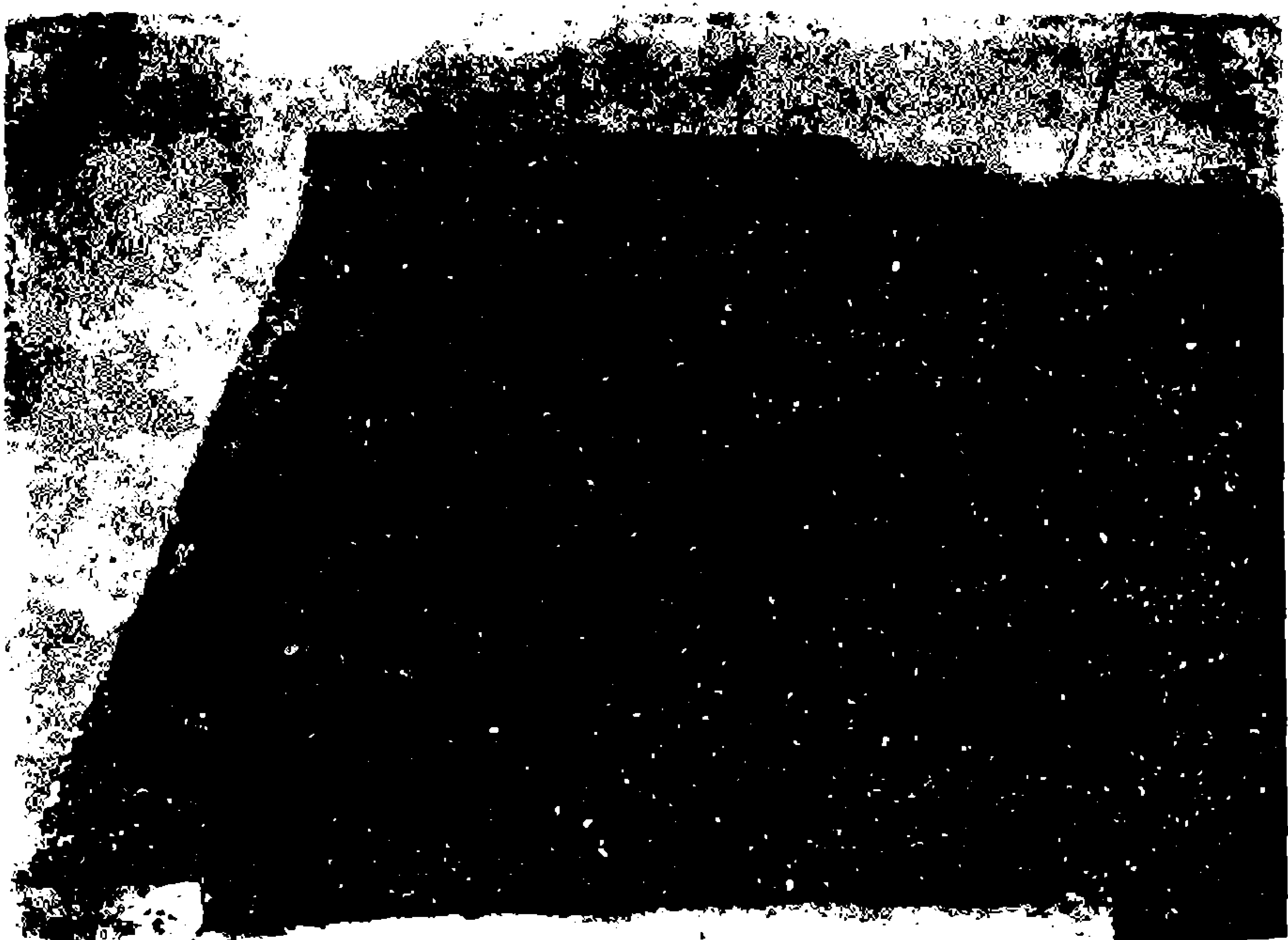
تحتوي الصناعة القفصية شفرات الظهر المنطرح، ونصالا ذات الظهر المنطرح كذلك، وأزميلات حادة، وشفرات الحزّ وحجريات دقيقة أكثر تنوعا وأكثر وفرة أيضا. وعثر على لؤلؤات من أصداف بيض النعام وأدوات عظام مصقولة. كما تتميز الحضارة القفصية بأدوات ذات شكل هندسي. وقد نسب تاريخ هذه الأدوات، في ناحية تبسة، الى نهاية الألف السادس. لايمكن مقارنة عرق القفصي بعرق الإيبرومغربي، فهو ينتسب الى الذين سبقوا المتوسطين ذوي الصفات الزنجية. مارس الناس قلع الأسنان واستخدموا العظميات البشرية أحيانا



مقطع لحلزونيات دكّارة (ناحية تبسة .



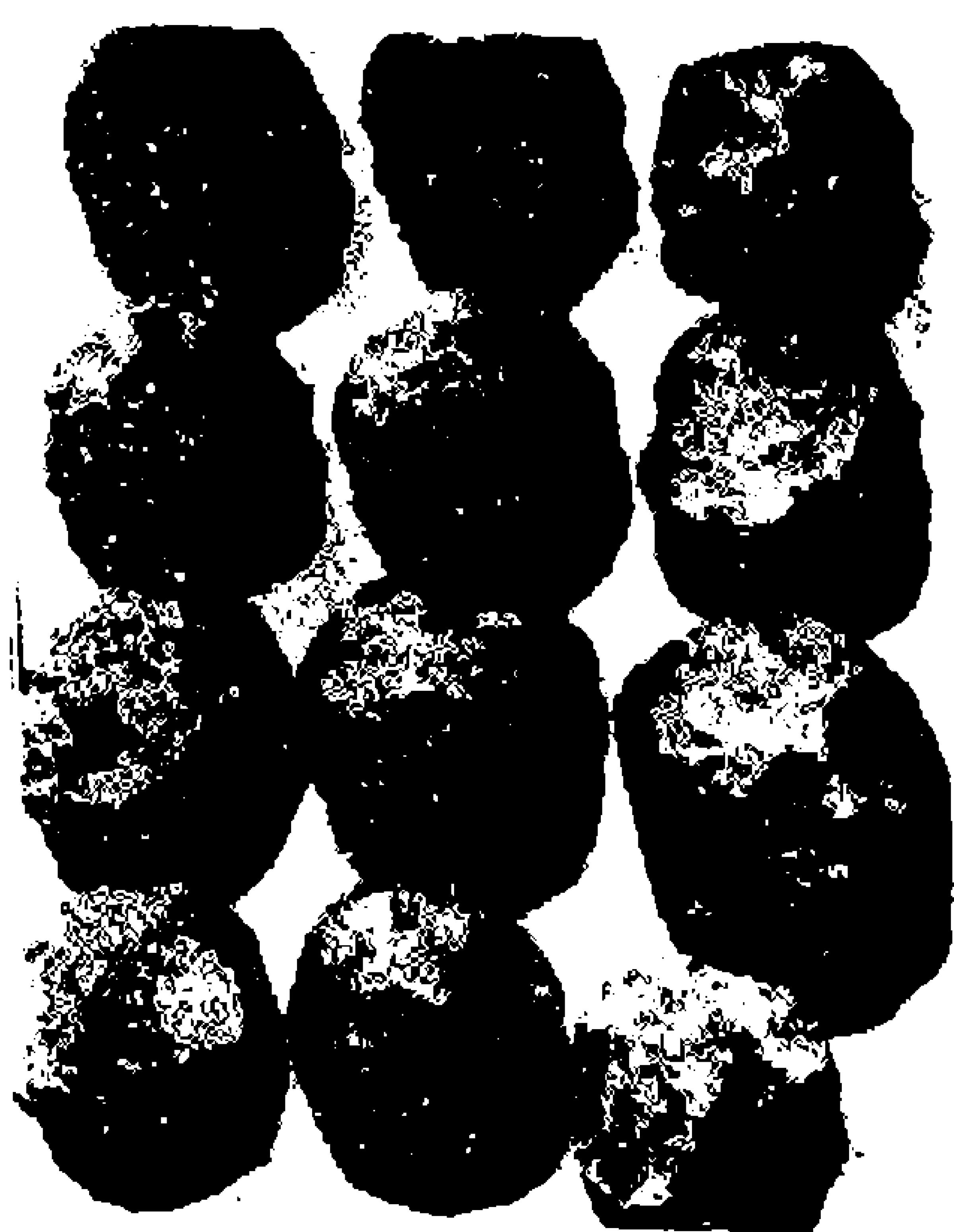
الفكّ السفلي بنيرنيفين الشبيه ببيتيكانتروب يارا



زرافة (تاسيلي)



ذات وجهين (بيفاص) أشولية
(الماء الأبيض ـ قرب تبسة)



أشباه الكرات متعددة الوجوه
لعين حنش.

النيوليتي (العصر الحجري الحديث)

معلوماتنا عن النيوليتي قليلة. فقد اغتنت القفصية،* كما أوضحت أعمال فوفرى، بالفؤوس والقاقمات المصقولة والعظام المتقنة الصنع والفخار. النيوليتي حالة حضارية خصوصا، فقد مارس الإنسان الصقل والنحت وصناعة سن رؤوس السهام الثنائية الوجه، والفخار، والزراعة وتربية الحيوانات. وتشكل هذه التقدمات الهائلة، التي لم تتحقق في وقت واحد، الثورة النيوليتية. وقد عمت الجزائر والصحراء. في الشمال، فإن الفخار ذو عمق مخروطي قليل الزخرفة في أغلب الأحيان، الأدوات العظيمة هامة جدا. وأصداف بيض النعام مزينة بخطوط هندسية، كما استخدمت ملونات. والنيوليتي الجزائري حديث نسبيا في الشمال، وبالعكس قديم جدا في الصحراء (6700 ق.م). تغير المظهر الطبيعي، خلال النيوليتي، فغدا المناخ أكثر جفافا وتغيرت الحيوانات : إختفى الفيل وفرس النهر، وظهرت الحيوانات الداجنة خاصة الحصان والكلب.

كان النيوليتي فقيرا نسبيا في التل. إنه لفي الصحراء شكل أوجه، مع العديد من الإختلافات الجهوية. هنا ظهرت أدوات متقنة : أحجار مصقولة، ورؤوس سهام وفنّ نفيس جدا : نقوش ورسوم (الأحجار المكتوبة، رسوم منقوشة)، إنها تقدم لنا، بالإضافة إلى قيمتها الفنية، معلومات عن الحيوانات القديمة، (الفيلة والظباء والأسود والزرافات والنعام والكباش)، واللباس والحلي والأسلحة المستعملة من طرف الإنسان.

لقد تردد، بعد جزال Gsell ، أن المغرب لم يعرف عصر الحديد الذي أدخل من طرف الفينيقيين. لقد أهملت هذه الأطروحة اليوم. فإذا كان يجهل كيف تمّ تعلّم صناعة الحديد فإن تقدم المعجلات (صناعة تتطلب إستخدام المعادن) في النقوش الصخرية واكتشاف حقول للنحاس والقصدير يثبتان أن ماقبل التاريخ الجزائري لم يجهل عصر النحاس والبرونز.

إنه لمن المناسب التأكيد على أن النيوليتي وما قبل التاريخ قد انطلقا. إن ماقبل التاريخ هو، على الخصوص، حالة معارفنا المرهونة، في أغلبها، بالكتابات التاريخية لمؤلفي العصور القديمة : أخبرنا سالوست Saluste بأواخر النيوليتي، وأخبرنا هيرودوت Hérodote بالمعجلات الحجرية للصحراء. لقد دخلت الجزائر التاريخ باندماج المنطقة التلية بالعالم المتوسطي.

أساليب المعيشة

(في المحطات الإيبرومغربية بناحية الجزائر)

إذا كان من المتفق عليه أن الإيبرومغربية حضارة ساحلية أساسا وليس حصرا فإن محاولة وصف موجز لأساليب السكن تبقى ضرورية مع ذلك.

ملاحظة أولى تطرح نفسها : التوزيع الجغرافي لحقول ناحية الجزائر المكتشفة، التي أقام فيها الإيبرومغاربية بعيد نوعا ما عن الساحل، مثل ما هو الحال بالنسبة لوادي كرمة، ولكن بجوار مصدر ما. أما فيما يخص المواقع الساحلية تماما فإنها تثبت إختيارات مختلفة، بدون تفسيرات أحيانا، على الأقل في السياق الجغرافي الحالي. فالسكن في المغارة، وعلى تلعة المقدمة هو الشكل المفضل، في شنوة. وتسند هذه المغارات، التي تهيمن على ساحل طوله عشرات الأمتار، ظهرها الى كتلة جبلية. وهكذا يسمح الموقع بتنظيم شكلين من أشكال النشاط : الصيد في الجبل الغابي، وجمع ثمار البحر لأهداف تموينية أو جمالية - دينية (الزينة).

لمذا، في هذه الحالة، لم يتردد الإيبرومغاربية على الواد الواقع عند مخرج قرية شنوة والساحل الرملي الذي يحتوي مخابئ واسعة ؟ من غير الممكن الإجابة عن هذا السؤال؛ يهيمن السكن في العراء في الحد الغربي لمنطقتنا، وكذالك في أودية كرمة : في مزوار (الساحل الرملي لفيجيي-Fi guier)، وفي كوربيت - مارين. Courbet-Marine .

إذا كان إختيار مزوار ممكن الفهم، فإن إختيار كوربيت - مارين يبدو لنا غير منطقي. وقد أخفيت المحطة في مزوار وعند قدم كثيب الرملي بواسطة طرف مزوار. في كوربيت بالعكس لايبدو أي إهتمام بـ « الرفاهية ». أكثر من ذلك فإذا كان الشاطئ قريبا (لكن هل كان يوجد في ذلك الوقت ؟ »)، فإن منحدرات جبل أروس، التي يمكنها أن توفر الطريدة بعيدة كذلك. وتبدو سيئة الأسباب التي تصدرت إختيار الموقع هنا فهل يتعلق الأمر بتخييم مؤقت ؟ إحتمال ضعيف : كانت على هذا التماس إقامة لما قبل التاريخ. فالأدوات منتشرة بوفرة هناك وأهمية الملجأ توحي بإقامة دائمة.

لاتبيح حالة الوثائق غير الحجرية تفسيرات أخرى. فعلا يبدو السكن وأسلوب المعيشة متشابهين، في مكان آخر، في شنوة. وفي حقل إيمي Aymé من المستحيل إعادة بناء ولو النظام التمويني للسكان فقط. لايمكن تصور أي شيء عن مواردهم، وعن علاقتهم بالبحر والمناطق الغابية لمؤخرة البلاد، ومن الأخشاب كانوا يستعملونها في بيوتهم! لابد وأن يكون الإطار الطبيعي الذي عاشوا فيه مختلفا عمّا هو موجود حاليا.

يمكن التأكيد، في راسل (شنوة)، على أن المحتلين كانوا مستهلكين للطريدة على الأقل، بل وكذلك للحلزونيات والطنانات وبلح البحر والصحنيات بدرجة أقل. قد يكون ذلك علامة أساوب معيشة بلغ نوعا من التوازن وتنسيقا بين موارد القنص وموارد البحر. منذ ذلك وحيث لاوجود للأزاميل والمثاقب والشظايا والشفرات ذات الظهر وقلة المكاشط، ألاّ تعكس الصناعة الحجرية - بشكل متناقض نوعا ما - ذلك التحسن في ظروف المعيشة التي لم تكن تتطلب سوى نوعا من الأدوات: الشفرات ذات الظهر المطرح؟ لدينا هنا صناعة ـ وحيدة حقيقية (كما يقال بالنسبة الثقافة - الوحيدة» تتلاءم مع أسلوب تموين ومعيشة مسلم به وليست المسألة متعلقة بحالة رديئة بالنسبة لحضارات أخرى إيبيالبولتية.

C. Brahimi, L'Ibéromaurusien littoral de la région d'Alger, Mémoires du CRAPE-XIII, Paris 1970, pp. 144-145.

الفصـل الثـــاني

البربـــــر

لانعرف إلاّ القليل عن البربر. ولمعرفة تاريخهم نملك مصادر هي نتاج الإكتشافات الإركيولوجية أو الإثنوغرافية. ولم تبق مع الأسف سوى أشياء من الحجر أو الفخار، فقد ضاع الكثير من النقوش أو النصوص. وكان الرومان لايهتمون كثيرا بالبربر حين يتكلمون عن تاريخ إفريقيا، بل كانوا يهتمون بمجد روما وأبطالها، وبالعظماء أكثر من الشعب.

البشـــــر

لقد حدثنا المؤلفون القدامى عن الليبيين، عن أفري Afri ، عن المازيس Mazices وعن المور/ هذه العبارات جديرة بالتحديد. فقد كان هيردوث يطلق إسم الليبيين على كل سكان شمال إفريقيا، من الجنس الأبيض. ويبدو أن الكلمة كانت في الأصل لشعب إفريقي وأن مفهومها قد انتشر بصفة معتبرة. كما استخدم اليونانيون والقرطاجيون عبارة أفري بخصوص السكان الذين كانوا مقيمين في الأراضي المراقبة من طرف قرطاجة، وعبارة إفريقيا للإشارة الى بلادهم. أطلق على السكان الغربيين إسم المور، وقد يكون الأصل الحقيقي إختصارا لعبارة ماهو-ريم السامية التي تعني «الغربيين». تعود اليونانيون والقرطاجيون على تسمية غير رعايا قرطاجة بالنوميديين، والذين يقطنون الأراضي الخاضعة بالليبيين والسكان الغربيين بالمور. وكان الرومان يطلقون إسم البرابرة على الذين لايتكلمون اللاتينية.

الأصل الأكثر إنتشارا في البلاد البربرية، والذي يمكن إعتباره الإسم.

الإسم الحقيقي للشعب البربري هو الجذر م ز غ MZGأو م ز كMZK الذي يوجد في مازيس Mazices ومازاس Mazaces ومازاسيس Mazaceces لقد إحتفظ أمازيغيو الأوزاس بهذا الإسم. ودعا الشاعر الوطني القبائلي، في القرن العشرين، أبناء مازيغ، للنضال من أجل الإستقلال.

الأصـــل

في وضعية معارفنا، يبقى الأصل البربري متعذر الحل، وقد قدمت عدة فرضيات، وتحاول الدراسات الحديثة أن تثبت قدم التعمير وتنوعه في آن واحد. ويمكن أن تكون الحركات السكانية الأساسية قد تمت في نهاية الباليوليتي وخلال النيوليتي : فخلال القفصية غزا أناس من جنس متوسطي إفريقيا الشمالية، من الشرق. والتحق بهم رعاة صحراويون، جاءوا من أعالي النيل، وكانت هناك أيضا أقلية من السود. يمكن إعتبار أصل البربر، في الجزائر يعود الى أناس مشتى العربي والى الذين سبقوا المتوسطين. ومن المؤكد أن إلتحامات وامتزاجات عرقية قد أثرت في سكان البربر خلال الأزمنة النيوليتية والتاريخية، فقد إختلط بعض السكان بالأهالي، وهم الفينيقيون والوندال واليونانيون واللاتينيون والعرب والأتراك. لكن باستثناء العرب والأتراك بدرجة أقل، فإن أية هجرة لم تكن قادرة على تغيير الشروط العرقية للجزائر بشكل عميق. غير أنه من المغالاة وحتى من الخطأ الإدعاء بأن هذا المجتمع البربري لم يتغير، ولم يتطور مع التاريخ. فماهو أكيد هو أننا بمكننا أن نتكلم عن أسلافنا «البربر».

ويميز فيهم بين بنيات جسمية مختلفة : فهناك القبائل ذات القامة الطويلة والرأس المستطيل وتنتشر بكثرة لديها العيون الشفافة والشعر الأشقر، وهناك القبائل ذات القامة المتوسطة والسحنة الشفافة والشعر الأسمر، وهناك المزاب بالقامة القصيرة والرأس الصغير صاحب العيون السمراء والشعر الأسمر والسحنة الباهتة، وهناك التوارق بالقامة العالية والرأس المستطيل والأرجل والأذرع الطويلة. تختلف القامة وشكل الجمجمة ولون البشرة كثيراء وقد تمكن بعض العلماء من إقتراح الكثير من التصنيفات.

حيـــاة أسلافنـــا

كان السكان البربر عديدين، بفضل نسبة مواليد عالية جدا وتعمير إستثنائي، وكان الأطفال مرحبا بهم لدى الأسر. لقد كانوا، كما يقول هيرودوث، « جنسا من الناس ذوي جسم قوي ورشيق ومقاوم للتعب، ترزح الأغلبية تحت وطأة الشيخوخة إلاّ الذين يهلكون بالحديد أو من طرف الحيوانات لأنه من النادر أن ينتزعهم المرض ». فكان الأحياء منهم يذهلون، بدون شك، الأجانب ببأسهم وجلدهم.

النضال من أجل الحياة

كانت المنتوجات النباتية تشكل أساس طعامهم، وتزايدت بفعل الفلاحة. فبروكوب Procope يتكلم عن كسرة الحنطة التي كانت تطهى في رماد البيت الحار. ولطحن الحب « كانت تستعمل مطحنة صغيرة قابلة للنقل متكونة من إسطوانتين حجريتين، المسحق السفلي الثابت مزود بمحور عمودي من المعدن، يدخل فيه المسحق العلوي الذي يحتوي على مقبض يسمح بإدارته وعلى فتحة مدخنة أين تسكب الحبوب : ينتج إحتكاك الإسطوانتين الطحين » ويخبرنا جزال أن هذه المطحنة كانت معروفة في البحر المتوسط في عصر موغل في القدم. كان الدقيق المتحصل عليه يستعمل في صنع عجين، نوع من « الزينة »، وكان الكسكس أكله البربر المفضلة. فهو أصيل إفريقيا الشمالية، بدون شك، إذ لم تعرفه شعوب المشرق. ويخبرنا هيرودوث أن البدو « كانوا يأكلون اللحم ويشربون الحليب ». ومن المعروف كذلك أن الحياة الرعوية كانت أكثر أهمية من الحياة الزراعيه. كان البدو مربين للبقر قبل كل شيء والخيول والغنم والماعز. يمكن تصور أن الملكية كانت مشتركة ويمكن تصور حتى وجود نوع من الشيوعية الزراعية. لقد كان من المعقول جدا أن يعلّم القرطاجيون البربر الفلاحة، وأن يحقق هؤلاء الأخيرون تقدما كبيرا في هذا الميدان في عهد ماسينيسا. ومع ذلك كان جزال قد لاحظ أن البربر لم ينتظروا مجيء الفلاحين السوريين لممارسة تربية الماشية الفلاحة. بالنسبة لكومبس Camps قد يكون وجود الزراعة الجزائرية في النيوليتي

الثقافة

اللغة :

كثيرة هي النقوش الليبية التي تقدم لنا معلومات عن اللغة القديمة التي كان يتكلمها أسلافنا. من هذه اللغة تفرعت البربرية المنطوق بها في جبالنا بالقبائل والأوراس ولدى التوارق. حروف التيفناغ التوارقية متفرعة كذلك عن الحروف الليبية. كتبت النصب التذكارية في أسطر أفقية من اليمين الى اليسار. والنقوش الجنائزية المنقوشة على الأحجار مكتوبة في أحيان كثيرة في أسطر عمودية تقرأ من أسفل الى أعلى. بعض النقوش مزدوجة، فإمّا مصحوبة بنص لاتيني وإمّا بنص بونيقي. وهي النصوص المزدوجة التي سمحت للعلماء بتحديد الحرروف الليبية ذات 22 حرفا. فقد عرف أسلافنا الكتابة إذن، وسيقدم لنا فكّ رموز الألف نقش التي تمّ العثور عليها بعض الأضواء على ماضي البربر بدون شك؛ لقد توارث اللغة البربرية بعافية فائقة مع بقائها منقسمة الى لهجات عديدة ولازالت شفوية بالكامل. وهي اليوم حقيقة حية يتكلمها مابين 6 الى 7 ملايين نسمة.

الفن :

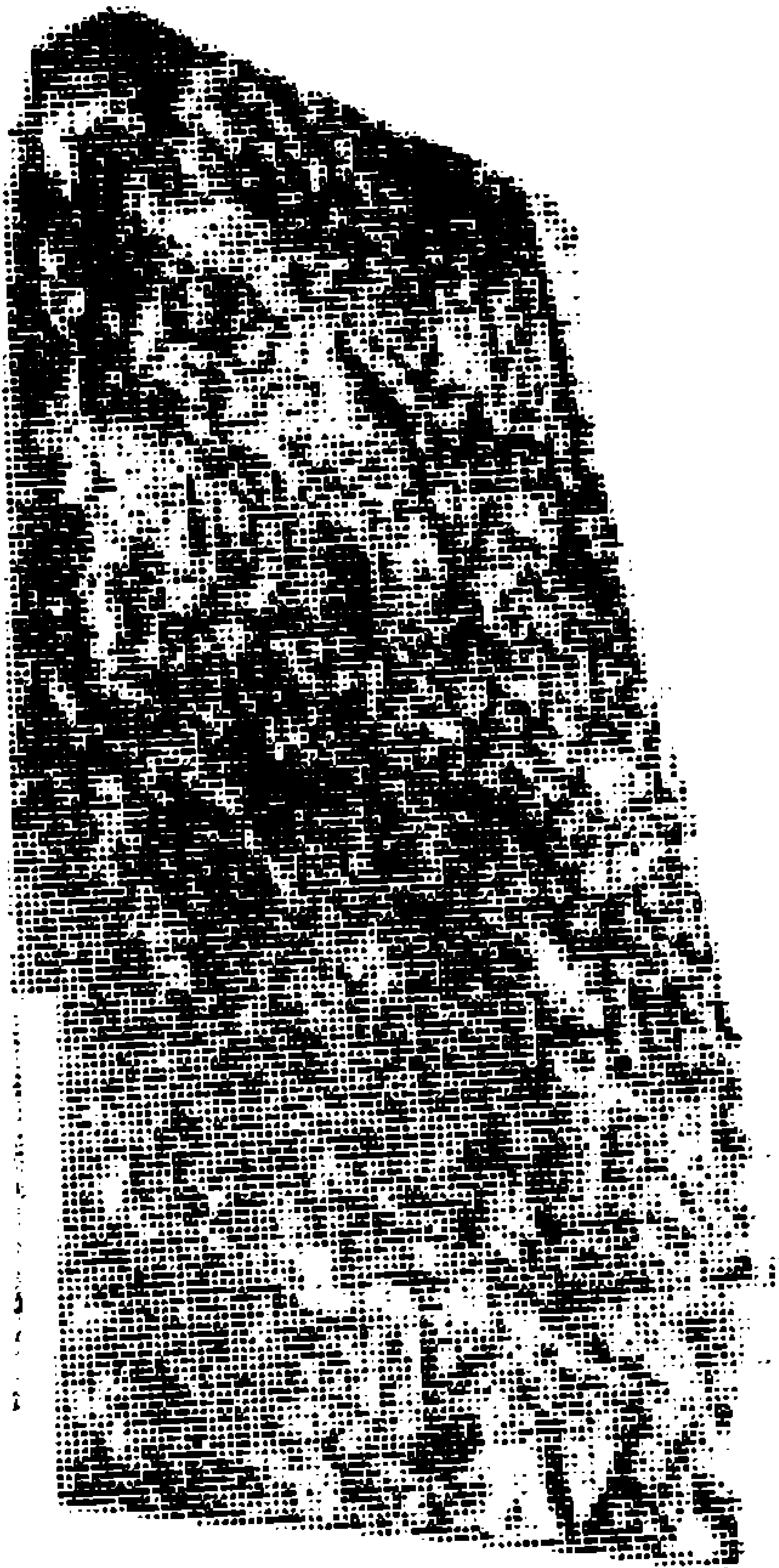
عبّر البربر عن ذوقهم في الرسوم السخرية، وفي زخرفة الفخار وبيض النعام، في صناعة الحلي ونسيج الزرابي وفي السيراميك. لقد ارتبط الفن البربري بالزخرفة الهندسية على الخصوص. وجدت في محطات ماقبل التاريخ بقايا عقود ونوطات من الأصداف. ووجدت في مقابر حلّي من الحديد والنحاس والبرونز.

المعتقد :

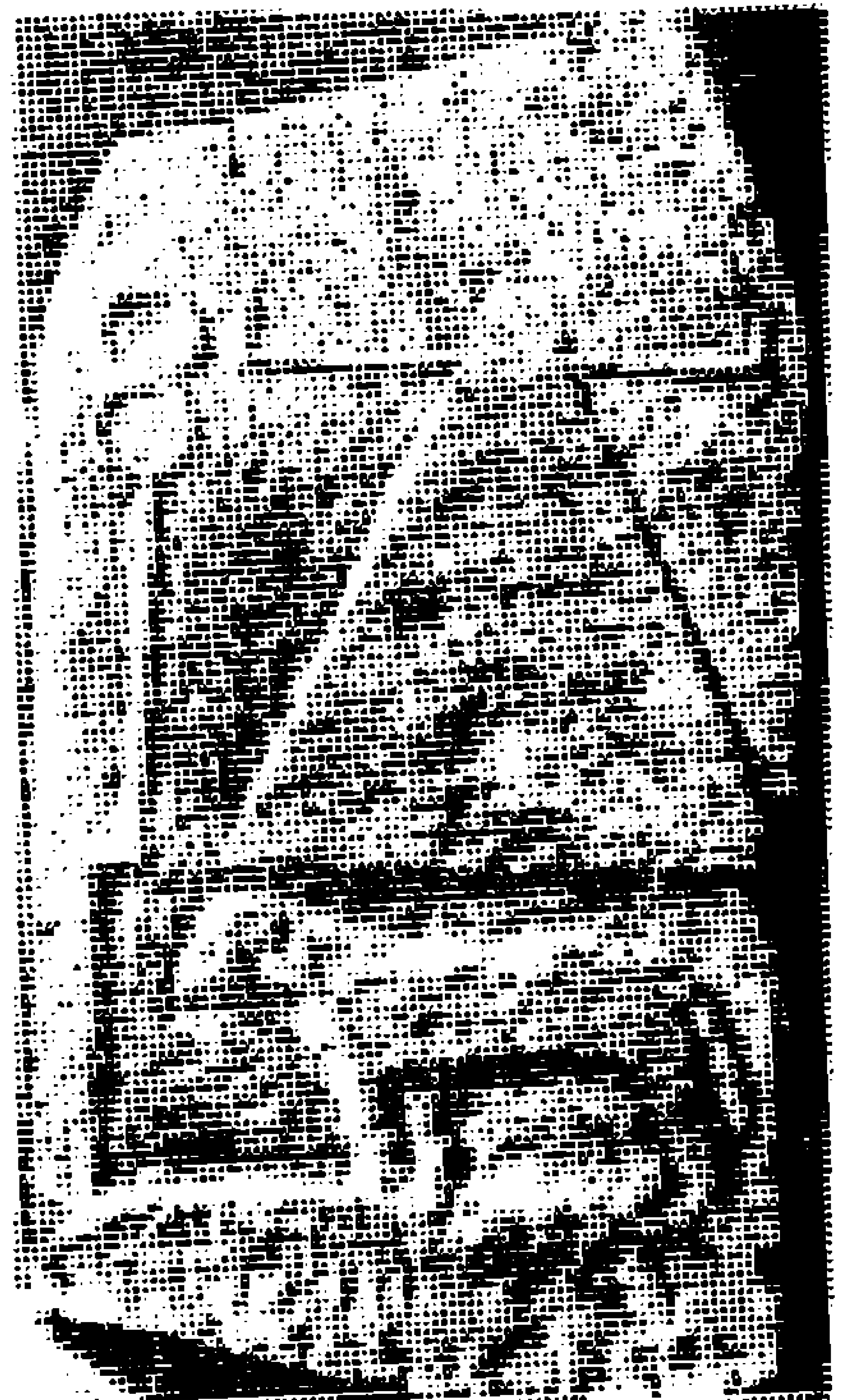
تشهد المقابر على وجود ديانة تعتقد في الخلود. فقد كان الأموات يدفنون بعناية : تحت البازينة (بناء حجري مخروطي فوق قبر)، وتحت الدولمن ذى الغطاء الأحادي الحجر، وتحت شوشة (قلنسوة، نوع من القلاع الاسطوانية) وكان الميت يطرح مطويا على العموم، كما كانت التعرية من اللحم ممارسة في أحيان كثيرة وكذلك تلوين العظام بالمغرة. وغالبا ماكانت

تحتوي الأضرحة عظام تعود للعديد من الأفراد. وكان البربر يمارسون، في الأصل، إحيائية زراعية أساسها ذكر: والمطر أساس أنثوي وكذلك الأرض. فيما بعد تبنوا الآلهة الأجنبية التي كانوا يعتقدون أنها ترد الجميل: فأدمج بعل، إله الفينيقيين الذي سماه اليونانيون كرونوس Cronos وسماه الرومان ساتورن Saturne، في المطر أو السماء، أدمجت عشتار Isthar أو تانيت بني بعل Tanit pené Baal الآلهة الفينيقية التي مزجت من طرف اليونانيين مع ديميتير Demeter، والتي تمسك بها الرومان تحت إسم سيريس Ceres، بالأرض الأم. إن الاله الذي عبد من طرف كل البربر هو بالتأكيد الإله الكبش. فقد ظل تقديس الكبش إله الشمس راسخا عدة قرون، وعثر على مسلات منقوشة وتماثيل صغيرة ذات الكبش الإلهي في كل شمال إفريقيا.

مكنت دراسة المجتمع البربري الحالي من إلقاء بعض الأضواء على معرفة معيشة أسلافنا. رغم ذلك فإنه من غير الممكن تجسيم التنظيم السابق الذي وجده المؤرخون في المغرب في بداية القرن التاسع عشر. فالمجتمع البربري لم يبق جامدا، فقد تطور مثل كل المجتمعات. وتظل الطريقة التي إرتكزت في وصف البربر على المقارنة قابلة للنقاش مهما كانت موهبة الذين عالجوها والمتأثرين بأحكامهم المسبقة على الخصوص. الذين حاولوا تبرير التواجد الإستعماري القديم والذين انتهوا الى استنتاجات غير متوقعة. فما هو أكيد هو أن الجزائر قد عرفت حضارة قديمة وذلك قبل الفينيقيين. إذ لم يعش البربر في عالم معزول، فقد كانوا على اتصال ببلدان عديدة : إسبانيا وإيطاليا والنوبة والحبشة. والبرهنة على ذلك ممكنة بواسطة بعض الدلائل : اللغات التي تنتمي الى نفس عائلة اللغة البربرية، والأنواع البشرية المتماثلة التي توجد خاصة على طول البحر المتوسط، وتشابه بعض الأدوات الحجرية وبعض الفخاريات.



نقش مزدوج :
ليبي وبونيقي (رأس جنات)



مسلة نذرية :
(الحفرة - قسنطينة) الى أعلى ،
شارة هرمس الى أسفل ، الكبش.

الحروف الليبية

خطوط أفقية تقرأ من اليمين الى اليسار	خطوط عمودية تقرأ من أسفل الى أعلى	مقابلها في البونيقية	مقابلها في الفرنسية
			B
			G
			D
			U
			Ž
			Z
			Z
			T
			I
			K
			L
			M
			N
			S
			F
			C
			Q
			R
			S
			T
			T
			H

نصـــوص :

أصــــل شعوب ومجتمعات شمال إفريقيا حسب هيمبصال

XVII. الناس هناك أقوياء ورشيقون وكادحون. يموتون ببطء، منهارين من الشيخوخة، إلّا الذين تفترسهم الحيوانات الضارية أو الحرب. فأموات المرض نادرون وإلى جانب ذلك هنالك الكثير من الحيوانات المقلقة.

أمّا بخصوص من هم الذين كانوا سكان إفريقيا الأوائل ومن هم الذين جاءوا للإقامة فيها فيما بعد، وبأي طريقة تم انصارهم، فإنني سأروي، بكلمات قليلة جدا مبتعدا في ذلك عن الرأي المسلم به عموما، مايقوله سكان البلاد وماتحصلت عليه من الكتب القرطاجية المنسوبة الى الملك هيمبصال والتي ترجمتها. أما مايتعلق بصحة الأحداث فإنني ألقي المسؤولية على عاتق مؤلفيها.

XVIII. كان الجيتول [illegible] سكان إفريقيا الأوائل، [illegible] كانت [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] يرعون الأعشاب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ولا أي نوع [illegible] الحكم. وكانوا متنقلين ومشردين ولايتوقفون إلّا حين يدركهم الليل.

عند وفاة هيركل Hercule الذي هلك في إسبانيا وهذا مايعتقده الأفارقة [illegible] جيشه [illegible] [illegible] رجال ينتمون الى [illegible] [illegible] [illegible] بدون قائد [illegible] الكثير [illegible] [illegible] كانوا يأملون [illegible] [illegible] شخصية [illegible] بسرعة [illegible] [illegible] والفرس والأرمن [illegible] [illegible] في [illegible] واحتلوا البقاع الأكثر قربا من بحرنا. [illegible] الفرس المنفصلون عن الآخرين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وصنعوا لأنفسهم أكواخا من هياكل قواربهم [illegible] لأنهم لم يجدوا الأخشاب في عين المكان ولم يكن في إمكانهم جلبها من إسبانيا عن طريق [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] اللغة العلاقات التجارية مع [illegible]

احتفظ هؤلاء الفرس شيئا فشيئا بالجيتول عن طريق الزيجات. وأخذوا ينتقلون من جهة الى أخرى وذلك للبحث عن أراضي جديدة، لهذا أطلقوا على أنفسهم إسم النوميديين. اليوم أيضا تشبه مساكن الفلاحين النوميديين، التي يسمونها هم مابال Mapales غواطس السفن كثيرا بشكلها الممدود وسقوفها المنحنية.

أما الميد والأرمن، فقد التحقوا بالليبيين الذين كانوا أقرب الى البحر الإفريقي، فوجدوا أنفسهم أقل عرضة لأوار الشمس من الجيتول. فأخذوا يشيدون المدن مبكرا لأنهم لم يكن يفصلهم عن إسبانيا سوى المضيق، وتمكنوا من تنظيم تبادل تجاري معها. أخذ إسم الميد يحرف شيئا فشيئا من طرف الليبيين، وانتهى الى أن أصبح مور في تعبيرهم البربري.

غير أن قوة الفرس قد حققت تقدما سريعا. فقد أجبر نمو السكان البعض على الإنفصال عن أسرهم مبكرا وعلى الإستيلاء على أرض واقعة بالقرب من قرطاجة. ولما كانوا معروفين باسم النوميديين، أخذت البلاد اسم نوميديا. بعد ذلك أخضع البعض والبعض الآخر، موحدين مجهوداتهم، بالإرهاب تارة وبقوة السلاح تارة، الشعوب المجاورة، ومدّوا صيتهم وقوتهم بعيدا، وخاصة الذين تقدموا منهم في اتجاه بحرنا، لأن الليبيين كانوا أقل استعدادا للحرب من الجيتول. وفي نهاية المطاف تم احتلال الجزء السفلي من إفريقيا كلية تقريبا من طرف النوميديين، وأخذ المهزومون ملحقين بالمنتصرين إسمهم.

Saliste, Guerre de jugurtha. XVII, XVIII dans Historiens romains, Edition Gallimard 1968, pp.63-64

حول مواهب الجنس البربري وفضائله النبيلة

لنذكر بعد ذلك الفضائل التي تعتبر شرفا للرجل والتي أصبحت طبيعة ثانية، تسارعهم الى اكتساب خصال حميدة، نبل الروح الذي يجعلهم في مقدمة الأمم، الأفعال التي استحقوا بها ثناء الكون، بسالة وحيوية الدفاع عن ضيوفهم ومواليهم، الوفاء بالوعود والإلتزامات والمعاهدات، الصبر عند الشدة، الحزم في البلاوى الكبرى، لطف المزاج، التسامح أمام أخطاء الغير، العزوف عن الثأر، الطيبة تجاه التعساء، إحترام الشيوخ والأتقياء، التسارع في إغاثة المعوزين، مهارة، ضيافة، إحسان، شهامة، بغض الجور، القيمة الإخلاقية التي كانت تبذل ضد الإمبراطوريات التي كانت تهددهم، الإنتصارات المحققة على أمراء الأرض، الإخلاص لله ولدينه، تلك هي، بالنسبة للبربر، مجموعة من الخصال المشهورة وهي صفات موروثة عن أسلافهم حيث عرضها كتابة يمكن أن يكون مثلا للأمم اللاحقة.

Iben Khaldoun, Histoire des Berbères, Paris, 1925, TomeI,pp. 199-200.

الفصل الثالث

الجزائر والفينيقيون

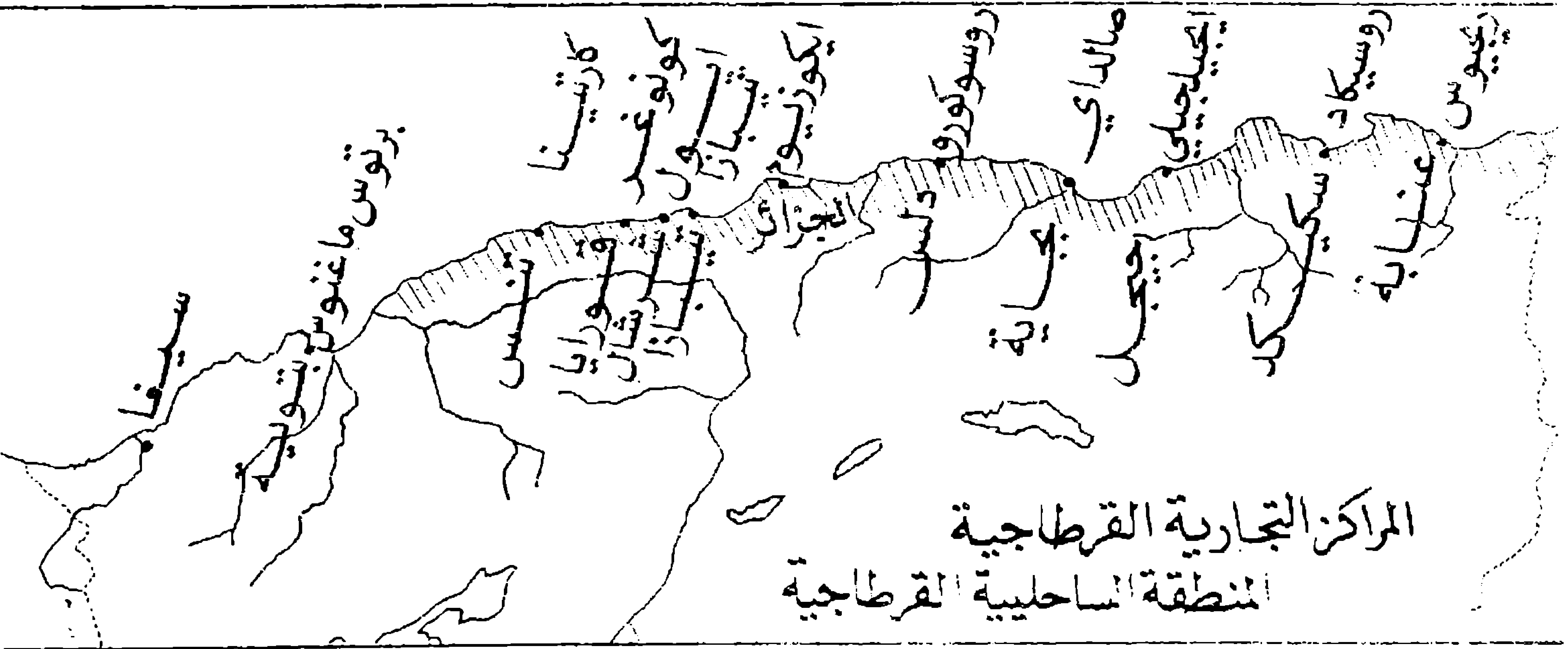
كانت الجزائر بالنسبة للفينيقيين منطقة عبور أساسا بين المراكز التجارية البعيدة للأطلسي التي تراقب، نحو الجنوب ونحو الشمال، أسواق الذهب والقصدير أين كانت تتمول التجارة الفينيقية، ومركز الإستهلاك والتوزيع الذي هو قرطاجة. لقد كان البحر «الطريق» المفضل للفينيقيين، وعلى طول هذا الطريق كان بحارتهم في حاجة الى قواعد للتموين، الشيء الذي لايتمّ الاّ في الماء العذب. وهكذا أقاموا محطات إتصال في كل ثلاثين أو أربعين كيلومترا وعلى امتداد السواحل الجزائرية: تلك كانت المراكز التجارية التي انطلاقا منها استغل القرطاجيون الجزائر. كانت خطوط السير المقامة مصدر بعض التقدم لدى البربر، وفي أغلب الأحيان رغم إرادة القرطاجيين أنفسهم.

قرطاجة والجزائـــر

إبتداء من القرن السابع عشر قبل الميلاد، كانت شعوب من أصل حامي - سامي تحتل ناحية لبنان الساحلية التي كانت تسمى فينيقيا أو بلاد النخيل من طرف اليونانيين، أين كانت توجد المدن الرئيسي عراض وبيريت أو بيروت المعاصرة وبيبلوس وصيدا وصور. لم يكن في إمكان الفينيقيين الخروج من مدنهم إلاّ عن طريق البحر. وربما كانوا هم البحارة الأوائل في العالم. ملاحين وتجارا أساسا وجد الصوريون ترحيبا من طرف البربر بقدر ماكانت إسبانيا الغنية بمختلف المعادن تثير أطماعهم. خوّل لهم البربر، مقابل أتاوات، إقامة محطات إتصال ومخازن للماء العذب على الساحل الافريقي أولا ثم مراكز تجارية أين استقروا مع عائلاتهم. وعقب مؤامرة، كان

على المملكة عليسار Elissar ، وهي من صور. أن تتزوّج تدرك ساحل إفريقيا حوالي 860. وحسب ما ورد في الأسطورة، لم يقبل بارباس ملك البلاد أن يبيعها سوى مساحة الأرض التي يمكن إحاطتها بجلد ثور وبسعر مرتفع. تمكنت سيشي Sichée التي أخذت إسم ديدون (الهاربة). فضل السيور الدقيقة المقطوعة من جلد ثور، أن تحيط مساحة واسعة جدا، الشيء الذي مكنها من بناء قصر سمي بيرسا (جلد الثور)، فيما بعد شيّد خلفاؤها قرطاجة (المدينة الجديدة Kart-hadath) . وأنشأ القرطاجيون بدورهم مستعمرات. واقتصرت سيادتهم على السواحل بصفة خاصة، ماعدا الأراضي الواقعة في شرق الجزائر التي كانت تعود لأملاك قرطاجة بمعنى الكلمة. والدليل الذي بقي لنا حول هذه المدن محدودة في مقابرها في أحيان كثيرة، فقد اختفت أغلبية المراكز التجارية تحت أسس المدن اللاحقة. ولكن كانت المواقع البونيقية ممتازة وحسنة الإختيار : بين جزيرة والقارة في منطقة محمية من الريح بواسطة الجزيرة نفسها، أو بواسطة رأس يوفر نفس المزايا، وأن تعذر ذلك ففي مصب شهر، أو في ميناء إصطناعي فعلا محفور داخل الساحل. المستعمرات الرئيسية التي كانت على ساحل الجزائر هي : هيبوHippo (عنابة)، روسيكادRus-Cear (سكيكدة)، شيلوChuilu (القل)، جيجل (جيجيلي) صالدي Saldae (بجاية)، روسوكورRusucuru (تاكسبت)، روسغونياRusgunia (البرج البحري) إيكوسي Ikkoci (الجزائر)، أيولYol (شرشال)، كيرتينKertenne (تنس)، سيغا Siga (رشغون).

إذا كانت السيادة القرطاجية قد ظلت محدودة في هذه المدن، فإنه يجب ألّا يغيب عن البال أن المراكز التجارية كانت معزولة بعضها عن بعض من جهة ومن جهة أخرى فإنها لم تراقب من طرف قرطاجة إلّا خلال قرنين أو ثلاثة. فهل يمكن القول إذن أنه لم يكن هناك تسلل بونيقي الى داخل الجزائر؟ بعكس حال الصوريين الذين كانوا يدفعون أتاوة للبربر، فإن القرطاجيين أرغموا هؤلاء، الأخيرين، وبالخصوص الذين يسكنون بجوار مراكزهم التجارية، على دفع ربع مداخيل أراضيهم واستخدموهم وسطاء مع سكان الداخل. فالمنفعة التي كان يحققها الفينيقيون


المراكز التجارية القرطاجية
المنطقة الساحلية القرطاجية
هيبون
عنابة
روسيكاد
سكيكدة
إيجلجيلي
جيجل
صالداي
بجاية
روسوكورو
دلس
إيكوزيوم
الجزائر
تيبازة
كارتينا
تنس
بورتوس ماغنوس
سيفا

... باقي البلاد الكبيرة فعلا. ومما لاشك فيه أنه كان يدفع ببعض المستعمرات الصغيرة نحو داخل الجزائر، فعلى سبيل المثال يوجد معبد بونيقي في ناحية قسنطينة : ضريح دوغا مع نص بونيقي ونص ليبي على أنوصين ...ماوزين.

مع هذا يبقى من الصعب تحديد تخوم عرض المنطقة الساحلية التي كان يمتد عليها التراب القرطاجي.

كان النوميديون يتجمعون، خارج التراب البونيقي، في قبائل وفي دول على رأسها رؤساء مؤهلون، أمراء وملوك. وسعت قرطاجة للحصول على تحالف مع هؤلاء القادة. فقد كان القريبون من التراب البونيقي يحافظون على استقلال ذاتي. وكان البعض منهم يدفع أتاوات ويسلمون رهائن لقرطاجة ـ سلمت ... 300 من هؤلاء لهانون ـ ويضعون فرقا عسكرية في خدمة الجمهورية. ... نحو الغرب كان الملوك يصمدون في وجه أطماع قرطاجة. فسيفاقص ملك الماصيصيل لم يرض بأن يلعب دور التابع، وحاول زيادة على ذلك أن يفرض نفسه حكما بين روما وقرطاجة.

التأثيـرات البونيقيـة

لم يتمكن العالم البربري من أن يحرم نفسه من الإثراء بالإتصال بالحضارة البونيقية، فلم يكن التأثير البونيقي على المستوى المادي فحسب بل كان على المستوى الثقافي والديني أيضا.

فازدياد المراكز التجارية يفترض مبادلات تجارية نشيطة بين البربر والقرطاجيين. كان هؤلاء الأخيرون يبيعون كل أنواع السلع : أدوات، ملابس، حلي، وأشياء من الحديد والبرونز. وكان البربر بدورهم يمولون بالأخشاب، الفلين، الأصواف، الجلود، السمك والزيت والحبوب. وكان على البربر لكي يبيعوا بعض منتوجاتهم، أن يتعلموا كيفية تحويلها، أفضل من الإحتفاظ بها. واستخلص القرطاجيون ربحا كبيرا من تجارتهم مع البربر، كانوا وسطاء على الخصوص يكتفون باستبدال مشحونات الشرق الوفيرة بالمنتوجات البربرية. فكانت تجارتهم تجارة وكلاء. ولم يكونوا في حاجة حتى الى العملة، وذلك بالتجائهم الى أسلوب المقايضة. ولم تكن لهم عملة إلاّ مؤخرا. يمكن الكلام

عن إمبريالية مركانتيلية قرطاجية وعن استغلال إفريقيا الشمالية، وبالتالي الجزائر، لفائدة الفينيقيين وحدهم. فاغتناء قرطاجة لاشك فيه، إذ بقدر ماكانت تزداد أرباح التجارة، كانت تمس ضرائب المواطنين والأتاوات المفروضة على الليبيين الخاضعين المسيطرين على المناجم. وهكذا كانت الخزينة المتخمة تسمح للقرطاجيين بأن يجندوا مرتزقة وأن يستعملوهم في مواجهة إنتفاضات البربر أو ضد اليونانيين.

في تاريخ الحضارة، أنتج تدخل قرطاجة في الجزائر إقامة شبكة من التبادل وضعت بلادنا في علاقة مع باقي العالم. فضلا عن ذلك أحدثت اللغة البونيقية تقدما لاشك فيه في أوساط البربر وقد أستخدمت خلال عدة قرون وبقيت الى عصر القديس أوغسطين Saint Augusitin . وكان التأثير الديني أعمق من ذلك فآلهة فينيقيا كانت هي كذلك آلهة قرطاجة ومستعمراتها، تحت أسماء جديدة في بعض الأحيان : تانيت إلهة الخصب وبعل هامون الذي أدمج في الإله الكبش من طرف البربر وملكارت Melqart وهيركل الصوري وايشمون Eshmoun الإله المشيء، الخ.

تعرف القرطاجيون على الفن اليوناني ويظهر تأثيره في هندسة معابدهم وأضرحتهم. كانوا ينقشون توابيت يمثل عليها الميت وهو في ثيابه الخاصة بالإحتفالات. كما كانوا بارعين في الفنون المعدنية بصفة خاصة الفخاريات والزجاجيات والحلي والقماش حيث كانت الزخرفة تستوحى من فن فينيقيا في أول الأمر، ثم أثريت بالنماذج المصرية واليونانية خاصة.

الحربـــان البونيقيـــتان والبربر

و.دن قرطاجة نفسها، بعد أن احتلت ميسينا (269 ـ 268)، في ..واجهة روما. تلتقي الإمبرياليتان في مضيق ميسينا، بدافع طموحاتهما ال... التي تجعلهما تتجابهان. فأخذ الرومان المبادرة ونظموا غزو صقلية ونزلوا في إفريقيا. ولأحد من الخصمين حقق انتصارا حاسما، لما كانت المعا... تجري ببطء، والامبريالية العسكرية الرومانية أكثر صلابة من إمبريالية قرطاجة المركانتيلية، كان على هذه الأخيرة أن تتفاوض، وأن تخلي صقلية وتلتزم بدفع تعويضات ضخمة. منهوكة بفعل الحرب فلم يكن في مقدورها أن تدفع أجور الـ 20 000 مرتزق صقلي، بالإضافة الى ذلك كان الليبيون ... حاا : كان قد صودر نصف محصولاتهم وسجن الذين لم يتمكنوا من دفع ما عليهم من ضرائب كما صلب 300 من الفارين من الخدمة العسكرية تقريبا. فتمرد البربر وكان ماتو الإفريقي أحد قادتهم الكبار، طلب الدعم من كل المدن الإفريقية وجه نداء الى النوميديين. فاستجاب الليبيون المضطهدون الذين سلبهم القرطاجيون أموالهم لندائه. وقدمت النساء البربريات كل مالديهم من أشياء ثمينة وسلمن حليهن لأجل قضية الحرية. وتمكن 70 000 ليبي من احتلال برزخ قرطاجة وتونس (240)؛ ومحاصرة أوتيكا وبنزرت. لقد سمحت خيانة النوميدي نارافاس والدور المزدوج الذي لعبته روما التي، بعد أن موّلت المتمردين، دعمت القرطاجيين مقابل تخليهم عن كورسيكا وسردينيا، لقرطاجة بتحقيق النصر. فقبض على ماتو وصفي تحت تعذيب شنيع. ولم تنته الحرب بهذا القدر فقد دامت ثلاث سنوات وأربعة أشهر، كما انفجرت قلاقل في 247 بنوميديا.

بهدف تنظيم ماليتا سلّمت قرطاجة إسبانيا للجنرال الفينيقي هاملكار Hamilcar الذي أســس أكــرالانك (أليكــانت)، واصــل هاسدروبال Hasdrubal الذي أنشأ قرطاجنة (قرطاجة الجديدة) في وسط المنطقة المنجمية الإسبانية سياسة هاميلكار صهره. وبعد مقتل هاسدروبال، جعل جيش إسبانيا هانيبال بن هاميلكار قائدا له، وهو شاب في الـ 25 من عمره، أظهر صفات نادرة لقائد ومنظم.

إجتاز البرانس، وقطع الرون، واجتاز الألب (218)، ونفذ جيشه الذي كان يتألف عند الإنطلاقة من 000 50 جندي من المشاة و 9000 فارس و37 فيلا، الى وادي البو ولم يعد يحتوي أكثر من 000 12 افريقي و 000 8 ايبيراي و 000 6 فارس و 21 فيلا. حققت الهندسة العسكرية لهانيبال العديد من الإنتصارات لكنه لم يعرف كيف يستغلها ولم يجرؤ على محاصرة روما. وإبتداءمن 213 تفوق الرومان من جديد وطاردوا البونيقيين من صقلية؛ غزا كورنيسليوس سيبيون Cornelius Scipion الأندلس واقترح نقل الحرب الى افريقيا.

نزل سيبيون في افريقيا 204 . ولم يكن لقرطاجة جيش، وكانت تعول على دعم الأمراء البربر. فدافع عنها هاسدروبال وسيفاقص فقط ضد الرومان، لكنهما أخفقا. وساهم ماسينيسا في سقوط سيفاقص الذي سجن. وتمكن سيبيون، بفضل فرق ماسينيسا، من الحاق الهزيمة، في زاما (202) بالقائد هانيبال الذي استدعته قرطاجة من اسبانيا. فكان على قرطاجة أن تخضع، وأن تعترف لماسينيسا بإمتلاك الأراضي النوميدية. لقد ظهر الأغليد العظيم سيد افريقيا، وهو المنتصر الأكبر في الحروب البونيقية.

بحثا عن ايكوزيوم

ان نقودا عثر عليها في مدينة الجزائر السفلى، قد كشفت عن الإسم الحقيقي للمدينة : إيكوزيوم.

« أوضح كانتينو أن إيكوزيم كانت مركبة من كلمتين : الحرف الأول الذي يعني الجزائر، الشيء الذي يعيدنا الى جزر الإميرالية الأربع التي أثارت مصلحة البونيقيين كما هو الشأن في أماكن أخرى ومثل ماهو الشأن، بعد ذلك، حيث لفتت إنتباه العرب الذين أطلقوا على الموقع اسم الجزائر، أي الجزر. من جهة أخرى، ودائما حسب كانتينو، تحمل كوزيم هنا معنيين، معنى عقبة ومعنى طيور شريرة تقيم في الأنقاض، أي بوم. فايكوزيم Ikosim هي جزيرة العقبات أو جزيرة البوم. كان فيكتور بيرار قد تطرق الى المسألة بعد، في مشهوراته (إبحارات أوليس) إنطلاقا من إيكوزيوم وترجم كوس Kos بقارب الإنقاذ. فتكون إيكوزيم إذن جزيرة قوارب الإنقاذ. مؤخرا أبدى ج. ماركو بينو تفضيله لهذا التفسير الثالث ».

....

في ديسمبر 1952، عثر، بمكان بناية الخزينة الحالية، شارع 8 نوفمبر (أول نوفمبر)، عند إقامة أعمدة الخرسانة، على فتحة بئر كانت توجد على مترين أسفل الردم. لقد كشف تحري هذا البئر عن ثلاث طبقات متمايزة بوضوح، بالنسبة للذي تهمه العصور القديمة :

أ) في القاع وأسفل 13 م : توجد فخاريات سوداء، ورمادية وبيضاء. الفخار الأسود والرمادي تمثله كسرات إستثنائية الفائدة لأن الشقفات ذات البريق الأسود منفصلة عن آنية جرسية الشكل يعود تاريخها الى القرون الثالث والثاني والأول قبل الميلاد. أي أنها تعود بنا إلى عصر أسبق من نقود إيكوزيم البونيقية وتثبت منذئذ علاقات تجارية سواء مع إيطاليا الجنوبية أو المستعمرات اليونانية في جنوب بلاد الغال أو مع مستعمرات الساحل الشرقي من إسبانيا. وفي نفس المستوى عثر على قدح عجيب ينتمي الى مجموعة

الانية ذات الطينة البيضاء المصنوعة في العديد من معامل بلاد الغال بوادي أليير، كما هو الشأن في سانت ريمي أون رولات Saint Rémi – enRollat وغرانات وفيشي. فالشقفات مزينة جزئيا بنقوش متناسقة دقيقة على الجوف وبارزة أكثر فأكثر نحو الأسفل. هذه المرة يوجهنا هذا الإناء الأبيض إذن نحو بلاد الغال.

ب) إلى الأعلى، بين ـ 13 م و ـ 8.45 م فإن الفخارية مختلفة تماما : إنها الفخارية الحمراء، المبرنقة ومن النوع الرفيع. وهي تنتمي إلى ثلاثة أنواع فتعرف بينها فخارية أريزو بالطينة الحمراء، المتينة والرنانة، المحمية ببرنيق لايتحول والموينة بتضاريس وقد إكتسبت شهرة كبيرة في العالم الروماني إذ احتكرت، كما هو معروف، زبائن الثلث الأخير من القرن الأول قبل الميلاد إلى غاية الفلافية Flaviens ، بمعنى حتى حوالي 75 من تقويمنا. بعد ذلك تأتي الفخاريةالغالو- رومانية التي تنسب لمعامل ليزوكس وغروفيسانك والتي حلّت محل الأولى إبتداء من الفلافية. إنها تعرف بسهولة، فالبرنيق أقل لمعانا ومتانة، ويبقى الطين المشوى من النوع الجيد أيضا. يبدأ التزيين دائما تقريبا بنقش من الزخارف البيضية حيث الشكل متميز. الزخارف البيضية، على فخار أريزو، ذات شكل قلب النتوءات الدقيقة البارزة في شكل تضاريس تؤكد تخطيطاتها وذلك بإكتساب النقوش الكثير من الإناقة والرقة، في حين أن الزخارف البيضية هنا مستطيلة وكثيفة ومفصولة بنصال الحراب، وإذا كان نقش الزخارف البيضية مؤكدا بشبكة متموجة، فإن الخطوط تبدو أفقية وعمودية على الخصوص وتحصر خانات مزينة بأشياء مجازية : معجلة مسرعة، طير كلب جار، الخ. زينة صفيحة الماء ذات الصلصال الصيني منتشرة كذلك. أخيرا، توجد الفخارية الإفريقة، المبرنقة كذلك ومن النوع الجيد. تصادف هذه الفخارية الشبيهة بالسابقة في كل مكان من إفريقيا وهي تعود إلى القرن الثاني وأوائل القرن الثالث بعد الميلاد.

جـ) أخيرا وإلى أعلى، بين ـ 45. 8 م و ـ 40. 6 م : لاتصادفنا سوى الفخارية الرومانية الشائعة، الضخمة بالإضافة الى أن أقل جفافا ورنينا وهي تحتوى شوائب أكثر فأكثر ولا وجود للبرنيق وزخرفة التضاريس. إننا في القرون الثالث والرابع والخامس.

ما يبدو، عبر هذه الفخارات، هو حياة إيكوزيوم، في علاقاتها التجارية مع إيطاليا الجنوبية وإسبانيا وبلاد الغال وكذلك في حياتها اليومية وفي حياة الأجيال المتعاقبة حول هذا البئر المستودع، بين القرنين الثالث قبل الميلاد والرابع أو الخامس بعد الميلاد.

Marcel Le Glay, *A La recherche D'Icosium dans Antiquités africaines*, tome 2, 1968.

الفصل الرابع

الممالك البربرية الأولى

إنه لقبل مجيء القرطاجيين، كان العالم البربري منفتحا على الحضارة، سبق تنظيم المجتمع البربري كذلك قرطاجة بقرون عديدة. فالعائلة والقرية وربما المدينة كانت حقائق في « البلاد » إبتداء من نهاية النيوليتي. قد مسك أغاليد بأيديهم مصير كونفيديراليات كبيرة للقبائل وممالك بربرية؛ كانت ماصيصيليا أوليبيها. ويمكن إعتبار تشكيل الممالك البربرية شكلا من أشكال معارضة ومقاومة القرطاجيين.

المجتمع البربري

إن تراكم بعض، وأحيانا آلاف الأدوات والأسلحة في العديد من محطات ماقبل التاريخ، يدفعنا إلى الإعتقاد بأنه، في مكان واحد، قد عاشت أجيال متعاقبة وسكان كثيفون جدًا.

العائلة

كان الزواج والعائلة قديمين جدا لدى الليبيين حسب أقوال هيرودوت. وكانت العائلة البربرية برئاسة الرجل فكانت تستمر من ذكر الى ذكر. وكان تعدد الزوجات ممارسا والعزوبة نادرة جدا. وكان للقادة عدة نساء في العادة وللأمراء والملوك العديد من المحظيات، كما كانت العائلات البربرية ترحب بالأطفال. وتمثل الدور الرئيسي للعائلة في الإستمرارية وتضامن الأجيال. وكانت العائلة بالمعنى الواسع للكلمة تتسع لتشمل الذرية الذكور لجد مشترك، ويضاف إليهم أزواجهم. وهذه المجموعة التي تنتسب لجد

([illegible]) [illegible] يسمون [illegible] [illegible] يتخرجون بالعقد والأكثرة التي [illegible] [illegible] يستعمل اللاتينيون (milia [illegible] (tribus).

يقصدون [illegible] الذي [illegible] المسلح والذي يعيش مستقلاً وأحقة [illegible] الـ [illegible] [illegible] العائلات [illegible] [illegible] [illegible] مستقلة [illegible] ضرورة [illegible] [illegible] والدفاع عن النفس [illegible] [illegible] كانت [illegible] [illegible] بالأجداد [illegible] الآلهة [illegible] كل فرد يعيش في [illegible] الجمهورية [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] العائلات وخاصة الكبار [illegible] القرار [illegible] [illegible] اللاتينية [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] القضاء [illegible] القانوني [illegible] [illegible] تنفيذ [illegible] الجماعة إلى من يشبه المعلم القاضي.

القبيلة الأرستقراطية

كانت القبيلة [illegible] بين العائلات والجمهوريات [illegible] فإذا [illegible] رابطة [illegible] أو هجومية أساساً فهي جماعة عسكرية [illegible] الأجنبي [illegible] [illegible] [illegible] اللاتينيون يسمون الـ [illegible] بمعايير ([illegible]) و ([illegible] أو gentes) . وكانت القبيلة مرتبطة بأرض [illegible] كانت أم [illegible] فهي [illegible] بالقوة [illegible] الذين لهم نفس أسلوب [illegible] [illegible] وكان في إمكانها [illegible] الرئيس [illegible] [illegible] [illegible] تستدعي الضرورة ذلك [illegible] [illegible] إلا في حالة الحرب [illegible] [illegible] لبعض رؤساء الحروب المنتصرين أن يفرضوا أنفسهم عند عودة السلم [illegible] أمراء [illegible] يجعلون السلطة في [illegible] [illegible] فالمؤلفون القدامى يتكلمون عن أمراء [illegible] [illegible] [illegible] Tite-Live كلا من [illegible] [illegible] بعبارة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أو [illegible] [illegible] في العصور [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] basileus [illegible] nasteus وفي اللاتينية [illegible] rex أو [illegible] [illegible] بالفرنسية [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ([illegible] باليونانية) [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

مجاورة أن تتحد فيما بينها سواء خلال حرب ضد عدو مشترك، أو لفترة أطول. كانت الكونفيدرالية المكونة بهذا الشكل تضم القبائل القاطنة في وحدة جغرافية واسعة. فقد عرفت بربارِيا خلال العصور القديمة تجمعات أكثر اتساعا. فبوليب Polybe يذكر الليرجيت، ومن بين النوميديين يتحدث عن الماسيل والماصيصيل والموروس.

الأغاليد

كان الملك قيادة حربية بصفة خاصة، وممارسا من طرف الرجال. كان الملك ملكية عائلية ووراثيا. والوريث، في الأصل، هو الأكبر سنا من ذكور العائلة لهذا كان لغايا Gaïa ، في حوالي 207 ، كخليفة، لابنه ماسينيسا لكن أخاه الأكبر سنا. وفيما بعد أراد الملوك أن يخلفوا السلطة لأبنائهم، فبعد وفاة ماسينيسا، إقتسم المملكة أبناءه الثلاثة مسيبسا وغولسة ومستنبعل. كان الملوك البربر يسيرون أنفسهم [illegible] والبعض منهم [illegible] [illegible] وزرائهم [illegible] وكان [illegible] [illegible] [illegible] كانت [illegible] [illegible] كانت تحتفظ بتنظيم [illegible] [illegible] بعض المدن حتى [illegible] [illegible] وكان للقرى البربرية نظام أصلي [illegible] على رؤساء القرى. [illegible] محدودة، فقد كانت القبائل والمدن والقرى [illegible] استقلالها. ويمكن أن يجد [illegible] الجزائريين [illegible] هذا التنظيم السياسي البعيد الغور.

كان هؤلاء الملوك [illegible] وكان [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

كذلك من الجمارك والنهب والرسوم التي كانوا يفرضونهاعلى الاسر[illegible] وإستفادوا أيضا من عائدات أملاكهم. فقد إمتلك الملوك البربر خزائن [illegible] فيوغرطا تمكن من الحصول على أموال هامة سمحت له أن يشتري [illegible] الروماني.

لدينا العديد من النقود البربرية المصنوعة من البرونز ومن الرصا[illegible] وحتى من الفضة. لدينا نقود تعود الى سيفاقص ولإبنه فيرمينا في أواخر [illegible] الثالث. هناك نقود تحمل صورة ملك ملتحي يحمل إكليلا أو تاجا مكللا [illegible] هو ماسينيسا، تعود هذه النقود الى عهد الإغليد العظيم، بل والى عهد مس[illegible] وغولسة وأدربعل أيضا.

الممــــالك البربريــة الأولى

نشأت بعض المدن على غرار قرطاجة، ولكن واقع البلاد كا[illegible] متكونامن أراضي القبائل والكونفيديراليات. فالقرية كانت هي الإطار العاد[illegible] لمعيشة المستقرين أكثر من المدينة. وكان تحت تصرف الرحل الأكثر [illegible] مجالات واسعة من البلاد.

إننا لا نعرف في أي عصر انتظمت الممالك الأولى وأقدمها قد تكو[illegible] مملكة ياربا، في القرن الخامس، العاهل الذي أراد أن يتزوج من [illegible] حسب أسطورة بناء قرطاجة. ويتردد الكلام كذلك عن ملك موري و[illegible] شخص اسمه ايليماس ملك الليبيين ومن بين الرؤساء الأوائل للماصيل ذكرنارافاس الذي كان يقود النوميديين في أراضي خارج أملاك قرطاجة. وكا[illegible] المملكة الماصيلية موجودة ابتداء من القرن الرابع، يسجل في القرن الثالث وجود كونفيديراليتين على أراضي الجزائر الحالية :



المدراسن : الضريح البربري الواسع المحاط بمدينة الأموات حيث تتخذ القبور شكل الجثوة.



عملة سيفاقص : الصورة متوجة بضفيرة طويلة مشبكة ولحية مستديرة.

الظهر : فارس راكض على حصان ملجم يرتدي معطفا متموجا.

يمسك بيده اليمنى لجام مطيته وباليسرى قضيبا. المفتاح :

- مملكة الماصيصيل من مولوشة Mulucha (الملوية) إلى الأمساغا Amsaga (الوادي الكبير) بعاصمتها سيغا (بالقرب من تافنة).

- مملكة الماصيل في شرق الأمساغا حتى التراب القرطاجي بعاصمتها هيبوريجيوس أوزاما.

من المؤكد أن الحدود بين الماصيصيل والماصيل قد تغيرت مرات عديدة وقد بذلت قرطاجة مجهودها للحصول على صداقة وتحالف المملكتين بهدف التزود بالمرتزقة وضمان الأمن حول مراكزها التجارية. غير أن الملوك البربر لم يكونوا أتباعا طيّعين كما تمنت قرطاجة وروما.

حارب ملك ماصيليا غايا أبو ماسينيسا أول الأمر القرطاجيين الذين أخذ منهم أراضي قبل أن يكون حليفهم، كما حارب سيفاقص القرطاجيين في أول الأمر وكان ماسينيسا في خدمة قرطاجة في إسبانيا في 206، ثم إنتقل الى إفريقيا وعرض بعد ذلك خدماته على سيبيون.

مملكة ماصيصيليا

يخبرنا سترابون أن « أراضي المور كانت تتبع أراضي الماصيصيل التي تبدأ من نهر مولوشة وتنتهي عند رأس تريتون »، فالنهر يمكن أن يكون نهر الملوية أما الرأس فهو رأس بوقرعون. فالماصيصيل كانوا يشغلون إذن المغرب الشرقي وثلثي الجزائر. وإذا كانت تيت - ليف يسجل سيرتا عاصمة لمملكة سيفاقص في سنة 203، فإن المؤلفين يشيرون إلى الأهمية التي أولاها العاهل خلال السنوات السابقة لإسبانيا وغرب البلاد. إذن سيغا هي المناسبة لتكون عاصمة لمملكة ماصيصيليا، فعلا فهنالك استقبل في 206 سيبيون وأسدروبال. زيادة على ذلك فإن العديد من قطع النقود تعود لسيفاقص في سيغا، ويبدو أنه في ذلك العصر فقط تمكن الملك من صك العملة. فالمجموعتان النقديتان اللتان تحملان صورة سيفاقص وصورة إبنه فيرمينا تظهران الملك في كل مرة محزما بإكليل. فكان سيفاقص إذن على رأس قبائل الغرب وانه لمن هذه المقاطعة الغربية الأكثر إزدهارا كان يحصل على الفضة والجنود. إنه أول قائد بربري ظهر كملك فعلا وأول ملك صك النقود. عاهل قوي كان يجعله حمل الإكليل مساو بالملوك

بالرغم من أنه تزوج من أميرة قرطاجية إلاّأنه كان مستقلا جدا تجاه بلاد زوجته. فقد كانت القوتان العظيمتان للبحر المتوسط الغربي تتنافسان حول تحالفه؛ فالتقاؤه بسيبيون وأسدروبال جعل منه قوة ثالثة، القوة التي كانت تسود البحر المتوسط الغربي.

أظهرت حفريات حديثة أهمية المواقع البونيقية، في جزيرة رشقون وفي مرسى مداخ والأندلس وفي بتويةوغلتا وفي غورايا سيدي ابراهيم ومواقع المدن الساحلية أيضاالتي كانت منافذ ومراكز اقتصادية لماصيصيليا. فقد نظمت تجارة متوسطية بين الألميريا والجزائر الغربية. فمن اسبانيا كانت تأتي الفخاريات ومنتوجات معدنية، وكانت الجزائر تصدر العاج وأصداف بيض النعام.

لا يعرف نظام هذه المدن معرفة دقيقة. ولاشك في أن بعضها كان مستقلا ذاتيا، والبعض الآخر كان مراكز تجارية مرتبطة كلية بقرطاجة والأغاليد. ومن المؤكد أن بورتوس سيجينواس Portous Sigenois (عند مصب تافنة) كانت تابعة كلية لسيفاقص. ربما كانت هناك مدن داخلية في مملكة سيفاقص؛ إذ أن أواني فخارية قرب الأصنام وقطعة نقدية في الظهرة تفترض ذلك.

وليست هناك معلومات أكثر حول التنظيم الاداري للملكة؛ إن دراسة النقود ذات اسم سيفاقص واسم ابنه فيرمينا، تحمل على الاعتقاد بأن سيفاقص قد أشرك ابنه في سيادته.

ونعلم من سترابون Strabon أن ماصيصيليا كانت مملكة غنية جدا؛ فقد كانت تمول كثيرا بالفضة والجنود. كانت الحرب التي خاضها سيفاقص ضد قرطاجة ثم روما وضد ماسينيسا أصل إنحلال المملكة.

مملكة ماصيليا

كانت مملكة ماصيليا تمتد على الجزائر الشرقية وتونس الغربية. إذ كانت أقل إتساعا من مملكة الماصيصيل، لكنها كانت تمثل وحدة أكثر، فسكانها كانوا أكثر إرتباطا بالأرض ومدنها أكثر عددا : دوغا وتبسة

وسيرتا. ومن الصعب تحديد المكان الأصلي لقبيلة ماصيليا. فمن المعروف أن إيليماس قد حكم في ناحية ،دوغا، وأن ماسينيسا قد دفن في الخروب بالقرب من سيرتا وأن الميدراسن هو قبر شخصية عظيمة. يمكن إعتبار التل الأعلى أو سيرتا أو الناحية الواقعة الى الجنوب، المكان الأصلي لأجداد ماسينيسا. كانت مملكة ماصيليا تشمل في الأصل ناحية سيرتا، في الغرب، وحوض باغرادا مع الدورسال التونسية في الشرق. فهي ضيقة في الشمال، ويتسع التراب الى الجنوب في الأراضي الشاسعة التي كان الجيتول البدو يتحركون فيها.

بلغت هذه المملكة درجة عالية من الحضارة : أراضي مزروعة جيدا وتربية ماشية مشهورة ومدن عديدة،وعندما أعلن ماسينيسا ملكا بعد سقوط سيفاقص،وأخذ الإغليد العظيم مقاليد المملكة الماصيلية بيده أصبح مصيره هو مصير كل البربر.

مملكة الماصيصيل

- سيفاقص (حوالي 213 ـ 202 ق. م)
- فيرمينا (202 ـ 192 ق. الميلاد)

ملوك نوميديا

أوزلسيس (توفي 207) ؟
كابوسا (207 ـ 207) ؟
ليكوماسيس (204 ـ 202)

غايا توفي 208 ؟

ماسينيسا (202 ـ 148)
فتاة ماسيفا (148 ـ 118)

فتاة — سيانوس — ماسغابا — مستبعل (148 ـ 140) — فولوسة (148 ـ 140) — ميسا (148 ـ 118)

اسدروبال

بوغرطة (118 ـ 104)
أوكسينتا

غودة (105 ـ ...)
هيمصال الثاني (106 ـ 60)
يوبا الأول (60 ـ 46)
يوبا الثاني
بطولمي (23 ـ 40 بعد الميلاد)

حكما موريطانيا (25 ق . 23 بعد الميلاد)

ماسيفا (توفي 110)

هيمصال 1 (118 ـ 140)
أدربعل (118 ـ 112)

حكموا ماصيليا الغربية:
هيارباس (108 ـ 81)
ماستنبسا (81 ـ 48)
أرابيون (60 ـ 40)

من 40 الى 43 إلحاق موريطانيا، في 43 التحول الى المقاطعة

Cité par J. MAZARD, CORPS NUMMORUM NUMIDIAE MAURETANIQUE paris 1955, P. 28

الفصل الخامس

حكم ماسينيسا

ماسينيسا هو أكثر ملوك نوميديا شعبية. إن فترة حكم هذا الملك العظيم الطويلة ليست معروفة، مع الأسف، إلآمن خلال الحروب البونيقية. فتاريخه الطويل مرتبط بتاريخ روما في إفريقيا. لقد أوقفت روما بالفعل حركة توحيد البربر وذلك بعرقلة النوميديين في إستعادة قرطاجة، ثم فرضت بعد ذلك تقسيم مملكة ماسينيسا. والسؤال مطروح حول معرفة ماإذا كان هذا الأخير قدإستخدم روما أم أنها إستخدمته ؟ يسمح عمله بالميل إلى الأطروحة الثانية. كان عاهلا عظيما فتجاوزت شهرته حدود مملكته؛ لقد حقق وحدة إفريقيا البربرية وجعل منها أمة حرة ودولة مستقلة ومزدهرة وترك ذكرى أغليد عظيم موصيا الأجيال اللاحقة بالرسالة السامية التي غالبا ماحمل لواءها المقاومون الجزائريون : « إفريقيا للأفارقة ».

الإنســـان

النص الليبي الذي يقدم إسمه يكتبه MSNSN ، فيكون نطق إسمه إذن ماسينيسا MASSINISSA (سيدهم). في نهاية حرب هانيبال كان يبلغ ماسينيسا 37 سنة من العمر.شبابه مليء، فقد حارب في إفريقيا وفي إسبانيا وغزا مملكة الماصيل مرتين ومني بالفشل عارفا مغامرات الخارج عن القانون والهارب، كما شارك في الإنتصارات الرومانية محتلا مكانة هامة في معركة زاما.أقام سلطته على الماصيل واحتل دول سيفاقص واعترفت به روما «١٤٢»

كان ماسينيسا جميلا، ذا قامة طويلة وقوة نادرة. فبإمكانه أن يظل واقفا أو على ظهر الحصان نهارا كاملا، وهو صاحب الثمانين سنة يقفز على الحصان دون أية مساعدة ويتحدى البرد والمطر برأس عارية؛ تقدمه النقود بالغا من العمر أربعين أو خمسيين سنة بقسمات منتظمة وشعر طليق ولحية مدبية، وكانت قوته نادرة حيث أنجب طفلا وهو في سن 86. كان له 44 إبنا ذكرا ومع ذلك كان يحبهم. كان ذا شجاعة عالية. في الريف يقاسم فرسانه معيشتهم، ولكنه يعرف كيف يعيش في قصره بسيرتا، أين كانت الموائد في ولائمه، مغطاة بآنية من الفضة وسلاسل من الذهب. خصّ إبنه مستنبعل بتربية يونانية، مبرزا بذلك إهتمامه بالثقافة الهلنستية وربما كان ذلك نوعا من المعارضة لروما.

وحـدة «البـــلاد»

كان توسع مملكة ماصيليا منتظما؛ تمّ في إتجاهين، نحو الغرب ضد الماصيصيل ونحو الشرق ضد قرطاجة. فبعد معركة 203 التي سقط خلالها سيفاقص، فتح ماسينيسا الجزء الأكبر من ماصيصيليا كان بين يدي إبن سيفاقص، فيرمينا، الذي كان عليه أن يواصل مقاتلة روما بعد معركة زاما وأن يوقع السلم معها بعد ذلك؛ إبتداء من 201 نظم ماسينيسا، الذي إكتفى في أول الأمر بإعادة منطقة سيرتا، فتح كل المملكة. وفي حوالي 152 كان ماسينيسا سيد كل تراب نوميديا، واختفت مملكة ماصيصيليا. إن فتوحات الجهات الغربية لمعروفة بشكل أفضل، بقدر معرفة الحرب البونيقية الثالثة التي خرجت منها والتي كانت أصل إقامة الرومان في إفريقيا. في الشرق، كان ماسينيسا بأراضي أجداده، الأراضي المحتلة من طرف الفينيقيين. فالأراضي المحتلة من طرف قرطاجة، بالنسبة لماسينيسا، أصبحت كذلك بالعنف وهي أصل أملاك قرطاجة اللاشرعية. وكان حق ماسينيسا معترفا به صراحة من طرف سيبيون.

إن حوادث الحدود ومتابعة المتمردين في الأراضي القرطاجية واحتلال أرض، كان قد سلمها سيفاقص للقرطاجيين، قد شجعت ماسينيسا. فبين 174 و172 إنتزع القرطاجيين أكثر من 70 مدينة وموقعا، وفي 162 إستولى

بصفة نهائية على مدن أمبوريا EMPORIA وليبتيس ماغنا Leptis Magna على الخصوص، و في حوالي 153 إستولى على ناحية السهول الكبرى (الوادي الأوسط من مجردة). لقد دفعت روما ماسينيسا أو تركته يفعل مايشاء. في 150 إنفجر الخلاف في وضح النهار. حيث طردت قرطاجة أنصار ماسينيسا من المدينة، وحاولت أن تدفع البربر الى التمرد. وفي سن 88 سنة قاد الأغليد العظيم النوميديين إلى النصر (150). فكان على قرطاجة أن تقبل بالهزيمة وأن تدفع تعويض حرب كبير. تركت روما الأمور هذه المرة تسير على حالها. واستغلت ذلك بشكل أفضل للاجهاز على قرطاجة. حيث قرر مجلس الشيوخ إنهاء المدينة، فعلى القرطاجيين أن يتخلوا عن عاصمتهم. إن ذعرا عنيفا قد أصاب القرطاجيين المحاصرين من طرف روما. ولم يتحقق تخريب قرطاجة بسهولة، فدعا الرومان ماسينيسا لكن بدون جدوى. الدعوة الثانية كانت من طرف سيبيون الإيميلي لكن ماسينيسا كان قد توفي (148). إستمر الصراع حتى 146، وفتحت قرطاجة بيتا بيتا. وقرر مجلس الشيوخ تخريبها واستؤصلت المدينة من الوجود. حيث لم تسمح روما لماسينيسا بالإستيلاء على أرض قرطاجة. وأوقفت الإمبريالية الرومانية العمل الوحدوي للعاهل البربري العظيم. ويكفيه ماسينيسا أنه كان، كما يخبرنا تيت ليف، قد أعلن أن إفريقيا يجب أن تعود للأفارقة وأن تتخلص من الأجانب سواء كانوا فينيقيين أو رومانا.

أصبحت المراكز التجارية القرطاجية القديمة موانئ نوميدية. وعاد العالم البربري اذن الى البربر. لقد تجاوزت شهرة ماسينيسا حدود افريقيا، فقد سمح له أسطوله الهام كذلك بإقامة علاقات تجارية مع أثينا: ديلوس ورودس. فأقيمت على شرفه تماثيل في المدينتين الأخيرتين. لقد كانت روما تضع في اعتبارها أن لها قضية مع عاهل كبير. وبنية كسبه لقضيتها، أعلنته ملكا في الوقت الذى كان فيه بعد ملكا، ومنحته مملكة سيفاقص في حين كان قد فتحها بعد. لقد تنبأت روما بأن سيادة ماسينيسا ستكون سيادة استثنائية.

فتوحات ماسينيسا

مملكة غاية
فتوحات 203
201 _ 200
مابين 200، 193
مابين 193، 162
من 174 الى 172
من 153 إلى 152
المملكة 150

قرطاجة
توغا
هيبو
تابوس
ايول
سيرتا
سيكا
الماصيل
تيفاسب
المدراسن
الجيتول
الماصيل
سيغا

عمل الأغليد العظيم

السلطة :

كان حكم ماسينيسا أول حكم تاريخي. فقد كان طويلا جدا (من 203 إلى 148)، وهذه المدة الطويلة تفسر بالقوة البدنية والعقلية للعاهل بدون شك، لكنها تفسر أيضا بكفاءة الملك الذي عرف كيف يفرض سلطته على أفراد عائلته ويبعد المنافسين المحتلين. وكان على ماسينيسا أن يصادف صعوبات عديدة مع اتباعه رؤساء القبائل. فنزاعاته مع مازيتول وتوشايوس وأغازيس وسوباس، الذين لم يترددوا في الانتقال الى جانب العدو القرطاجي، تثبت ذلك. لقد كان على ماسينيسا أن يحصل على اعتراف رؤساء القبائل به. فالأمر يتعلق اذن بنوع من الولاء، حيث أراد أغليد أن يكون عاهلا لا رئيس قبيلة، وقد نجح في توسيع سلطته الى حد بعيد. كانت المملكة النوميدية تجميعا للقبائل الكبيرة أو الكونفيديراليات التي كانت تشكل وحدات سياسية أساسية. وكانت تملك أسواقا وبعض القرى؛ كانت المدينة منظمة خارج القبيلة، وتدار من طرف حاكم لكنها تدار أيضا من طرف جمعية للشعب تملك السيادة المحلية. خضعت قوة المملكة لوحدة الشعب الماصيلي وتلاحم القبائل حول العاهل. اذ وفرت القبائل للملك فرقا عسكرية وعرف ماسينيسا كيف ينظم جيشا نظاميا تحت سلطته. وكان تنظيم هذا الجيش مشروطا بتنظيم المالية. فاستلهم الملك في كل هذه الميادين النموذج البونيقي. هل استفاد ماسينيسا من عبادة ملكية، وهل رأى فيه النوميديون إلها في حياته ؟ هذا مايراه بعض المؤرخين. لقد قوى ماسينيسا سلطته صابغا عليها صبغة الهية. واذا كان تأليه الملوك تعوزه الأدلة الكافية، فمن المؤكد أن ماسينيسا، مثل أسلافه زيادة على ذلك، قد استفاد من عبادة جنائزية أصلها قديم جدا.

الزراعة :

يخبرنا سترابون Strabon أن ماسينيسا حول عددا كبيرا من البربر الى مزارعين وحضرهم. فمملكة ماصيليا كانت تملك مناطق فلاحية عديدة،

ووفرتْ الفتوحات أراضي غنية جديدة للمملكة : في بعض الجهات، كما يخبرنا سترابون، يكفي كشط الأرض بعد الحصاد كي تعطي الحبوب الساقطة محصولا جديدا. أثنى بوليب كثيرا على سياسة ماسينيسا الزراعية، فقد اهتم الأغليد بالفلاحة فعلا، واستثمر الحقول الملكية التي اتسعت بفضل الالحاقات بصفة معتبرة. ويمكن الاعتقاد في أن المدن التي يرتبط اسمها بنعت ريجيا أو ريجيوس كانت جزءا من الاملاك الملكية : بولا ربجياBulla Regia، زاماريجيا، هيبوريجيوس hippo Regius، تيميداريجيا. فباستغلاله لحقوله قدم ماسينيسا بنفسه المثل لرعاياه وكانت النتائج التي تحصل عليها أصل شهرته فيما يخص الفلاحة. فديودورDiodore يخبرنا أنه ترك لكل واحد من أبنائه أرضا من 875 هـ تقريبا متوفرة على كل ما هو ضروري للفلاحة : عتاد وماشية. انه لبفضل السلم الذي ساد مملكته بصفة خاصة نمت الزراعة النوميدية في عهد ماسينيسا.

قطعة نقدية تحمل إسم ماسينيسا بالحروف كلها (متحف قسنطينة)





عملة ماسينيسا : صورة مكللة بالغار، طوق أنيق، صلوجان مزخرف.
الظهر : حصان يخطو، الى الخلف رمح مزخرف مغروز في الأرض،
الى الأسفل : مفتاح قابل للفك جزئيا. (HMNLKT) .

المــدن :

تجمع المزارعون الجدد في قصبات منيعة. فضل ماسينيسا تمدين البربر؛ منح الحواضرالجديدة تنظيما مستلهما من تنظيم المدن الفينيقية بحكم أطلق عليهم اسم سوفات suffètes . ويقدم كامبس جدولا مفصلا للمدن الرئيسية بالمملكة النوميدية :

- العواصم : سيرتا، سيغا Siga ايول Iol ، زاما.

- مدن ريجا : تيميديا ريجيا، زاما ريجيا، بولاريجيا، هيبوريجيوس. تيميدا.

- مقرات خزائن المملكة أوعواصم الدوائر الجبائية : ماكتارMactar تيميديا، تالاكابسا Thala Capsa ، سوتول Suthul ، كالاما Calama ، سيرتا، كاستيليوم مولوشة Castellum de la Mulucha

- مدن مدارة من طرف سوفاتيين (في العهد النوميدي أو الروماني) ألتيبوروس كالاما Altiburos Calama ، كابسا، سيرتا، غاديوفالاGadiaufala غالس Gales ، ليبتيس ماغنا Leptis Magna ، ليميزا Limisa ، ماكتار، ماكولاتوغا.Macula Thugga

- مدن أخرى للمملكة النوميدية : ماكاماراتا، كونوغو Cogono ، مادوروس Madauros ، إيكوزيوم، لاريس Lares ماكوماديسMacomades ناراغارا Naragara ، ريجا، روسكاد، صالدي، سيكا Sicca سيميتيرSimitter تابراكا Tabraca ، تينا تاغورا Thaenae Thagura ، تيميسي Timici تيسيديوم Tisidium ، فاغا Vaga زوكشابار Zucchabar

التجارة :

أهمية التجارة مؤكدة بواسطة نمو النقود. والكثير من النقود تمثل شخصية ملتحية، وعلى الظهر حصانا طليقا راكضا أو ثائرا، والعديد منها يحمل MN إختزالا لـ MSNSN بمعنى ماسينيساأوMKWSN بمعنى مسيبسا. كانت النقود قد ضربت قبل ماسينيسا، بقدر العدد الكبير من القطع التي وجدت حوالي قسنطينة. وكانت عملة من الرصاص ومن البرونز تلك التي

استعملت في التجارة الداخلية. وكانت هذه المبادلات تتم بالمقايضة أيضا، وكان السكان الريفيون يدفعون ضرائبهم ماشية وقمحا. أما التجارة الخارجية فقد هيأ لها ماسينيسا نقودا من الذهب والفضة الأجنبيين اللذين كان يتحصل عليهما مقابل القمح والعاج وريش النعام وحيوانات السيرك والخشب. وكان لمملكة ماسينيسا علاقات تجارية مع اسبانيا وقرطاجة وروما. بل وكانت لها علاقات حتى مع العالم اليوناني : رودس وأثينا وديلوس. فكانت نوميديا تصدر القمح بصفة خاصة؛ ينظم كامبس، بالرجوع الى تيت ـ ليف، الصادرات نحو روما كما يلي :

14 000 قنطار من القمح	10 500 قنطار من الشعير في 20	200
14 000 من القمح		198
56 000 قنطار من القمح	28 000 قنطار من الشعير في	191
70 000 قنطار من القمح		170 في

لقد جذب ماسينيسا تجارا يونانيين الى حواضره. وخصّ بولب بإستقبال جيد جدا. حافظت إفريقيا على علاقات مباشرة مع الشرق دون المرور بقرطاجة. وذلك كان عمل ماسينيسا.

الديـــــن :

حتى على المستوى الديني كان لماسينيسا تأثير كبير. ففي زمنه كانت المدن تعبد بعل هامون، والآلهة الفينيقية، أما الريف فكان يعبد الآلهة والجنيات المحلية. وكان بعض الليبيين يعبدون الشمس والقمر أيضا. من المؤكد أن ماسينيسا لم يستطع أن يرفض معتقدات الإفريقيين، حيث أنه لفي إفريقيا عبّر، حين إستقبل ب. كورنيليوس سيبيون : « إنني أحمد لك الشمس العالية جدا وآلهتكم السماوية .. ». إنه إله الشمس ذلك الذي يتضرع اليه. مكسوبا من الحضارة الفينيقية، فإنه وافق على أن تعبد الآلهة الفينيقية في المدن. إذ هو الذي هدى النوميديين، المفتونين باليونانيين، الى عبادة السيريس اليونانية، العبادة الطبيعية ذات المشاهد الماجنة الموجهة الى إنعاش الخصوبة الأرضية.



صومعة لخروب : ضريح ماسينيسا

خلفاء ماسينيسا

أراد ماسينيسا أن يضمن العرش لذريته، وقررت الامبريالية الرومانية في هذا الشأن خلاف ذلك.

بالفعل وخوفا من تشكيل دولة بربرية قوية، حطمت روما آخر طموح لماسينيسا، إبقاء المملكة لشخص إسمه مسيبسا Micipsa وهو الذي أعطاه خاتمه. الشيئ الذي كان نوعا من التتويج. ماهي غاية ماسينيسا من ترك العناية بتسوية خلافته ليسيبيون الإيميلي، لروما ؟ ألم تكن له ثقة بإرادة مسيبسا ؟ هل كان لمجلس الشيوخ الروماني فيتو؟ ألم تكن له ثقة بإرادة مسيبسا ؟ هل كان لمجلس الشيوخ الروماني فيتو؟ هل كان هناك تدخل من الأتباع النوميديين ؟ قسمت المملكة بين أبناء ماسينيسا الثلاثة الذين إستعملوا لقب الملك. فأصبح مسيبسا رئيس الإدارة المدنية، وغولوسة Gulussa رئيس الجيوش ومستنبعل Mastanabal كلف بالعدالة وربما بجباية الضرائب.

لقد إستحق مسيبسا، الذي عاش أكثر من أخويه، مواصلة عمل الأغليد العظيم. واحتفظ بالعلاقات الحسنة التي بدأت في حكم أبيه مع روما وسعى الشيئ نفسه مع جاره الموري. ومن المؤكد أن عهده كان هاما، فقد إزدادت الوثائق الرسمية : النقوش التقديمية لمعبد ماسينيسا في دوغا، نقش جبل ماسوج البونيقي، نقش شرشال المأتمي. من المحتمل أن إيول كانت إحدى عواصم مسيبسا. لقد أحدث موت الملك عام 118 أزمة : فقد ترك مسيبسا المملكة لثلاثة ورثة : ولديه أذربعل Adherbal وهيمبصال Hiempasal اللذين إقتسما الوظائف المدنية وابنه بالتبني، إبن أخيه، يوغرطة الذي إستلم قيادة الجيوش. وإذا كانت التقسيمات تضعف البربر، فإنها لاتغضب روما. بل بالعكس، لها فائدة في ذلك. ورغم ذلك فإن عبارة Regnum Numidiac قد ظلت على قيد الحياة. هناك أغليد عظيم آخر سوف يسعى لتوحيد نوميديا : يوغرطة.

ماسيبسا

كان ماسينيسا، ملك النوميديين، أفضل وأسعد الملوك في أيامنا. حيث حكم أكثر من ستين سنة، وظل على الدوام في صحة جيدة. عاش طويلا، وبلغ سن التسعين سنة. وقد كان يتفوق على كل معاصريه بقوة البدن. فكان بامكانه أن يظل واقفا كذلك نهار كاملا في نفس المكان، عندما يتحتم البقاء واقفا. وعندما يتحتم البقاء جالسا فإنه لايبدي أي حاجة الى الوقوف: يتحمل الأتعاب التي تحتمها عليها المسيرات الطويلة على الحصان، في الليل كما هو الحال في النهار، دون أن يشعر بأي شكل من تلك الاتعاب. وهاهو حدث يوضح قوته البدنية : عند وفاته في سن التسعين سنة، خلف ولدا يبلغ اربعة عشرة سنة، يسمى ستيمبانوس، وهو الذى تبناه مسيبسا فيما بعد. ولقد كان له، قبل هذا المولود الأخير، تسعة ابناء آخرون. وبفضل المحبة التي كانت تجمعهم دائما، لم تعكر أبدا سلم مملكته مؤامرة ولا أية جريمة عائلية، خلال حياته. لكن أجمل وأروع أعماله كان كالتالي : قبله، كانت نوميديا كلها جذبا وساد الاعتقاد بأن أرضها لايمكنها أن تقدم محاصيل؛ ورغم ذلك، فانه بموارده فقط، أول من أثبت أنها تستطيع أن تنتج كل انواع الثمار، بقدرانتاج أي قطر آخر. وذلك بإنشائه لحقول خاصة من عشرة آلاف بلتير، قسمها بين أبنائه، وقد اتضحت أنها خصبة جدا. انه لمن الانصاف التذكير بذلك؛ وذلك لاحياء ذكراه احياء جديرا.

Polybe, Histoire, XXXVI, 16, Collection de la Pléiade, Paris, 1970, PP. 1169–1170.

ماسينيسا و سيبيون .

ان المحادثات، تهـ ماسينيسا و التي كانت قد بدأت من قبل، قد وجدت مبررا ومبررا لت . لها، لأن النوميدي كان حتما يريد مقابلة سيبيون شخصيا وأن يصافحه حتى ينطلق الوفاء بينهما؛ لهذا قام سيبيون برحلة طويلة بهذا القدر ودورة كبيرة بهذا القدر. لقد إحتج ماسينيسا، الذي كان في قادس والذي أخبره مارسيوس بقدوم سيبيون، بأن خيوله كانت متعبة.

ومحبوسة في هذه الجزيرة؛ لقد سببت مجاعة عامة بالنسبة للكائنات الأخرى الموجودة هناك، وأنها هي نفسها قد شعرت بذلك، من جهة أخرى فقد فرسانه حيويتهم بسبب انتظار تسريح من ماجون للانتقال الى القارة لنهب النواحي الاسبانية الأقرب. من هناك يرسل الى سيبيون ثلاثة رؤساء نوميديين، لتحديد وقت ومكان محادثتهما. ويدعوه للاحتفاظ بإثنين منهم كرهائن ويعيد الثالث ليقوده الى حيث قيل له، وجاء القائدان الى الموعد رافقهما حامية صغيرة. كان النوميدي قد أعجب بعد بسيبيون، الرجل العظيم هذا، نتيجة إنتشار أخبار مآثره، وتخيّله وقورا ومهيبا كذلك؛ بل الأكثر من ذلك هو ذلك الإحترام الذي كان يتشبث به في حضوره : زيادة على كون سيبيون يتمتع بهيئة ضخمة طبعا، فإن هذا الأخير كان يتحلى بضفيرة طويلة من الشعر، لم تكن من الأدب والاناقة، لكنها كانت حقيقة رجولة عسكرية؛ كان في سن كل القوى في قمة نشاطها، قوة كانت، بالنسبة له، أكثر من اكتمال وعظمة ذلك الذي أعاد المرض، بشكل من الأشكال، إزدهار شبابه من جديد. شكر النوميدي سيبيون، مذهولا تقريبا، عند إقترابه منه على إطلاق سراح إبن أخيه؛ منذ تلك اللحظة، كما أكد، أخذ يبحث عن هذه المناسبة التي جاءت الآن كفضل من الخالدين، فلم يتركها تضيع، وكما أضاف، فإنه يريدأن يقدم خدمة لسيبيون وللشعب الروماني لم يقدمها أجنبي آخر عن روما، وهي الشيء الذي لايستطيع إظهاره في إسبانيا، وعلى هذه الأرض الأجنبية المجهولة، لكنه سيظهره على الأرض التي ولد فيها وتربى على أمل التاج الأبوي بسهولة؛ إذا كان هذا هو سيبيون نفسه الذي يرسله الرومان جنرالاً إلى إفريقيا، فإنه يأمل الآتعيش قرطاجة مدة أطول.

كان سيبيون مسرورا لرؤيته والإستماع إليه، وهو يعلم أن ماسينيسا قد كان الأفضل في الخيالة القرطاجية، وليشاهد الرجل الشاب وهو يعبر عن أحاسيسه بذلك الاسلوب. بعد تبادل العهود، عاد سيبيون إلى تاراغون؛ بموافقة من الرومان نهب ماسينيسا الأراضي القريبة حتى لايبدو أنه إنتقل الى القارة بدون سبب، وعاد إلى قادس.

Tite – Live, Histoire Romanine, Classiques Carnier, Paris, tome VI, XXXV, pp. – 273 – 275.

ماسينيسا في سيـــرتا

كانت سيرتا عاصمة لمملكة سيفاقص؛ التجأت اليها مجموعة من المهزومين. كان التخريب أقل أهمية من النصر في هذه القصبة، إذ لم يكن فيها إلا صراع الخيالة؛ لم يكن بها أكثر من خمسة آلاف قتيل، أقل من نصف عدد الأسرى الذين تم أسرهم خلال مهاجمة المعسكر أين كانت قد نزحت جمهرة من المحاربين، كانوا متأثرين بفقدان ملكهم. في هذه اللحظة، أعلن ماسينيسا أنه لاشيء، بالفعل، أجمل من أن يرى مملكة آبائه منتصرة مرة أخرى ومسترجعة ثانية، بعد مدة طويلة، في رأيه، لكن الإنتصارات ليست أكثر من الأحلام، لاتمنحه وقتا للإستراحة. حينذاك ـ كما أضاف ـ سمح له ليليوس أن يستخلفه في سيرتا، مع الخيالة وسيفاقص المكبل، وقد جعله الهيجان والخوف العام سيد الجميع؛ تمكن ليليوس من متابعته على مراحل صغيرة؛ فوصل ماسينيساالأول الى أمام سيرتا، بموافقة ليليوس، واستدعى نبلاء المدينة، لكنه قبل هؤلاءالرجال الذين كانوا يجهلون مصير ملكهم، الذين لم يخبروا بالحدث، لم ينجح لا بالتهديد ولا بالإقناع، قبل أن يريهم ملكهم المكبل حينئذ وأمام فرجة مريعة بهذا القدر، بدأت التأوهات وأخذ الخوف يغادر المتاريس من جهة، ومن جهة أخرى فتح الإمتثال المفاجيء للذين يريدون تفضيل المنتصرالأبواب. وبعد أن أرسل فرقا بالقرب من الأبواب والى نقاط التماس المناسبة، بهدف صدّ أي شخص عن الفرار، ذهب ماسينيسا متعجلا لحيازة القصر الملكي.

Tite Live, Histoire romaine, Classques Garnier, tome VI, XII pp.473 - 475

ماسينيسا ضد قرطاجة

(ماسينيسا يفتك سيرت الصغير وأمبوريا من القرطاجيين وروما تبرئه أمام ضحاياه).

في افريقيا، كان ماسينيسا، مجذوبا من المدن العديدة المقامة على الشواطيء سيرت الصغير وكذلك من رخاء القطر المسمى أمبوريا، يطمح منذ زمان طويل في المداخيل الهامة التي كانت تذرها هذه البلاد. فقد كان يسعى

لأخذها من القرطاجيين قبل العصر الذي نشغله الآن بقليل سيصبح، بعد قليل، سيد البلاد المنبسطة المكشوفة، بسبب كون القرطاجيين، الذين ينفرون دائما من خوض الحرب في البر، مرتخين حينذاك بفعل سنوات طويلة من السلم. لكنه لم يوفق في الاستيلاء على المدن، التي كانت محروسة. نقل الطرفان نزاعهما الى مجلس الشيوخ الذى أرسلا اليه سفراء عدة مرات. وفي كل مرة كان القرطاجيون يرون أطروحتهم ترفض من قبل الرومان، لأنهم كانوا على خطأ بل لأن القضاة الرومان كانوا على يقين من أنه من مصلحتهم أن يحكموا ضدهم. مع أن ماسينيسا نفسه، قبل بضع سنوات، حين كان يطارد بفرق عسكرية المتمرد أفتار، كان قد طلب من القرطاجيين السماح له بالمرور على البلاد موضوع النقاش. لكن هؤلاء، معتبرين انه لا يحق له ذلك أبدا، رفضوا طلبه ذلك. غير أنه في العصر الذي وصلناها فيه، لم يكن القرطاجيون قادرون على فعل أي شيء الا الاذعان أمام الأحكام التي سلمتها لروما. وكان عليهم لا مغادرة البلاد و المدن التي وجدوا فيها فحسب، بل وكذلك دفع مبلغ خمسمائة تالان، ويتعلق الأمر بالمداخيل التي سحبوها منها بداية الخلاف.

Polybe, Histoire, XXXI, 21, Collection de la Plèake, Paris, 1970. pp. 1098 1099

الفصل السادس

حرب يوغرطة



كان، منذ سقوط قرطاجة، قد إستقر في إفريقيا إيطاليون يبحثون عن الثروة وإنتشروا في مدن المقاطعة ونوميديا كحرفين وكتجار. واستعادت قرطاجة التي أعيد تعميرها الحياة ثانية. لقد وجدت روما مصلحة في إفريقيا واستطاعت أن توقف العمل الوحدوي لماسينيسا العظيم. فمصلحتها وسياستها هما : نوميديا مقسمة ومضعفة بملوك مخلصين لها. لكنها لم تجد في يوغرطة ذلك العاهل التابع الذي تنشده.

يسجل يوغرطة، في تاريخ نوميديا، المحاولة القصوى لأغليد بربري في سبيل مواصلة عمل ماسينيسا : ضمان وحدة واستقلال العالم البربري والوقوف في وجه الغزواة الأجانب. فقد كانت حربه حربا في سبيل الحرية. وقد عرفت فيه روما كفاءة مقاومة البربر.

بدايات يوغرطة

آوى مسيبسا، والد أدربعل وهيمبصال، يوغرطة ولد أخيه مستنبعل. يخبرنا سالوست أن يوغرطة قد تميز منذ الصغر بقوته، وهيبته وخاصة بذكائه. كان بارعا في التمارين المدنية، والصعود على الحصان ورمي الرمح، كان الأول في العدو والأحسن في الصيد. الشيء الذي يؤكد جيدا إسم « يوغرطان Yougourthen »، أعظمهم. كان مسيبسا مبتهجا ببدايات يوغرطة، لكنه في الوقت نفسه كان قلقا على أطفاله، فقد أزاحهم الإبن بالتبني في جميع الميادين. مرسلا من طرف مسيبسا إلى إسبانيا للقتال إلى جانب الرومان،

ظهر يوغرطة قائدا عسكريا كبيرا، فهنأ سيبيون مسيبسا على شجاعة إبن أخيه كما يلي: « إن لك في يوغرطة رجلا جديرا بك وبأبيك العظيم ماسينيسا » حينئذ قرر مسيبسا أن يقرب إليه يوغرطة بالنعم، فأقر نسبه وتبناه شرعا.

عند وفاته ترك المملكة لأبنائه الثلاثة. ولما ساد بين يوغرطة وأخويه بالتبني القليل من المودة، فقد قرروا إقتسام خزائن المملكة فيما بينهم وتعيين حدود الأراضي التي ستعود لكل واحد منهم. ولم يكن تقسيم نوميديا الى ثلاثة أقسام ليرضي يغرطة، فأصبح التقسيم اذن مسألة روما. إنه لفي مقدمات المسألة أين قتل يوغرطة هيمبصال؛ أرعب هذا الحدث أدربعل وقسّم النوميديين الى معسكرين. واستطاع يوغرطة متبوعا بالنخبة العسكرية أن يتغلب على فرق أدربعل (116)، وأن يجبر أخاه على النزوح الى المقاطعة الرومانية (115)، وعلى طلب العدل من روما. فاحتل يوغرطة نوميديا كلها. وغمر مبعوثوه الى روما أعضاء مجلس الشيوخ بالهدايا، وبذلوا جهدهم على أن أى اجراء قاس لن يتخذ ضد رئيسهم. حينئذ عيّن الحزب المعادى ليوغرطة 10 محافظين، على رأسهم لوسيوس أوبيموس، وهو العدو الصريح للعاهل النوميدي، لحل الخلاف بين الأخوين. وغمر يوغرطة لـ . أوبيموس بالهدايا والوعود. وقسميت المملكة، فسلم الجزء الأوفر غنى والأكثر سكنا من نوميديا، وهو الجزء الذي يلامس موريطانيا، ليوغرطة، أما أدربعل فقد سلم له الجزء الشرقي الذي فيه مواني وحواضر أكثر، بالاضافة الى سيرتا، ولكن ثرواته أقل. لم يرضخ يوغرطة لهذا التقسيم الجديد، فقد كان حلمه أن يصبح سيد نوميديا كلها، بل وسيد كل افريقيا، وأن يحمل لفائدته رسالة ماسينيسا « افريقيا للأفارقة ». بعد انتظار صبور دام أربع سنوات، /قاد جيشا قويا لتأكيد ارادته في وضع نوميديا كلها تحت سلطته. فغزا دول أدربعل واحتل المدن واستولى على غنيمة كبيرة جدا، لقد نجح في التغلب عى جيش أدربعل بالقرب من سيرتا. فاشترطت روماايقاف الحرب. لكن يوغورطة جاصر أدربعل الذي نزح الى سيرتا. فأحاط المكان بحصن وبخندق ونصب قلاعا ملأها العساكر. رغم إرادة روما فإنه قد واصل الحصار حتى إستسلام أدربعل الذي هلك وكذلك الايطاليون الذين وقفوا الى جانب هذا الأخير (112). قرر مجلس الشيوخ الروماني إيفاد جيش الى إفريقيا، ووافقت كل الأحزاب على الوقوف في وجه

الملك النوميدي. أوفد يوغرطة إبنه واثنين من المؤتمنين على أسراره لشراء كل الضمائر الرومانية مقابل الذهب.



عملة يوغرطة صورة أمردة ضميره متبكة مكللة بالغار.



عملة يوغرطة، الظهر: فيل سائر الى اليمين الحرف A

حــرب يوغـورطـة

كان الرومان يخشون بحق الحرب في إفريقيا : فزيادة على ذهب يوغورطة، كان لابد من أخذ قتالية البربرومعرفتهم للأرض في الإعتبار. فالبربر المقاومون جدا للتعب والمتحملون للسير الطويل، والذين لهم معرفة فطرية بالأرض ذاكرة سليمة للمواقع، كانوا بارعين في حرب العصابات وفي الكمين. لقد كانوا يعرفون كيف يراقبون العدو، ويعزلونه ويهاجمونه متى لا يتوقع ذلك. لم تكن ترعبهم المعركة الكبرى فهم يخوضونها في اللحظة والمكان المختارين من طرفهم بشكل أفضل. كانوا يستخدمون أسلوب الهجومات المتتالية بالخيالة والمشاة، منقضين على العدو وراميه برماحهم، حين لا تفصلهم عنه سوى ثلاثين أو أربعين مترا. وإن صمد العدو فإنهم يعيدون الكرة حتى ينكسر، فإن قاوم، لسوء الحظ فإنهم ينسحبون نهائيا لمواجهة معركة تالية. وفي حالة وقوع هزيمة حقيقية ينزحون الى الجبال أو الإستبس أو الصحراء لإستعادة قواهم ولإستعداد لمعارك جديدة. وذلك كان التكتيك العسكري البربري.

الحمــلات الأولى

غزت الجيوش الرومانية التي كان يقودها ل. كالبورنوس بيستيا مملكة يوغرطة، وكما يخبرنا سالوست فإن رؤساء هذا الجيش المبهورين بذهب يوغرطة قد تركوا أنفسهم عرضة للشراء والرشوة، وشرعوا في المفاوضات ووافقوا على السلم مقابل بعض الشحنات من القمح والماشية.

في روما أدان الحزب الشعبي قابلية النبلاء للرشوة وطالب ميمنيوس Memmius بالمجيء بيوغرطة الى روما تحت حماية ايمان الجمهورية للإدلاء بشهادته حول خيانات سوكوريوس وشيوخ آخرون.

أظهر يوغورطا جرأة ومثل أمام مجلس الشيوخ. متهوما من طرف ميمنيوس فقد أضنى نفسه حول أمر محامي الشعب بيبيوس Baebius الذي إشتراه مقابل الذهب ولم يجب عن الإتهامات الموجهة اليه. وكانت له الجرأة على قتل أحد الأمراء البربر، ماسيفا، وهو إبن غولوسة الذي أراد أن يعترف

به مجلس الشيوخ ملكا لنوميديا. فلم يستطع مجلس الشيوخ أن يفعل شيئا ضد الأغليد. وأصدر يوغرطة حكما تحقيرا على روما : « أيتهاالمدينة المعروضة للبيع ! ستهلكين سريعا ان وجدت مشتريا ». لم تكن إدانة يوغرطة ممكنة، لأن إدانته أعضاء مجلس الشيوخ الأقوياء جدا الذين إشتراهم. سلمت نوميديا إلى القنصل سب. بوستيميوس وعادت الحرب من جديد.

واصل يوغرطة المحادثات وأجلها. مؤجلا السلم أحيانا والحرب أحيانا أخرى فإن يوغرطة قد ظهر عسكريا أكثر منه مناورا. ففكر الرومان حتى في خيانة من البينوس المندفع كثيرا الذي إنتهى إلى التخلي عن قيادته لصالح أخيه أولوس. فحاول هذا الأخير إنهاء الحرب بسرعة. وأراد خلال شتاء (110 ـ 109) أن يهاجم سوتول أين كانت خزينة يوغرطة مودعة. فأنشأ مصطبات على السهل ذى المستنقعات في قدم جبل الوعر الذي بنيت عليه سوتول. نجح يوغرطة في حمل البينوس على رفع الحصار عن المدينة، وفي شراء ضمائر قادة المائة Centurions ، وقادة الخيالة وهاجم معسكر أولوس فجأة. تفاجأ الرومان وانتقلت بعض الفرق إلى جانب الملك، فقد فتح لهم ممرا في خندق، وتم غزو العسكر الروماني. حقق يوغرطة إنتصارا وفرض على الرومان الإنتقال إلى حالة الإستعباد ومنحهم عشرة أيام لمغادرة نوميديا. لقد فرض يوغرطة سلمه، وأهينت روما.

لم يشأ مجلس الشيوخ أن يعترف بالمعاهدة التي وقعها أولوس، وأعلن أن أية معاهدة لايمكن إبرامها دون أمر صريح من مجلس الشيوخ والشعب. نزل القنصل ألبينوس، شقيق أولوس في إفريقيا، في محاولة لمحو الخزى الذي كان قد لطخ أخاه، لكنه إعترف بسرعة أنه يفعل شيئا ضد يوغرطة بجنود واهني العزيمة وغير مطيعين وأنذال.

النضال ضد ميتلوس (109)

عيّن ميتيلوس Métellus قنصلا، وتفرغ كلية لتحضير الحرب، فنظم تأهبات جديدة، وجمع كمية من العتاد وسار الى نوميديا. فأدرك جيش ألبينوس وأعاد تنظيمه، وتقدم الجيش الرماني في تراب نوميديا. حاول يوغرطة أن يربح الوقت فأرسل سفارات الى ميتيلوس وضاعف مجهودات السلم. حث القنصل مندوبي يوغرطة على خيانة سيدهم وأذن لهم بالإنصراف من دون أن يرفض ولا أن يوافق على السلم.

تقدم الرومان الى التراب النوميدي واحتلوا موتول بالقرب من وادى تيسا Tessa (901). ولم تجلب معركة موتول نصرا حاسما للرومان لكنها بثبت اليأس في البربر. فاستنهض يوغرطة شجاعة جنوده ثانية، حاثا أياهم، مذكرا أياهم بماضيهم المجيد و بانتصارهم؛ فالهدف النهائي هو: الدفاع عن البلاد في مواجهة الرومان. خرّب ميتيلوس البلاد، ودخل سيكا (الكاف) لكنه لم يتقدم في التراب الجزائري. فكان يوغرطة يعيد جمع جنوده في كل مرة، مراقبا في كل مرة لحضة الانتقال الى الهجوم، مطبقا تاكتيك الأرض المحروقة في كل مكان أين كان على العدو أن يمر به، ومنهكا أياهما دون أن يترك لهما لحظة راحة، تارة ميتيلوس وتارة ماريوس.

أراد ميتيلوس أن يضرب ضربة قوية وأن يستولي على زاما، الحصن الرئيسي للناحية، معتقدا أنه بذلك يجعل المعركة لامفر منها. لم يكن يوغرطة قادرا على تقديم المساعدة لرعاياه، وحث سكان زاما على المقاومة. لقد كان الحصار فضيعا وقذف المحاصرون الرومان بسهام مشتعلة ومشاعل مطلية بالقطران والكبريت. فاستغل يوغرطة ذلك للانقضاض فجأة على المعسكر الزماني زارعا الرعب في صفوف العدو. لقد كانت المعركة في زاما عنيفة، فكان على ميتيلوس أن يعترف بفشله؛ فانسحب من زاما؛ وحاول أن يهزم يوغرطة عن طريق الخيانة، فاتصل ببوميلكار (الذى كان نظم مقتل ماسيفا) ووعد بانقاذ حياته في حالة ما اذا سلّم يوغرطة حيا أو ميتا. حاول بوميلكار أن يثبط همة يوغرطة وأن يجّره الى تسليم نفسه للرومان. وبعد تردد طويل عاد يوغرطة الى الحرب ثانية.

جنّد يوغرطة فرقا جديدة وحصن مراكزه وأصلح واشترى أسلحة واستمال اليه العبيد الرومان وعمل على شراء ضمائر جنود الحاميات الرومانية. في باجة نجح في اثارة الشعب و النبلاء ضد الرومان. ففي يوم سيريس الذي يحتفل به في باجة بصفة خاصة، المدينة الفلاحية الممتازة، دعا المتآمرون كل الى بيته، قادة المئة والقضاة العسكريين وقائد الحامية؛ قتل الجميع اثناء الوليمة ماعدا القائد. أما في المدينة فقد حمل الشعب السلاح ضد الجنود الرومان الذين ذبحوا في أغلبيتهم (91 ديسمبر 109). لقد انتقم ميتيلوس؛ بعد يومين تمّ احتلال الحاضرة وسلمت للنهب والأخذ بالثأر. لكن

يوغرطة بقي نشيطا مهددا بجيشه. واكتشفت مؤامرة بوميلكار وعوقب هو وشركاؤه. وبقي يوغرطة حراساته « مغيرا خط سيره في كل يوم وكذلك الضباط. فأحيانا يسير أمام العدو وأحيانا يغوص في الصحراء »، أحيانا فارا وأحيانا محاربا. في الجنوب وصل الى تالا الحاضرة الكبيرة والغنية أين كان يوجد قصره وخزانته. فحاصر ميتيلوس المدينة التي قاومت أربعين يوما قبل أن تستسلم. نقل المدافعون، الذين رأوا مدينتهم تتجه الى الضياع، كل ثرواتهم وكل الذهب والفضة الى القصر وسلموا كل شيء للنار: القصر والخزائن وأجسادهم، مفضلين الموت على الخضوع.

بعد فقدان تالا، لجأ يوغرطة إلى الجيتول، مدربا أياهم على الحياة والطاعة العسكريتين وأعاد تشكيل جيش؛ دفع ملك المور ليحمل السلاح ضد روما مقدما له الرومان كأعداء للإنسانية ولكل الشعب إذا كان غنيا جدا حسب رغبتكم. بالنسبة ليوغرطة، كان الرومان إمبرياليين متعطشين للهيمنة.

النضــال ضـد مـاريـوس

وضع ماريوس، المنتخب قنصلا من طرف العامة، نفسه على رأس قيادة حرب نوميديا وخلف ميتيلوس. عند مجيئ ماريوس، إتخذ يوغرطة وبوكوس Bouchus مواقعهما في أماكن صعبة الإقتحام حتى يجبرا العدو على تشتيت صفوفه. حاول ماريوس أن يعزل المدن والمواقع القوية عن يوغرطة ونجح في الإستيلاء على كابسا (قفصة) حيث كان السكان متعلقين جدا بيوغرطة (107). فأخذت المدينة وسلّمت للنيران« قتل النوميديون الراشدون وبيع الباقي منهم عبيدا ». فلم تكن لتهتم روما بقوانين الحرب. وبالقرب من سيرتا كان مكان مقابلة ثانية لم تكن ملائمة للملكين. واتصل بوكوس، مثبط الهمة، بروما التي أوفدت سولا Sulla

نظم ماريوس مسيرة كبيرة عبر الجزائر، وصلت حتى ناحية وهران واحتلت في طريقها مدنا عديدة. لقد وصل حتى الملوية وتمكن من الاستيلاء على القصر المحصن الذي كان يحتضن خزينة يوغرطة. فطلب هذا الأخير فرقا من بوكوس، وكان عليه أن يعده بثلث نوميديا في سبيل إقناعه. وهاجم الملكان معسكرا ماريوس، ففر منهما هذا الأخير عن قرب.

نهايــة يـوغرطـــة

أراد سولا أن يدفع بوكوس ليسلم له يوغرطة مقابل تحالف وصداقة الرومان فتردد بوكوس مبديا أعراضه عن تحمل سخط البربر « الذين كانوا يكنون ليوغرطة محبة بقدر الحقد الذي يكنونه للرومان ». من جهة حاول يوغرطة أن يجرّ صهره ليسلم له سولا، بهدف إرغام روما على ماليس لها فيه ثقة في إقامته نهائيا. ماإختاره بوكوس هو الخيانة، فقد جذب يوغرطة إلى فخ وسلمه للرومان. سلم يوغرطة محملا باغلال إلى سولا الذي قاده إلى ماريوس. وقد إحتفل هذا الأخير بإنتصاره، عارضا على الرومان فرجة غريبة، فرجة على يوغرطة الأسير. محبوسا في زنزانته تحت الأرض، ناضل يوغرطة ستة أيام في مواجهة الجوع والموت (105).

لقد دفع يوغرطة حياته ثمنا لحبه للحرية والإستقلال. كان لابد أن يظل إسمه بالنسبة للجزائريين رمزا لمقاومة الأجنبي، وكان لابد أن يوقظ لدى الرومان أحاسيس العار والشناعة عبر العصور. لقد إستلم الخائن بوكوس لقب حليف وصديق الشعب الروماني، والثلث الغربي من نوميديا؛ أخذ غودة بنمستنبعل، شقيق يوغرطة، نوميديا الشرقية نصيبا له. بالنسبة لإفريقيا المقسمة فإن ذلك فشل للوحدة التي حلم بها يوغرطة. لكن إفريقيا لم تكن قد غزيت بعد من طرف روما.

نصوص :

حرب يوغرطة معروفة لدينا بفضل سالوست. حيث كانت للمؤرخ اللاتيني الفرصة ليجوب نوميديا قبل الأحداث التي ترويها « حرب يوغرطة » بنصيف قرن، كما كانت له فرصة فحص مكتبة الملك النوميدي، وقد ترجم حكايات وأساطير البلاد واضطلع على مؤلفات المؤرخين لـ . كورنيليوس و بوز يدونيوس..

يـوغرطـة القـائد العـسكـري

يتكلم يوغرطة إلى البربر حاثا أياهم ومتوسلا إليهم أن يتذكروا أمجادهم الماضية وانتصارهم الحديث، وأن يدافعوا عن بلادهم وعن ملكهم في مواجهة جشع الرومان : « إن الذين يهمون بمحاربتهم قد هزموهم واستعبدوهم بعد ذات مرة. بتغيير القائد لايغيرون الروح. وكل مايجب على القائد أن يفعله من أجل ضمان ظروف معركة أفضل لفرقة قد فعله. لهم إمتياز الأرض وقد تدربوا على المعركة، والعدو ليس كذلك؛ وهم ليسوا أقل عددا منه. فليكونوا إذن على إستعداد وعزم للإنقضاض على الرومان، عند الإشارة الأولى. لقد حان اليوم الذي سينجلي عن تتويج كل مجهوداتهم وكل إنتصاراتهم أو عن بداية هلاكهم ». إنه يجد لكل محارب كلمة. فعندما يتعرض على جندي كان قد إستلم منه مكافأة يذكره بهذا الإمتياز ويقدمه قدوة للآخرين. إنه يعد ويهدد ويتوسل، حسب طبع كل واحد، بإختصار يستفيد من كل الوسائل كي يثير شجاعتهم.

الفـن العـسكـري ليوغـرطـة ضد ميتيلوس (امام موتول)

حين يرى يوغرطة الصفوف الأخيرة من جيش ميتالوس تتجاوز طليعته يحتل الجبل الذي ينزل منه ميتيلوس بواسطة حوالي ألفين من المشاة، لمنعه من العودة اليه في حالة انهزامه. ثم، معطيا الإشارة، ينقض على العدو فجأة.

يهاجم النوميديون يمينا و شمالا فيدمرون مؤخرتنا و ينقضون علينا فينهكوننا ويبلبلون صفوفنا. أن جنودنا لأكثر حزما و الذين يقفون في مواجهة العدو مضطربين بفعل الفوضى التي تسود المعركة؛ لايجنون من ذلك سوى كونهم يجرحون على مسافات دون أن يتمكنوا من الاستجابة لضربات، ولامن اصابة الخصم لأن يوغرطة قد اوصى خيالته مسبقا، أن يقاتلوا، في كل مرة يهاجمون من طرف الرومان، مبكرا بالتراجع وليس مجتمعين؛ بالانتشار في اتجاهات متعاكسة وليس من جهة واحدة فقط. وكان النوميديون كذلك اذ لم يتمكنوا من اعاقةالرومان في ملاحقتهم، يستفيدون من تفوقهم العددي لارغامهم على الانتشار حتي يتمكنوا من مهاجمتهم من الخلف و من الجناح،

محطمي بهم، وكانوا اذا وجدوا أن التل يسمح لهم بالفرار أكثر من السهل، فإن خيولهم المتعودة على الاحراش كانت تشق طريقها فيها بدون عناء، في حين كانت خيولنا تصطدم، في كل [illegible] أجنبية عنها

ضد ميتيلوس (أمام زاما)

في الوقت الذي كان الناس يتقاتلون فيه حوالي زاما، انقض يوغرطه على رأس فرقة معتبرة، على المعسكر الروماني فجأة وذلك بالضغط على احدى الأبواب، مستغلا لامبالاة حراسها، الذين كانوا ينتظرون أي شيىء الاّ هجوما من العدو. ولم يفكر جنودها المذهولون من الرعب، الاّ في الخلاص الشخصي، كل بطريقته، بالفرار بالنسبة للبعض وبحمل السلاح بالنسبة للبعض الآخر. فكان هناك العديد من القتلى والجرحى.

لقد وجدوا أنفسهم أربعين في المجموع كي يتذكروا أنهم رومان. إنسحبوا، راصين صفوفهم، إلى مرتفع أين لم يكن في مقدور العدو وإزاحتهم رغم كل المجهودات وأخذوا كذلك، وبشكل أفضل، يعيدون الرماح التي كانت تمطرهم على أعقابها إلى العدو الذي كان أكثر عدد فمنحهم هدفا جيدا أكثر من فصيلتهم الهزيلة. كانوا حين يشاهدون النومديين يصعدون نجومهم من موقعهم مظهرين كل شجاعتهم ومقتلين النومديين ومشتتينهم وجاعلينهم يفرون.

في ذروة النشاط سمع ميتيلوس ضوضاء وراءهم. فرجع على أعقابه واكتشف رجالا هاربين نحوه، علامة على أنهم رومان طبعا. فأرسل كل خيالته في إتجاه المعسكر، بدون تأخير، وعلى التو أرسل ماريوس مع فرق الخيالة المساعدين، وتضرع إليه والعيون مغرورقة بالدموع باسم صداقتهم وباسم الجمهورية، ألاّ يشكوا من الألم مادام جيشنا المضفر يتحمل الاهانة والعدو ثم يعاقب بعد.

نفذ ماريوس الأمر الموجه إليه بسرعة حينذاك رأى يوغرطة قسما من رجاله يندفع من أعلى الحباكات والبعض ينطلق في الممرات حيث تزاحموا بالتبادل، ومن أجل التخلص من الورطة انسحب الى موقع منيع، بعد أن تحمل خسائر ثقيلة. أما ميتيلوس فقد قاد جيشه مع مجيء الليل الى

المعسكر، تاركا المسألة غير منتهية.

في اليوم التالي، وقبل مغادرته المعسكر لمواصلة الهجوم، نظم خيالته أمام الخندق، وفي الجهة التي يمكن توقع هجوم من يوغرطة. وزّع القضاة العسكريين على مواقع الحراسة واطراف المعسكر. وبعد ذلك اتجه بنفسه نحو المدينة وأعلن الهجوم أهبة.

في حين خرج يوغرطة من مأواه ثانية وألقى بنفسه على جنودنا. فكانت لحظة رعب وارتباك في الاماكن الأمامية. لكنه هرع لمساعدتهم، وكان النوميديون غير قادرين على المقاومة لمدة طويلة لم ينجح مشاتهم المختلطون بالفرسان في الفتك بصفوفنا. واستمر الفرسان الأعداء المدعومون بهم، بدل أن يتراجعوا كما جرت العادة، في التوغل نحو الأمام، بعد أن هاجموا، ناقلين الفوضى الى صفوفنا وعارضين على محاربين ناشطين خصوما شبه مهزومين.

Salluste, *Guerre de Jugurtha dans Histoiriens Romains*, tome II, Editions Gallimard, 1968 , XLVIII, LIX, pp. 712 – 714 et 720 – 722.

رسالة يــوغرطــة

لم يستطع يوغرطة، رغم عبقريته واخلاصه، أن يضمن لشعبه تواجدا حرا وسعيدا. لكن ملحمته لم تكن عبثا. ساقطا في قلب النضال، يبقى بالنسبة لناالرسول.صاحب الأثر البليغ في أمل القلب البشري الكبير هذا الذي يسمى الحرية.

كانت رسالته: جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن، مبدأ الشعب وشعار الوطنيين.

هل تخلى عن الحرية اولئك الرجال في الجنوب أو الجبال، الذين لم يعرفوا الاستبداد الروماني أبدا ؟ ورفقاء مازيبا وتاكفاريناس الخشنون، الذين افشلوا طويلا قوى الإحتلال، خلال العصر المسيحي ؟ والدوناتيون ؟ والدوارون ؟ فوراء الإنشقاقات الدينية كانت هناك إنتفاضة وطنية.

لم تمنح أبدا ذكرى الرئيس العظيم من ذاكرة أبناء جلدته. ففي حديقة سطيف العامة، يمكن مشاهدة اسم يوغرطة أيضا، الذي اطلق على طفل، منقوشا على مسلة من العصر الروماني. مثال مؤثر على العطف الشعبي.

لو يعود يوغرطة إلى العالم، فإنه سيبتهج لمشاهدة شباب شعبه المدهش ويرى، كما في القديم، الفلاح يرسم الأخاديد ويبذر الحياة، مبعدا بإحتقار آثار خمول الكبرياء الروماني. وفي روح أهلنا، لم يبق من أوجاع هذا الماضي إلاّكلمة جوفاء، بقيت للماهية : « رومان ».

Mohamed Cherif sahli. *le message de yougourtha*, Alger, Editions En. Nahda, 1947 , p; 100

الفصل السابع

أواخر الملوك البربر

ليست لدينا معلومات كثيرة عن الفترة التي تلت حروب يوغرطة. فقوائم الملوك وحدود ترابهم ليست معروفة بدقة. يبرز إسمان هما إسما يوبا الأول ويوبا الثاني. الأول قاوم الضغوط الرومانية وحاول أن يستغل الحرب الأهلية التي تواجه خلالها البومبيون والقيصريون على إستقلاله. الثاني، الذي تربى في روما، كان نموذج الملك التابع نفسه.

خلافة يوغرطة

تصرف بوكوس، الذي إستلم الغرب الجزائري (105) وربما الوسط كذلك، كتابع وفيّ لروما، وقدم لها مساعداته العسكرية في العديد من المرات.

في نوميديا كان هيمبصال الثاني خليفة لغودة الذي توفى عام 88 . لقد كان هذان الأميران هما أيضا تابعين وفيين لروما. في 62 كانت توجد كذلك دولة وقائية، هي مملكة الأمير ماستانيزوزوس mastanesosus بين موريطانيا ونوميديا هيمبصال. يعود تقسيم نوميديا هذا إلى مملكتين، شرقية وغربية، إلى تاريخ وفاة غودة أو الى تاريخ وفاة يوغرطة. خلع الاميران لصالح شخص اسمه هيارباس الذي سيصبح عاهلا لكل نوميديا مع بولا وريجيا عاصمة. لم تكن روما لتترك أعداءها يمتلكون جهات واسعة خاصة بالقمح. كلف بومبي pompée بالسعي للقضاء على هيارباس (حملة 81) والماريان marianistes الذين كانوا تحت قيادة دوميتيوس domistiuse. فهزم دوميتيوس وقتله، كما استولى على بولا وقبض كذلك على هيارباس (80)

ونصب هيمبصال ثانية. وقد حكم هذا الاخير عشرين سنة على الأقل، ويتردد الكلام حول إبنه يوبا الأول كملك في 50.

كانت تمتد دولتا هيمباصال ويوبا، بشكل واسع، ناحية الجنوب و ناحية الغرب من المقاطعة الرومانية وانطلاقا من تيني thaenae، وتحدان ناحية هيدروميت (سوسة) وتمتدان الى الغرب حتى توبوسوبتو بالقرب من بجاية. كانت سيرتا تتبع مملكة يوبا، فزاما ستصبح أحدى عواصم الملك هذا. ولم تكن نوميديا متأخمة لموريطانيا؛حيث كانت هناك مملكة أخرى هي المملكة التي ستعود لماستانيزوزس، وتتكلم النقود عن شخص اسمه ماسينيسا. فهذه المملكة اذن كانت تمتد بين موريطانيا وناحية سيرتا.

كان هيمبصال يتذوق الآداب، اذ سيكتب كتابا باللغة البونيقية عن أصل الشعوب الافريقية. واستلم من روما لقب الملك ولم يكن له أي خلاف معها.

يوبـــا الأول

اراد يوبا أن يكون ملكا حقيقيا، عاهلا شبيها بالملوك الهلنستيين. كان جيشه قويا، وكان حرسه الخاص يضم فرسان اسبانا و غاليين. لقد فرض يوبا نفسه على رؤساء القبائل، فنظم العديد من الحملات ضد الذين كانوا يرفضون سلطته، وتخاصم مع جيرانه الموروو وقف الى جانب البومبيين ضد قيصر César. فهذا الاخير كان قد منح فعلا حمايته لأحد النوميديين، وكان كاريون، وهو أحد عملائه، قد اقترح على مجلس الشيوخ حتى مصادرة مملكة نوميديا.

كانت افريقيا احدى الساحات الرئيسية لمعركة القيصريين و البوميين. وكان بامكان مجلس الشيوخ أن يجعل من الملك النوميدي « حليفا وصديقا » لروما، لم يفعل اي شيء في هذا الشأن رافضا اقحام البربر في المسائل الداخلية لروما. في النهاية، أبرم فاريوس، الذي كان قد كلف بمواجهة مسيرة قيصر، حلفا مع يوبا.





عملة هيمبصال (103 ـ 102 ق.
م).
رأس أمرد متوج بسنابل وغصن.
الظهر : الحصان الراكض في الجهة
اليمنى.
والحرف H في الأسفل.
والكل في تاج من الغار.





عملة ماصينيسا ...TNS سنبله حبوب في الأسفل، وعنقود عنب في الأعلى والكل في تاج من الأغصان

عملة هيارباس (108 ـ 81 ق.
م) صورة بشعر متهدل،







عملة يوبا الثاني. الظهر. تمثال إفريقيا النصفي. ثنيات وتصفيف الـ الفيل. خطان مستعرضان (رمح).

عملة يوبا الثاني نجمة سداسية في هلال.

عملة يوبا الثاني. ريكس يوبا. صورة الملك مكللة.



عملة بطولمي. ريكس بطوليمي تمثال نصفي بالغار وثنيات الملك الأمرد.
الظهر : بطولمي زينة النصر (نمت الموافقة لبطوليمي في العالم الرابع من حكمه، 24 بعد الميلاد) أريكة عليها وضع تاج مستند الى صلوجان.
تاريخ : XVIII (الى أعلى من جهتي التاج) على الحاشية.



فعلى هذا الأخير أن يزود الجنرال الروماني بفرق المساعدين.

كان قيصر قد كلف كوريون Curion بالمسائل الإفريقية، فنزل هذا الأخير برأس بون في 49 ، وحاصر أوتيكا. نقل يوبابنفسه النجدة لفاريوس وأتيكا، مفضلا الإنتقام من كوريون الذي كان قد طالب روما بالحاق نوميديا. وأجبرت فرقة كاريون على التخلي عن حصار أتيكا؛ وتوفي القائد القيصري في المعركة ونقلت رأسه الى يوبا، وغرق أغلب جنوده في البحر وهم يحاولون الالتحاق بصقلية وسلم الذين لم يتمكنوا من الإبحار أنفسهم وأهلكوا. ودخل الملك النوميدي أتيكا سيدا، ثم عاد مع كل فرقة الى دوله، ومنحه مجلس الشيوخ البومبي لقب ملك وحليف الشعب الروماني (49).

جعل الإنتصار يوبا يتعاظم أكثر فأكثر في أعين الرومان. فسيبيون الذي أقر قائدا أعلى لجيوش إفريقيا كان يتصرف بتواضع أمام الملك البربري، وكان عليه أن يعده كذلك بالمقاطعة الإفريقية مقابل عونه. حاول كاتون الذي كان قد جاء إفريقيا لمقاتلة قيصر أن يحول دون إستقلال يوبا. لكن يوبا تمسك بإظهار إستمراره مستقلا أمام البومبيين. فلم يقبل مثلا أن يخوض الحرب ضد فرق قيصر الأكثريك، رافضا الخضوع للقائد الروماني. واستطاع أن يضع تحت تصرفه أربعة فيالق (légions) منظمة على الطراز الروماني، وخيالة كانت تحرسه وأنصارا جاؤوا من القبائل. يقال أنه كان يملك حوالي 120 فيلا، ومن المؤكد أنه كان يملك 64 منها في معركة تابسوس Thapsus . وتمسك بإقامة معسكره منفصلا وتجرأ حتى على المطالبة بالمعطف الارجواني لنفسه، علامة القيادة العليا.

أعلن مجلس الشيوخ القيصري يوبا عدوا عاما، وفكر في هجوم على نوميديا عن طريق إيبانيا. وفي النهاية جاء قيصر بنفسه إلى إفريقيا مع عشرة فيالق. كان بإمكانه أن يعول على الملكين المووريطانيين بوغوتBogut وبوكوس، وبصفة خاصة على هذا الأخير الذي كان سيد جزء هام من الجزائر والذي كان يستطيع بالهجوم على يوبا أن يخلق إنشغالا سيكون مهما جدا بالنسبة لقيصر. كانت الحرب في البداية مترددة. إذ كان قيصر يملك القليل من الجنود، وكانت فرقة محاصرةمن طرف البومبيين. إنظم وسيتيوسSittius أحد المغامرين، إلى جانب قيصر وغزيا حدود المملكة من المغرب، فضاعت

وللإلتحاق بأوزيتا Uzitta مع ثلاثة فيالق، و 800 فارسا منتظمين، والعديد من الأنصار وقبائل و 30 فيلا.

تأجلت نهاية الحرب، انه لفي أفريل 46 فقط نجح قيصر في إختراق أعدائه، وفي ارغام جيش سيبيون على الفرار، وأن يستولي على معسكر يوبا في تابسوس. في نفس وقت قيصر، خرب سيتيوس جيش سابورا النوميدي، واحتل جنرال يوبا وأسطوله هيبون. وتمكن يوبا من النزوح إلى منطقة جبلية والإختفاء هناك مع بعض رفاقه. إنتهى يوبا مرفوقا بالروماني بتريوس إلى عاصمته زاما. لكن السكان لم يقبلوا أبدا بفتح الأبواب لأن يوبا كان، قبل سفره، قد وعد بأنه في حالة الهزيمة يحرق، في الساحة العامة، كل ثرواته وكل سكان المدينة وكذلك نفسه وأهله.

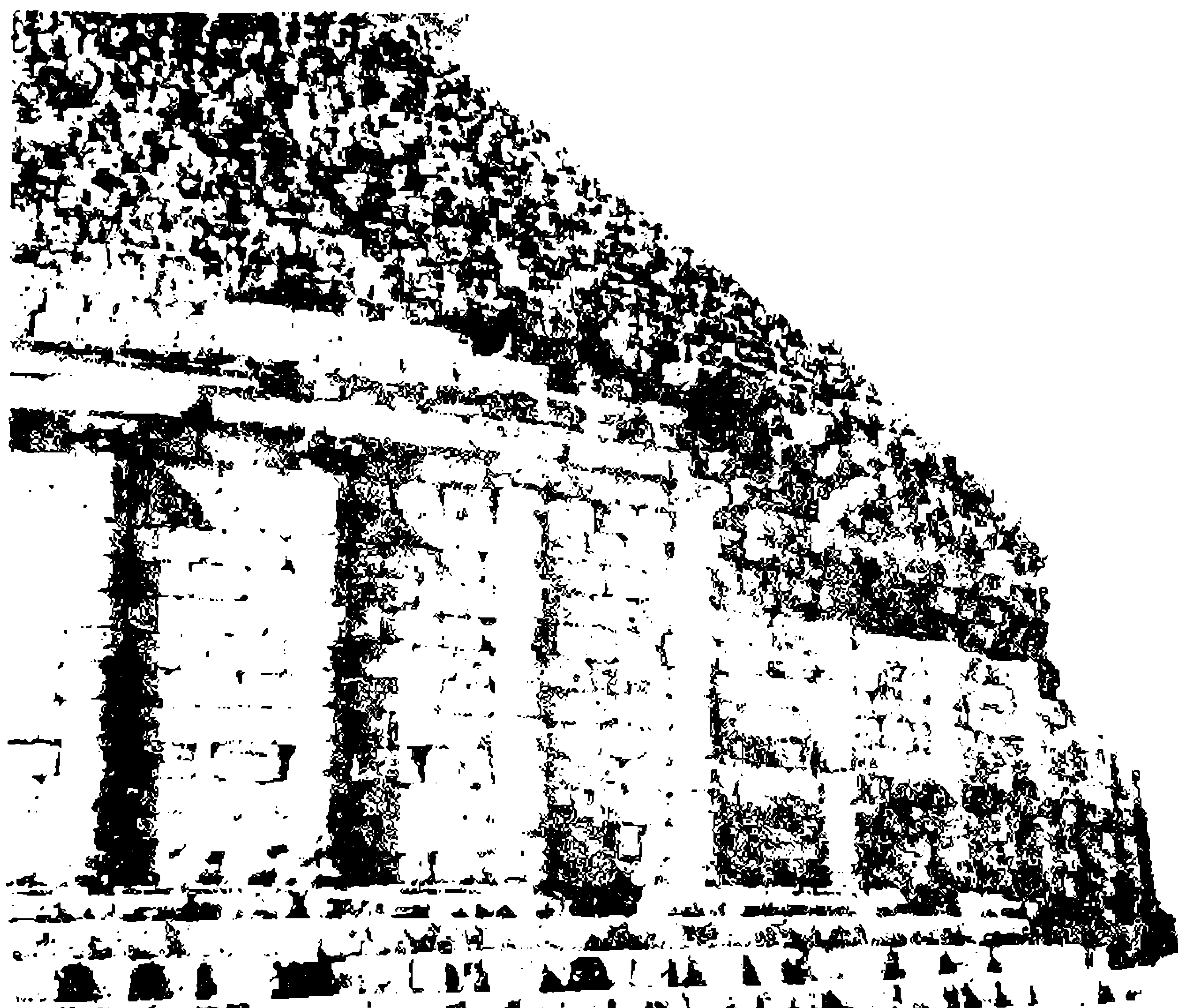
لما لم تقبل أية مدينة أخرى بإستقباله، قرر يوبا ضرورة موته. فانتحر (إنتحر بواسطة مبارزة مع بتريوس).

نوميديا بعد يوبا الأول

استلم بوكوس جزءا من الدول التي كانت تمتد مابين سيرتا وموريطانيا، وعين حده الجديد بمصب الامبساغا (الوادي الكبير). الباقي منحه قيصر لسيتيوس : الجزء الغربي من مملكة يوبا مع سيرتا. فاستقر رفقاء سيتيوس، لسيتيوس، في المستعمرات السيرتائية : سيرتا (قسنطينة) وروسكاد (سكيكدة) وشولو (القل) وميلوف (ميلة). واحتفضت كونفيديرالية الأربع مستعمرات هذه بتنظيم اداري خاص حتى القرن الرابع.

قرر قيصر انهاء مملكة نوميديا، فتجربة يوغرطة و يوبا قد أوضحت أن ملكا نوميديا قويا ومستقلا متداخلا في الشؤون الرومانية خطر بالنسبة لروما. لهذا أنشأ افريقيا الجديدة Africa nova(المقاطعة القديمة سميت افريقيا القديمة Africa vetus حيث كان سلوست أول حاكم لها. اذا كان قيصر قد اقام بروليتاريين وجنودا مسرحين في افريقيا القديمة فانه على ما يبدو لم ينشىء الكثير من المستعمرات في نوميديا، فقد كانت تعرف أربع مستعمرات يزنية Iuliae (من لقب قيصر = يولوس سيزار)؛ كان استيطان نوميديا ضعيفا جدا

عند وفاة قيصر، عرفت افريقيا فترة مضطربة، فقد تعرضت الحكومة لتنافس القيصريين والجمهوريين. فأعاد أرابيون Arabion من ماسينيسا فيح مملكة أبيه على حساب سيتيوس، وقتل هذا الأخير خدعة. لكن رغم ذلك [illegible] ر المناطق المحيطة بها.



الضريـــح الملكـي لموريطانيـــا



كليوباتـــرا سيلينـــي



في 36 جمعت الإفريقيتان تحت سلطه ليبيد Lepide.

في 33 ، وعند وفاة بوكوس، حكم أوكتاف موريطانيا بواسطة عاملين واستغل الفرصة لانشاء مستعمرات : في ايجيلجيلي (جيجل)، وفي صالداى (بجاية) التي استقبلت الجنود المسرحين من الفيلق السابع ، وفي روزازوس (عزفون) ، وفي روسغونيا (البرج البحرى)، وفي كونوغو (بالقرب من قورايا) حيث سجلت مستعمرة في كتيبة خيالة حاكمية، وفي كارتينيا (تنس) حيث استقبل الجنود المسرحون من الفيلق الثاني. أما في داخل التراب فكانت هناك ثلاث مستعمرات : في توبوسوبتو (تيكلات الى الجنوب الغربي من بجاية، في وادى الصومام بمكان كان يمكن منه مراقبة القبائل الكبرى والصغرى) وفي أكاكاليدا (حمام ريغة) حيث كانت المياه المعدنية مشهورة في القديم وفي زوكشابار (مليانة).

خلال سنوات قليلة، كان أكتاف قد أنشأ مستعمرات عديدة لإقامة جنوده المسرحين. واختار الأماكن بشكل جيد : إما في وسط ناحية خصبة حيث كان يمكن الحصول على الأراضي بسهولة، واما بالقرب من الحواضر الفينيقية القديمة واما في موقع استراتيجي بهدف مراقبة البربر.

رغم ذلك فإن أوكتاف، بدل أن يجعل من موريطانيا مقاطعة، جعل منها مملكة في صالح يوبا الثاني بن يوبا الأول.

يوبا الثاني لموريطانيا (25 ق. م - 23 م)

حكم يوبا الثاني موريطانيا نصف قرن تقريبا، فكان نموذج الملك التابع نفسه كما كان متعطش الحب للحضارة اليونانية.

سقط الفتى الأمير، الذي كان يبلغ الرابعة من عمره حينذاك، بين يدى الديكتاتور الروماني، في 46 بعد معركة تابسوس. فنقل الى روما، وظهر استقبال نصر قيصر، وبقي في ايطاليا. تربى على يد أخت أوكتاف، وأراد هذا الأخير أن يهيئه ليلعب دور عميل روما فاستلم لقب واسم حامية غايوس يوليوس نفسه. الذي لم يحمله بعد أن استلم لقب الملك ريكيس يوبا Rex Iuba. إستلم هذا اللقب في 25 مع مملكة في إفريقيا، متكونة من ممالك بوغود وبوكوس ويوبا الأول. كانت المملكة تمتد إذن على المغرب الأقصى

وملامسة لمصب مولوشة في الشمال الشرقي؛ بين ذاك وأمساغا إستام كذلك بلاد الجيتول. لماذا عدل الإمبراطور عن الإلحاق ؟ لم يشأ أوغسطس، الذي كانت له واجبات عسكرية ثقيلة، أن يحتفظ إلاّ بالمقاطعة المنتجة للقمح في إفريقيا. تاركا للملك العميل دورا هاما في الدفاع عن هذه المقاطعة. إذ كان يرى أن ملكا أهليا هو الأفضل لموظفين رومان يجهلون الناس والبلاد. وكان على هذا العاهل أن يحمي كذلك المستعمرات التي كانت قد أنشئت.

لم يمنح أوغسطس يوبا الثاني مملكة فحسب بل منحه زوجة كذلك، كليوباترا سيليني بنت المشهورة كليوباترا ومارك أنطوان، بمعنى منحه عاهلة حقيقية لأنها وليت السلطة الملكية. ويبدو أنها لم ترث روعة جمال أمها؛ حيث يقدمها رأس من الرخام موجود في شرشال خالية من الروعة. لكي يظهر إعترافه بالجميل لأوغسطس، أطلق يوبا إسم قيصرية Caessarea على عاصمته وأنشأ بها عبادة أمبراطورية، عبادة كابريكون؛ اشارة لماكان مولد أوغسطس. وقد وجدت في شرشال شواهد أخرى كذلك على هذا الإعتراف بالجميل : تمثال بدون رأس يمثل شخصية مدرعة تقدم بيدها اليمنى اشارة الإمبراطور مخاطبا الجمهرة، وتمثال نصفي لمارس أولتور Mars Ultor ؛ وهو الأله الذي انتقم لموت قيصر أبي أوغسطس، وقيصر مؤلها؛ الخ.

أراد يوبا الثاني أن يبدو ملكا عظيما مذكرا، رغم أن تبعيته لم تسد لدى أسلافه؛ بأنه ابن يوبا الأول، العدو اللدود للإمبراطور، وبأنه ينحدر من مسيبسا وماسينيسا العظيم؛ وبأنه افريقي. ومع ذلك يخبرنا بلين Pline القديم بأن « يوبا كان مشهورا بمؤلفاته أكثر منه بحكمه ».

لقد لقي يوبا مصاعب مع البدو الذين كانوا يرفضون الخضوع للرومان والذين كانوا يتمردون على الملك التابع (6). عاون يوبا الثاني الرومان في تدخلهم ضدالموزولام (جنوب قسنطينة وتونس الجنوبية). فيما بعد ؛ من 17 إلى 24، شارك بعض رعايا يوبا الثاني في النضال ضد النوميدي تاكفاريناس.

عمــل يــوبا الثــانــي

عرفت المملكة نوعا من الإزدهار في عهد يوبا الثاني. كان اختيار ايول عاصمة في محله : موقع له مزايا كثيرة، بمناخ لطيف وصحي، هضبة خصبة على حافة الساحل، ومنحدرات خاصة بزراعة الزيتون و الكرمة، وموادالبناء قريبة، مع جزيرة صغيرة تستخدم لوقاية الميناء. لقد اهتم الملك بتنمية التجارة البحرية وكانت له علاقات مع اسبانيا وايطاليا وبلاد الغال؛ وجدت في شرشال سبائك من الرصاص تعود لأصل اسباني، كما تبرهن أجزاء فخاريات على الصناعات الإيطالية والغالية. وتبدو السنابل المنقوشة على نقود يوبا الدليل على نمو الفلاحة.

كان له بلاط هام والكثير من الحراس الشخصيين، وعدد لايقل عن ذلك من الخدم المنزلي. كما كان في خدمته العديد من الممثلين والممثلات. أطباء وأمناء وفنانون كانوا يعيشون في البلاط. وكان هذا البلاط يتميز كذلك بتأثيرات بونيقية أكثر منها رومانية ويونانية. كان يوبا يجيد اليونانية واللاتينية والبونيقية كما كان في المملكة بعض التأثيرات المصرية، إذ لم تستسلم كلوباترا لنسيان بلدها الأصلي، لكن هذه التأثيرات لم تكن تمارس إلاّفي البلاط. أما النصب الموجودة في شرشال فهي عمل من أعمال الهندسة الكلاسيكية؛ تسمح الآثار بتصوير قصر ومعبد ومصرح. وفي كل مكان تم العثور على قدر من التماثيل القديمة. لاتفسر وفرتها إلاّبذوق وبذخ العاهل. لقد كانت نسخا لأعمال مشهورة. حيث عرض علينا متحف شرشال بعض النماذج منها : هيركل نسخة لبرونز ميرون، أبولون شرشال حيث كانت إرادة إكتشاف عمل من أعمال شباب فيدياس، أحد أثينا حيث أصله يعود إلى أحد تلامذة فيدياس، بوزيدون واقفا، إسكولاب جالسا، تمثالا نصفيا لديونيزوس، جذع تمثال لأفروديت، إلخ.

الكثير هم المؤلفون الذين يمجدون علم وثقافة يوبا الثاني. إذ كان علامة ولاشيئ كان ينجو من فضوله، وقد كان شغفه كبيرا بالفلسفة. [illegible] بنفسه مكتبة غنية جدا بالمؤلفات اليونانية وبالمخطوطات اللاتينية والبونيقيه ولاشك أنه جمع مكتبة جد [illegible] مبصال. نظم بعثات مكلفة بالبحث عن [illegible]

النيل، معتقدا في أن الطواف البحري حول إفريقيا ممكن ولكنه لم يحاول إثبات ذلك. حاول يوبا أن يعرّف بعمله فألف الكثير من الكتب. تعرف عناوين تيبعة من هذه الأعمال، كانت مكتوبة باليونانية حيث نجد إستشهادات منها لدى بلين وبلوطارك وأتيني. الأكثر شهرة منها هي المقالة المعنونة ليبكا أين يقدم الملك، حول بلاد مولده، الكثير من المعلومات ذات الطابع الجغرافي والتاريخي والنباتي، إلخ ... أما المقالات فهي : التاريخ الروماني والاركيولوجية، الرومانية، التشابهات، بابلونيكا، أرابيكا، حول الرسم، تاريخ المسرح، حول فساد المحادثة. والكثير من المؤلفين ذكروا يوبا الثاني في بيبليوغرافيتهم، فبلين ذكره ثماني وثلاثين مرة في نص مؤلفه.

بطـوليمــــي (23 أو 24 - 40)

كان بطوليمي Ptolemée آخر ملك موريطاني وقد حمل، الإبن الوحيد ليوبا الثاني وكليوباترا سيليني، منذ الصغر علامات الملك ولقب الملك. خلف أباه في نهاية 23 . وحكم 17 سنة، ولم يرث صفات الأب، إذ كان لامباليا، كسولا ويعيش في رفاهية تفاخرية. فتخلى عن السلطة لمعتقيه، الشيئ الذي أغضب رعاياه ودفعهم إلى تبني قضية تاكفاريناس المشتركة. شارك بطولمي مع الرومان في أواخر الحملة التي وجهت ضد تاكفاريناس.

ليست هناك معرفة كبيرة بحكم بطوليمي؛ ماعدا أنه بقي وفيا للرومان. ومن المعروف أنه أثار غيره غايوس قيصر، الإمبراطور المعروف بإسم غاليغولا (كان إبن خاله، زيادة على ذلك، لأنه هو أيضا ينحدر من مارك أنطوان) وأن هذا الأخير قد قتله. إستولى غاليغولا على ثروته وامتلك عبيده. فنهض المور تحت قيادة أحد معتقي بطوليمي، وهوايديمون، ودامت الإنتفاضة 3 سنوات تقريبا.

ألحق غاليغولا موريطانيا، وقسمها كلود إلى مقاطعتين إمبراطوريتين : موريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية (42).

لقد إحتلت روما إفريقيا البربرية كلها.

الضريح الملكي لموريطانيا

متى ومن طرف من شيد القبر؟

لاشك أن المحاولات الأولى للولوج إلى داخل القبر قد كانت إذن في عصر قديم نوعا ما؛ لابد أن تكون سابقة للفتح العربي على كل حال. بعد ذلك حصل تراكم التربة وطمرت منافذ المدخل الصغيرة الواقعة أسفل سطح الأرض بسرعة. يطرح هذا النصب المفحوص الآن مسألة تاريخية هامة : متى ومن طرف من شيد ؟ فهذا الضريح غير مؤرخ. إذ ليست هناك أية إشارة كرونولوجية يمكن إستخلاصها من الرسوم المنقوشة على الأحجار المشذبة والتي تشير فقط إلى معامل ناحتي الحجر حيث كان لكل منهم علامة خاصة. بعض رسوم الناحتين هذه لها قرابة بالحروف اللاتينية أوالليبية أو اليونانية لكنها مع هذا ليست حروفا هجائية .

النص القديم والوحيد الذي نمتلكه، والذي يتكلم عن هذا النصب هو نص لمؤلف لاتيني، وهو بومبونيوس ميلا Pomponius Méla. حرر كتابه المعنون (De Situ Orbis) في حوالي سنوات 40 بعد المسيح، أي في الوقت الذي ألحقت فيه مملكة موريطانيا وجعلت مقاطعة رومانية. ففي الفصل 6، رقم الصفحة 38، من الكتاب الأول لبومبونيوس ميلا يمكن قراءة الأسطر التالية :

« يول (شرشال)، على ضفاف البحر، مدينة قديمة مشهورة الآن لأنها كانت الحاضرة الملكية ليوبا ولأنها تسمى قيصرية Caesarea. من هنا قصبات كارتينيا (تنس) وأرسيناتيا، وقصر كيزا، وخليج لاتوروس ونهر سارداابال، ومن هناك الضريح المشترك للعائلة الملكية ... ثم ايكوزيوم ».

مع ذلك نسجل ان هذاالمؤلف، في وصفه لساحل افريقيا الشمالية، يعيد، مع قليل من المستجدات، ما جاء في كتاب أقدم عزاه ستيفان جزال الى فارون الذي توفي في 27 قبل الميلاد.

ان الفرضية التاريخية المقدمة بكثرة هي التي تعزو بناء القبر الى يوبا الثاني والى زوجته كليوباترا سيليني، ابنة المشهورة كليوباترا ملكة مصر والمثالث الروماني أنطوان.

يقدم الينا يوبا الثاني كعاهل ها وللفن والثقافة. عمت عاصمته، شرشال، بأعمال الفن المنتقاة في اليونان والمستوردة من هناك.

حكم موريطانيا خلال فترة طويلة، بارادة الأمبراطور أغسطس، من 25 قبل الميلاد الى 23 بعد المسيح.

اذا كانت العلامة التي على « النصب المشترك للعائلة الملكية » تعود الى عصر فارون، فان الفرضية التي تعزو القبر الى يوبا الثاني تصبح غير قادرة للاحتمال. وفي ما اذا كان العكس، يكون تشييد الضريح قد تم بين بداية ونهاية يوبا الثاني. منذ بداية القرن و المؤرخون مختلفون في آرئهم. فالبعض يفضل ان يعزوه الىيوبا الثاني، والبعض الآخر يعطيه تاريخا أقدم من هذا الملك. من هؤلاء وحد مشهور هوم . ب . رمايلي الذي يبتعد عن الاتجاهين نهائيا؛ في رأيه، القبر الملكي لموريطانيا ضريح متأخر بل ومن الممكن أن يعود الى القرن الخامس و القرن السادس بعد الميلاد ويرى فيه تذكيرا بضريح هادريان المستدير في روما بصفة خاصة.

ما يمكن ادراكه هو ان المسألة التاريخية المطروحة من طرف هذا القبر معقدة. Mounir Bouchenaki, *Le Mausolée royal de Maurétanie*, Alger, 1970 pp. 21 – 24.

يوبا يتكلم بلهجة السيد

وره أوفد يوبا حاجبا ليقول لأكينيوس، أمام سازيرب « بامر من الملك، أوقف هذه المحادثة ». أرعب هذا الأمر أكينيوس الذي انسحب منها، مطيعا الملك دون اعتراض. مواطن روماني بلغ هذا الحد ؟ رجل أسند اليه الشعب الروماني منصب الحاكم ! يطيع يوبا، في حين لازال له وطن وكل املاكه، يطيع باربار قبل المثول لأمر صادر عن سيبيون، أو حتى أختيار الفرار من مذبحة أنصاره والعودة الى بيته معفوا عنه ! وأكثر من ذلك، انتحى يوبا الى الكبرياء أيضا، لا بالنسبة ل م. أكينيوس، السيناتور البسيط ذي الترقية الحديثة، بل بالنسبة ليسيبيون الذي تجعله طبقته وألقابه الرسمية لاممثلا له. لما كان سيبيون قد ارتدى المعطف الأرجواني قبل وصول الملك،

يقال أن يوبا خاصمه في هذا الشأن، مدعياأن على سيبيون الاّ يرتدي نفس ثيابه. وحدث أن سيبيون تقهقر الى اللباس الأبيض، وامتثل لأوامر يوبا، شبح العجرفة والحماقةهذا.

وفـاة يوبـا وبيتريـوس

والحالة هذه، فان الملك الذي أغلقت كل الحواضر أبوابها في وجهه، قد يئس من النجاة؛ في نهاية المطاف، وبيتريوس أن يتقاتلا بالسيف كي يمنحا نفسيهما وفاة شهمة. وانتهى بسهولة سيف بيتريوس القوى في يوبا الضعيف. بعد ذلك حاول بيتريوس أن يغمد سيفه في الصدر؛ لم يفلح، وحصل أن قتله أحد عبيده، وهذه المرة أشبع رغبته.

César, La guerre d'Afrique, Paris, Collection Gillaume Budé, 1949 pp. 53 -- 54 et 87.

الفصل الثامن

المقاومة البربرية والإحتلال الروماني

لقد وضعت روما حدا لحلم الأغاليد العظام : وحدة وإستقلال « البلاد ». فقد أدين التوحيد الملكي من طرف روما التي لم تعد تقبل أبدا بملوك حلفاء وتابعين. نظريا ستبقى روما، سيدة إفريقيا البربرية، محافظة على ثباتها أربعة قرون تقريبا، من 42 إلى 429. لكن يجب ألّا تخدعنا هذه القرون الأربعة، إذ الإحتلال لم يكن تاما ولا دائما. ان السلم الرومانيPax » « romanaلم يكن سوى تورية تخفي حقيقة إفريقية : كانت إنتفاضة البربر ضد الإحتلال الأجنبي شبه دائمة. حيث تشاهد الليمس Limes وهي في حالة تنقل دائم : لم يدرك الرومان إستقرار لسلطتهم إلّا بين وسط القرن الأول ونهاية القرن الثاني بعد الميلاد، أي مدة 150 سنــة.

مقاومـــة الإحتــــلال

إنتفـاضة الجيتـول والمـوزولام

كان الجيتول يقيمون في السهول العليا والمراكز الصحراوية لجنوب الجزائر وكان الموزولام مستقرين في النواحي المجاورة لقالمة وتبسة وفي قدم جبل أوراس. لم يقبل الجيتول بالخضوع ليوبا الثاني الملك التابع ولا لأسياده الرومان. لقد نهضوا وقتلوا عددا كبيرا من الرومان. جرّالجيتول معهم الموزولام. إتسعت الإنتفاضة ولم تكن تهدد يوبا الثاني لوحده بل كانت تهدد الرومان كذلك. وكانت روما مضطرة لإرسال أحسن جنرالاتها، بقدر ماإنضم، إلى الجيتول والموزولام المنتفضين، غارامنت فزان وناحية السيرت. كانت الحرب

صعبة بالنسبة للرومان الذين لم يكن في إمكانهم ملاقاة فرق المتنفضين المتعددة المنتشرة حيث خلقت الغارات حالة حرب دائمة. لقد كابد الجنرالات الرومان في جهات عديدة، ولم ينتصروا في هذه الإنتفاضة إلا مقابل مجهودات ضخمة. ويوضح لقب إمبراطور وكنية جيتوليكوس Gaetulicus اللذان أطلقا على الجنرال الروماني كوسوس كورنيليوس لونتولس كم كانت روما مهددة من طرف هذه الإنتفاضة التي دامت ثلاثين سنة.

تمـــرد تاكفـاريـنـاس (17 ـ 24)

في سنة 17، كما يخبرنا تاسيت Tacite ، أحبط بربري، تاكفاريناس، الجيوش الرومانية. كان تاكفاريناس قد استخدم كتابع في الفرق الرومانية وفرّ من الجندية. حيث بدأ يعيش حياة الخارجين عن القانون وجمع الأنصار ونظمهم عسكريا : مشاة وخيالة منتظمين. فأصبح الفار من الجندية ورئيس العصابة جنرالا. إستجاب الموزولام إلى ندائه، وكذلك المور ورئيسهم مازيبا. كانت هذه القبائل قد شاهدت الرومان يستولون على أراضي السهول الغنية أين كانت قد تعودت على الإقامة في فصل معين من كل عام بحثا عن غذائها وغذاء قطعانها. كانت ناحية الأوراس والحصنة وجزء من موريطانيا في حالة تمرد ضد الرومان. وكما يخبرنا تاسيت فإن تاكفاريناس : « قد احتفظ بنخبة الجنود، وكل من كان مسلحا على الطراز الروماني، لتدريبهم على الطاعة وتعويدهم على القيادة، وأن مازيبا قد نقل الحديد والنار في أملاك الامبراطورية بواسطة الفرق الخفيفة ». لقد أخذت الحركة حجما كبيرا وصلت إلى الجنوب؛ إنظم إليها الستين Cithiniens (جنوب المقاطعة الرومانية في السيرت الصغير). وتغلبت الإنتفاضة في البلاد التي كانت خاضعة لسيادة روما إسميا.

في عام 17 شنت حرب كبرى، حيث كان تاكفاريناس قد قبل القتال. خسر لكنه لم يعترف بالهزيمة. إنسحب إلى الصحراء، فأصلح قواته؛ من هناك شن العديد من الغارات وهاجم المزارع حاصلا على غنائم ضخمة. تمكن من الإستيلاء على قلعة رومانية صغيرة واقعة بالقرب من لامبيز وأجبر فرقة الخيالة الرومانية التي كانت تحميها على الفرار (20). وكان لهذا

الإنتصار أثوي معتبر. أباد القسم الاكبر من المذنبين والذين عفا عنهم القدر جمدوا بالأ صرات. لقد مارس العديد من الجنرالات، ل. أبرونيوس ودولابيلا، فنهم العسكر ضد تاكفاريناس. وبدلا من محاصرة المواقع المحصنة الرومانية، التجأ تاكفاريناس الى تاكتيك يوغرطة : حرب في مواقع عديدة، والهجوم في الوقت والمكان الذين يختارهما بنفسه. أنهك الرومان أنفسهم في المحلاحقات التي لاجدوى منها. غنم تاكفاريناس غنيمة كبيرة الشيء الذي حتم عليه الإقامة في معسكرات ثابتة. ففاجاه أبرونيوس وأوشك أن يقبض عليه. لم يكن تاكفاريناس قد انهزم بعد. ففي عام 21 ظهر من جديد بفرق جديدة. و «بعث بنواب الى تيبيرTibère ليشعره بالتخلي عن أرض له ولجيشه عن طيب خاطر والاّ فانه يهدّده بحرب لا نهاية لها». كان البربر يطالبون بالأراضي التي تعودوا المجيء اليها شتاء. اغتاظ تيبير لمطالبة تاكفاريناس. «يخبرنا تاسيت أنه خجل لنفسه و للشعب الروماني من أن فارا من الجندية، وقاطع طريق تجرأ على معاملته معاملة الند للند». استخدم الجنرال الروماني بليزوس تاكتيك نوميديا لمحاربة تاكفاريناس. فقسم جيشه الى ثلاث كتائب وكل كتيبة قسمت الى فرق عديدة وزود الحدود بمواقع متقدمة. ووعد البربر الذين كانوا يسلمون أنفسهم بالعفو. كما منح كذلك، كما يؤكد بعض المؤلفين، هبات من الأراضي لبعض جنود تاكفاريناس القدامى. كان المتنفضون يلقون صعوبات جمّة لكن الرومان لم يكونوا لينتصروا. فقد كان تاكفاريناس حيا دائما.

عند وفاة يوبا، فإن المور المستائين من ضعف بطوليمي، الذي ترك المعتقين يستولون على السلطة، قد نهضوا واتحدوا مع تاكفاريناس. فاستغلّ هذا الأخير سفر فيلق روماني الى روما ليزيد في عدد أنصاره. كل النوميديين قد نهضوا على صوت تاكفاريناس؛ الساخطون في المقاطعة والفرق المرسلة من طرف ملك الغارامنت، وانضم اليهم المور المتمردون.

أقام تاكفاريناس المقر أمام توبوسوبتو (بالقرب من بجاية) ؛ وأمام وصول فرق دولابيلا، انسحب وعسكر بالقرب من أوزيا (سور الغزلان) بوسط غابة كثيفة. بعد أن دعّم دولابيلا العديد من المواقع حول الناحية، زرع الرعب بذلك، نقطع رؤوس الرؤساء الأكثر نفوذا بين الموزولام، وأدرك أوزيا وفجأ


تاكفاريناس الذي جرح جرحا قاتلا. وبهذه الحالة فرّ تاكفاريناس من الأسر. هكذا انتهت المقاومة الأكثر حيوية التي تلقاها الرومان منذ يوغرطة. لقد وسّعت روما ترابها في التجاه الجنوب التونسي. لكن الجانب الغربي استمر الموريطانيون يتمتعون باستقلالهم فيه.

فهــرس هجائي للمحلات الرومانية الرئيسية

الاسم القديم	المقابل الحديث	الاسم القديم	المقابل الحديث	الاسم القديم	المقابل الحديث
آد بازيليكام	القصر	كويكول	جميلة	روسكاد	سكيكدة
آد فراتيس	الغزوات	ديانا	عين زانة	روسوكورو	دلس
آد بورتوم	العفنة	غادوم كاسترا	جديوة	روزازوس	عزفون
آد ماجوريس	نقرين	غاديوفالا	قصر صباحي	صالدي	بجاية
ألا ميلياريا	بينان	جيميلا	القصبة	سيفا	تاكمبريت
ألبولا	عين تموشنت	غوغو	غورايا	سيتيفيس	سطيف
ألتافا	أولاد ميمون	هيبو ريجيوس	عنابة	سوفازار	واد شرفة
أكوا كاليدا	حمام ريغة	ايكوزيوم	الجزائر	تافست	سوق أهراس
أكوا سيرنسيس	بوحنيفية	ايجيلجيلي	جيجل	تاسكورا	السبق
أكوا تيبليتانا	حمام مسخوطين	إيمنيوم	تيغزيرت	تاتيلتي	تازاس
أراس	ترمونا	كيوتا ساكورا	سيدي علي بنيوب	تابوديوس	تودة
أوزيا	سور الغزلان	لاماسبا	مروانة	تاموقادي	تيمقاد
بادياس	بادبس	لامبيز	لامبير	تابرامورآكاسترا	البرواقية
بالس بريزيد يوم	الهيبل	لاميديا	المدية	تيفاست	تبسة
بدا	جماعة صبيريجي	ماذوروس	مداوروش	تيبيليس	عمونة
قيصرية	شرشال	ماليانا	الخميس	توبونا	طبنة
كالاما	قالمة	مارسيبي	عين البيضاء	تيفافاكاسترا	وانتيس
كالسوهيركوينس	القنطرة	ماسكولا	خنشلة	تيبيسي	القانعة
كارتيناس	تنس	ميلوف	مينة	تيبازا	تيبازا
كارتيلي	داموس	ميلا	عنيزان	توبوسونو	تيكلات
كاستيلوم ديميدي	مسعد	نوميروس سيروروم	لالامغنية	توبوزا	القالة
كاستيلوم تانجيتانوم	الأصنام	أوبيد نوفة	عين دفلة	أوزيازا	صنيع
كاسترانوفا	المحمدية	بوماريا	تلمسان	فارامونس	مرسيت
ثوبا	ريانة	بورتوس ماغنوس	بطيوة	نجيزلا	قصر الكتب
تشولو	القل	كيزا	سيدي بنعطار	فري كونيا	مرعونة
سيرتا	قسنطينة	ريلوم	سن جوت	تيسيرا	بسكرة
كيهورس موكوروم	تافرمانت	ريجيا	عرابل	زراي	زعية
كوزوماتسا	سيدي حسني	ربونوما	بوع البحري	بوكنتاير	سباية

المحلات الرومانية الرئيسية

هيبوريجيوس
شولو
روسكاد
موسلوبيوم
ايجيلجيلي
صالدي
روزازوس
امنيور
روسوكورو
روسغونيا
اكوزيوم
قيصرية
تيبازا
كارتيلي
غنوفر
كارتيناس
أرسناريا
بورتوس
ماغنوس
سيغا
اد فراتد
نميورو
سيدورو
الناقا
بوماريا
البولا
ريجيا
تاسكورا
ساكونا
كابوتا
لوسو
الاميليارا
كاستيرا
نوفا
بروكوروم
كوهور
ميغنا
كولوميناتا
كاستيلوم تانجيتانوم
تيميسي
زوكابار
اكانالدة
كاستيرا
تغافا
قادوم
كاستيرا
ماليانا
اومدوم
زينارا
لوقا
لاميديا
أوزيا
قريميدي
توبوسوبتو
بيد
تاتيلتي
سيتيفيس
أرباز ليكام
طوبيكول
شويا
سيرتا
ميلوي
كالاما
كاتبليتان
تيبيليس
ثاقاست
وبورسيكو
مداوروش
غاديوفالا
مارسنمني
ديانا
زاراي
لاماسبا
توبونا
لامبيز
فيركونيا
فيرزلا
تاموقادي
فازامبوس
ماسكولا
تيفاست
كالسيوس
هيركوليس
فسيرا
تابوديوس
جيميلا
باديس
أدملجورس
كاستيلوم ديميدي



المحلات الرومانية الرئيسية
كاستيلوم ديميدي
توبونا
لامباسيا
ديانا
زاراي
مارسنمي
مداوروش
تيبيليس
كالاما
شويا
أدبازيكام
طوبيكول
سيتيفيس
تاتيلتي
أوزيا
لاميديا
أراس
قريميدي
كولوميناتا
ميناء
كاستيلوم تاجيتانيكور
زوكابار
أرسناريا
كارتيناس
قيصرية
تيبازا
روسوكورو
روزازوس
توبوسوبتو
صالدي
ايجيلجيلي
هيبوريجيوس
روسكاد
تونوزا
ماسكولا
تيفاست
لامبيز
كالسيوس هيركوليس
باديس
ادمايورس
بوزنوس
ماغنوس
سيغا
البولا
الوميريا
الناقا
لوسو
بروكوروم


انتفاضة ايديمون

لينتقم لبوطوليمي استنهض أحد معتقيه، وهو ايديمون البلاد؛ شملت الإنتفاضة كل المور وحتى مور الأطلس. وفي الوقت نفسه بدأت القبائل النوميدية تتحرك من جديد. وأغارت قبائل الصحراء على الشمال. تمكن س. سوتونيوس بولينوس من الحاق الهزيمة بالمور؛ حينئذ قسمت موريطانيا الى قسمين موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية (43). ومن جهته كان على غالبا Golbo بروقنصل افريقيا أن يخوض حربا ضد النوميديين مدة سنتين.

الجزائر تحت الإحتلال الروماني

كانت افريقا الرومانية، المقتصرة على الموانيء الطرابلسية ي الشرق وعلى الكتلة الجبلية في تونس و الناحية القسنطينية، تضيق حتى المركز التجاري الفينيقي روسادير (مليلة). وتظهر ثانية بعد الريف في مضيق جبل طارق وعلى الساحل الأطلسي للمغرب من طنجة الى سلا.

حتى نهاية القرن الثالث كان التراب الجزائري يشمل، الى الشرق، الناحية الممتدة من هيبوريجيوس (عنابة) الى تيفاست (تبسة) و الذي كان ملحقا بالبرونقصلية؛ خارج ذلك وحتى أمساغا أسندت نوميديا في أول الأمر لسلطة مبعوث ثم خصّت بنظام خاص وبعد ذلك ضمت من طرف سيبتيم سيفير الى عداد المقاطعات؛ أخيرا، والى الغرب، بين الوادى الكبير و الملوشة، هناك موريطانيا القيصرية التي كانت تمتد على 800 كلم.


الاحتلال الروماني
(حتى وسط القرن الثالث)
موريطانيا قيصرية
القيصرية
سيرتا
نوميديا
افريقيا البروقنصلية
فوسا رجيا
44 ق م عند وفاة قيصر
عند نهاية القرن الأول
في منتصف القرن الثالث
حدود الجزائر الحالية

تقدم جبهة الإحتلال

ان التوسع الروماني الذي كان محدودا نوعا ما في القرن الأول قد حقق تقدما أكيدا في القرن الثاني. كان الرومان قد إحتلوا في أول الأمر بعض الموانيء في نفس الوقت الذي إحتلوا فيه مناطق سهلة المسالك في شمال تونس وحتى سيرتا. بفضل الطرق الرومانية إمتدت جبهة الإحتلال بعد ذلك إلى السهول العلياعن طريق ميلوف (ميلة) وكويكول (جميلة) وموبث Mopth وسيتيفس (سطيف)، من هنا وصلت وادى الشلف انطلاقا من مستعمرات أكاكاليدا (حمام ريغة) وزركشبابار (مليانة) وأبيدوم نوفوم. وتواصلت الحركة في القرنين الثاني و الثالث بفضل طرق أوزيا(سور الغزلان) نحو رابيدوم وتاناراموزاكسترا (البرواقية) وأبيدوم نوفوم وبفضل الطريق الرابط بين الشلف ومنطقة وهران عبر تيغافا (العطاف) وكاتيلوم تانجيتاتوم (الأصنام) وكادوم كاسترا (مينا) وكاسترانوفا (المحمدية) تاساكورا (السيق) وريجيا (عربال) وبريزيديوم سوفاتيف ألبولا (عين تموشنت). أما في الجنوب فقد تم التوسع الروماني عبر طريق تيفاست (تبسة) ولامبيزيس (تازولت)، أين استقر الفيلق الثالث أوغسطس، هذه الطريق تجاوزت النمامشة والأوراي، وهكذا تم تأسيس معسكرات أد ماجوريس وباداياس وجيميلا. لقد ظهرت كتائب من الفيلق الثالث في كاستيلوم ذيمذى 198. ومن المؤكد أنها وجدت هناك لقطع طريق القوافل البربرية. في نهايةالقرن الثاني، حاولت روما أن تحول المناطق غير الخاضعة، في الجنوب، بواسطة طريق يربط تاتيلتي وآراس وغريميدى وعين توتة و بوغارورداغ وتمتد عبر كوهورس بروكوروم (السويق) وأميلياريا (بنيان) وكيتا ساكورا (سيدى علي بن يوب) وألتافا (أولاد ميمون) للوصول الى بوماريا (تلمسان) ونوميروس سيروروم (مغنية)

الليمس

ليس الليمس Limes خطا محصنا بسيطا ونظاما خطيا، إنه نظام دفاعي حقيقي في المعمق؛ يحتوى ثلاثة عناصر أساسية، أولا وقبل كل شيء


يحتوى فوساتوم Fossatum بمعنى خندق بأسوار، حصونا أو قلاعا صغيرة، ثم الى الأمام والى الخلف عناصر محصنة معزولة وبعد ذلك شبكة طرق تصل مختلف المواقع. ان الليمس اذن نوع من الثغور الحدودية.

ليمس نوميديا هو الأكثر شهرة. كان يصل، في القرن الأول بالجزائر، تيفاست آتيا من كابسا، ثم يلتف حول الأوراس من الشمال ثم يتجه نحو أوزيا عبر سهول سطيف ومجانة. تم بعد ذلك يغطس الى الغرب ليصل البرواقية، وودي الشلف عبر أوبيدوم نوفوم، وكاستيلوم تانجيتانوم (الأصنام)، ويعبر وادى مينا والهبرة في كاسترانوفا (المحمدية)، والسيق في تاساكورا (السيق) ويصل في الأخير الى الملوية في مصبه. في عهد فيسباسيان، وفي الوقت الذي كان فيه معسكر الفيلق الثالث يتحول نحو الغرب، هيئت طريق تربط تيفاست بهيبو ريجيوس في القرن الثالث، وفي عهد تراجان، حول المعسكر من جديد من تيفاست الى لامبيزيس بهدف حراسة أفضل لقبائل الأوراس. لقد حصرت الكتلة الجبلية حينذاك بين شبكة حقيقية من المعسكرات والمدن المحصنة. في عهد هادريان تحاصر مرتفعا بأولاد نايل (في السابق وكذلك آل سيفير وقع الشيء نفسه بالنسبة لبلاد جنوب الحضنة) بانشاء كاستيلوم ذيمذى (مسعد) في 198. وفي موريطانيا القيصرية نظمت الطريق الحدودية في حوالي 301.

ماهو جدير بالملاحظة، هو أن حد الاحتلال الروماني نادرا ما يتجاوز المنطقة التلية. فعلا، كانت هناك مواقع في الجنوب، مثل المعسكرات الكبيرة لأدماجورس (نجرين) وجيميلا؛ لكن هذه المواقع كانت مهمتها بصفة خاصة منع القبائل الرحالة من الدخول الى منطقة كان الرومان يريدون كسبها للفلاحة وللحياة الحضرية. ان المواقع البعيدة في الجنوب قد كانت تحرص اذن تنقلات البدو. لابد من التأكيد كذلك على أن الجبال قد احتلت بشكل ضعيف من طرف الرومان، وهذه كانت حالت الونشريس والقبائل وعلى أقل من الأوراس بالرجوع الى النتائج الاركيولوجية الحالية. اذا كان الرومان قد واجهوا صعوبات كبيرة مع بدو السهول العليا، البافاركما كانوا يسمونهم، فانهم قد واجهوا صعوبات أكثر مع الانتفاضات الجبلية. هكذا، وفي أقصى امتدادها في وسط القرن الثالث، كانت الحدود تنطلق من شط الجريد،

ثم تنحرف نحو الجنوب وتحاذى شمال شط ملغيغ ثم تتجه نحو الغرب على 20 أو 30 كلم موازية بالأطلس الصحراوى. كانت تشمل سهول الحضنة، ثم ابتداء من سيدي عيسى تتابع المنحدر الجنوبي للأطلس التلي.

انحصرت منطقة الاحتلال الروماني في شريط ساحلي من 120 الى 130 كلم تقريبا. ان السهول العليا الوهرانية قد ظلت خارج الأملاك الرومانية.



الاحتلال الروماني
(في بداية القرن الرابع)
قيصرية
موريطانيا القيصرية
موريطانيا
سيرتا
نوميديا
افريقيا
افريقيا البروقنصلية
بيزاسين
طرابلس

تاكفاريناس

XXIV كان تاكفاريناس قد بثّ شائعة مفادها أن القوة الرومانية قد خفّضت من طرف أمم أخرى وأصبحت عبارة عن بقايا، ولهذا السبب كانت مجبرة على مغادرة افريقيا شيئا فشيئا : مانبقي منها هناك كان يمكن تطويقه، اذا بذل الرجال الذين يفضلون الإستقلال على العبودية مجهودات ضدها : إنه يرفع من قواته ويقيم معسكرات أمام توبوسوبتو ويضرب الحصار حول المكان. لكن ذولابيلا جمع كل ماكان لديه من فرق، ثم، بفضل الإرهاب الذي أوحى به اللقب الروماني وكذلك بفضل عدم كفاءة النوميديين في مواجهة مشاة منتظمين في صف، لم يسرى بالأحرى لرفع الحصار، بل حصّن مواقع اسناده؛ في الوقت نفسه أوقف ارتداد رؤساء الموزولام ضاربا أياهم بالبلطة. ثم، متعلما من العديد من حملاته ضد تاكفاريناس أنه كان من المستحيل على فرق مثقلة بالسلاح وتسير في هيكل واحد أن تلاحق بنفع عدوا متشردا، يدعو الملك بطوليمي ورعاياه ويشكل أربعة طوابير يسندها الى ضباط وقضاة عسكريين؛ قادة العصابات المكلفة بالغارات ضباط مختارون من بين المور؛ أما فيما يتعلق به هو، فإنه كان هنالك شخصيا لمراقبة الجميع.

XXV، مكرا ينقل خبر وصول النوميديين إلى حصن نصف مخرب، يسمى أوزيا، أحرقوه، ونصبوا قرابنهم (المفرد قربي - لمترجم) واستقروا في مكانه مطمئنين الى الموقع المحاط بوهاد واسعة غابية من كل الجوانب. حينئذ، وهم بدون أمتعة وبدون أن يعلموا الى أين يوجهون، اقتيدت الخيالة والأجنحة الى الأمام، في مسيرات شاقة. كان النهار يبزغ في أوله حين كان الرومان، على صوت الأبواق وصيحة مفزعة، يقتحمون البرابرة في وسط نومهم؛ كانت الخيول النوميدية مشكلة أو متفرقة في كل الإتجاهات ترعى. من جانب الرومان، كان كل شيء جاهزا للقتال، فالمشاة في صفوف مرصوصة والسرايا في ساحة القتال؛ أما لدى العدو فكان العكس، حيث كانت المفاجأة المطلقة، فلا أسلحة ولانظاما وخطة؛ كأنهم كانوا قطعانا، كانوا يدفعون ويقتلون ويؤسرون. كان الجندي، قلقا من ذكرى أتعابه ضد عدو يتهرب من المعركة التي كان قد رغبها كم من مرة، يشبع رغبته في الثأر والدم. نشر بين

الشرذمات أمر التعلق بتاكفاريناس، المعروف لدى الجميع بعد العديد من المعارك، اذ أن موت هذا القائد هي وحدهاالكفيلة بوضع حد لهذه الحرب. لكن هو، حين رأى حراسه منبطحين حوله وابنه قد كبل بعد، والرومان وافدين من كل جهة، قفز الى وسط الحراب وبواسطة موت لم يتم خاليا من الإنتقام نجا من الأسر. تلك كانت هي النهاية التي وضعت للحرب.

Tacit, Annalies, Les Belles Lettres, 1966 , XXIV et XXV, pp. 190 – I9I

الإستيطــان الرسمــي

كان الإستيطان الرسمي، الشكل المفضل للسياسة الإمبراطورية، الموكل إلى جنود البلديات وأراضيها المسرحين من الفيالق، مصحوبا طبعا بفتح الطرق الضرورية لأستغلال الأراضي الممنوحة. إننا نعرف اليوم نموذجا لذلك في افريقيا الشمالية هو نموذج طرق الإستيطان حيث التوجيهات الإقتاصادية مرتبطة دائما بمستقبل المراكز التي تخدمها.

كانت إقامة العسكريين القدامى مألوفة في بداية الإحتلال الروماني. لقد شاهدنا أغسطس يدخل مثل هذه المستوطانات في مملكة يوبا الثاني الحليفة، وكلود يقيم جنوده المسرحين في أوبيدوم نوفوم، ونيرفا في سطيف، وتراجان في تيمقاد .. لكن على مايبدو كانت هناك ناحية مفضلة في هذا الشأن بصفة خاصة : في عهد الأنطونيين ANTONINS ، وفي السهول العليا التي تحيط بلامبيز من الشمال ومن الشمال الغربي، أقيم عدد كبير من الجنود المسرحين في كازا CASAE وتادوتي وديانا فيتيرانوروم ولاماسيا وفي لامبيريدي. إثنان على الأقل من هذه التجمعات، وهما الثالث والرابع، أصبحا مدينتين هامتين فيما بعد؛ لقد أثبتت شبكة طرقهما حيوية جميلة وتتراكم العلامات الأليفة في شكل مجموعة هناك.

هذا المثال، من بين العديد من الأمثلة الأخرى، يقدم توضيحها نوعيا حول الأسلوب الروماني في إستيطان التراب الإفريقي. كان الهدف المتوخي هو دفع إدماج الأهالي أكثر فأكثر، وإدخالهم في أسلوب الحياة اللاتينية. الأهداف التي ترمز إليها كلمة واحدة : الرومنة. الأسلوب المتبع هو دعوة السكان إلى الحياة الحضرية بإنشاء مراكز جديدة وتهذيب القديمة. في هذا

الإتجاه هل جدد الرومان ؟ لا ، لكنهم نشطوا بحيوية تطور إقامة القبائل الرحل في إطار حضري، هو إطار تجمع البربر في مواطن الحضارة المدنية. إلى القرية الأهلية التي ولدت فيها غريزة الأمن الجماعي أو الحاجة إلى التبادل، ضمت في أحيان كثيرة أنوية الجنود المسرحين أوالتجار الرومان. حين أقيمت مراكز جديدة في جهات منبسطة، فإنها لم تتأخر في أن تصبح محور جذب لفلاحي الضواحي؛ بشكل شوهد فيه، بالإقتراب التدريجي والمزاحمة المساعدة، تألق حقيقي نحو المؤسسات البلدية، ومزايدة الحواضر للحصول على ألقاب جديدة ورقي إداري. إن حضارة أهلية بسيطة ذات نظام غير مستقر تأمل، حين تصبح ذات نظام روماني، في أن تدرج يوما ما في فئة المستعمرة، الصغيرة لروما في التراب المقاطعي.

مثريا بالأعمال الخيرة الشخصية لواحد إسمه هادريان، ولواحد إسمه سيبتيم سيفير، فقد بلغ عدد المستعمرات والبلديات العديد من المئات في نهاية القرن الثالث في إفريقيا، واتضح أن المسألة الحضرية فازت بالجولة.

Pierre Salama, Les vois romaines de L'Afrique du Nord, Alger, 1951, pp. 36 – 37

الفصل التاسع

« الجزائر » المستقلة

إلى جانب إفريقيا الرسمية، كانت إفريقيا المعادية للأجانب والمتمردة على روما، إفريقيا البربر المرتبطين بتقاليدهم وبعاداتهم وبلغتهم، تنتصب ثابتة ووفية لنفسها وغيورة على إستقلالها. لم يكن السلم الروماني La Pax Romana سوى تورية تخفي الحقيقة بطريقة سيئة: حقيقة التمردات وثورات العامة على السلطة في الأرض المحتلة. فتاريخ السيادة الرومانية في البلاد البربرية، ماهو الاّ تاريخ خمسة قرون من الحروب الضارية في سبيل الحرية والإستقلال. ونادرا ما يتكلم الينا المؤلفون اللاتينيون عن أسباب وأهداف المتمردين وقدم جنرالاتهم دائما قمعهم كنضال الخير في مواجهة الشر في حين أن الانتفاضات كلها تقريبا كانت بسبب مصادرة الأراضي لصالح الرومان. خلال أكثر من قرنين سيكون الوقوف في وجه روما سلبيا: نزوح الى الجبال وفرار الى الصحراء. كانت روما تقترح العبودية، أماالحرية فكانت تفرض على البربر العيش بعيدا عن الحواضر «العودة الى ماقبل التاريخ» في بعض الحالات. ان وزن افريقيا في العالم الروماني الأكيد؛ فالتاريخ البربري خلال فترة الرومان يسجل تحت عبارة مقاومة الهيمنة الأجنبية والثبات الإفريقي. ان هذه المقاومة وهذا الثبات ناتجان عن تأثيرات قديمة، «البلاد» وتأثيرات خارجية من المشرق ومن شمال البحر المتوسط.

الإنتفــاضات

لم تتوقف الحرب الوطنية التي بدأها تاكفاريناس ومازيبا في عهد دوميتيان (81 ـ 96)، وبصفة خاصة في عهد هادريان (117 ـ 138). واجه الرومان صعوبات جديدة في موريطانيا. ففي 123 نهض كل المور بموافقة حاكمهم لوسيوس، فاضطر الإمبراطور هادريان أن يأتي هو بنفسه لتفتيش الدفاع وتدشين معسكر لامبيز. في 139 إنتفاضة جديدة دامت أربعا وثلاثين سنة (إستغرقت عهد أونطونين كله وجزءا من عهد مارك أوريل)؛ ينزل المور من الجبال، ويهاجمون نوميديا ومدن الساحل ويتقدمون حتى جنوب إسبانيا. بعد وقفة قصيرة تنفجر تمردات من جديد في عهد كومود. وتتوقف مدة عشرين سنة في وقت كان يحكم روما أحد الأفارقة، هو سيبتيم سيفير من ليبتيس. في عهد آل غورديون ومع بداية القرن الثالث هاجم البربر المعمرين والملاك الرومان وفي 253 غزا المور نوميديا والبروقنصلية، مخبرين المدن وماسكين للعديد من الأسرى. خلال هذه الفترة إمتدت الإنتفاضة إلى كل من نوميديا وجزء كبير من موريطانيا. فقد تحالفت قبائل جرجرة وبابور مع القائد العظيم فاركسان. حيث وصلت بعض الجماعات حتى مشارف قرطاجة تقريبا. واستخلص كاركوبينو من نقش إكتشف بمليانة عام 1917 معلومات هامة تخص الإضطرابات التي هزت إفريقيا في بداية النصف الثاني من القرن الثالث. تمرد البافار بين وادي الساحل والوادي الكبير في جبال بابور، الكينكجنتاني بين صلداي (بجاية) وروزيكورو (دلس) وبين جرجرة والبحر، الفاركسينانس سواء في القبائل الكبرى، إذا نسبناهم إلى آيت فراوسن أو في كتلة بني عباس الجبلية. بدأت الإنتفاضة من موريطانيا القيصرية وبلغت نوميديا. لقد أعاد كاركوبينو ترتيب المراحل المختلفة للإنتفاضة كما يلي

في 253 المنتفضون يقودون رومان نوميديا أسرى. القديس سيبريان Saint Cyprien بجمع تبرعات في قرطاجة للتكفل بدفع فديتهم.



نصــب ساتون (تيمقــاد)




نصب نغاوس، ساتورن إفريقي.
في الأعلى مشكاة دائرية. تمثال ساتورن النصفي، بغزارة اللحية والشعر الطويل. على الرأس غطاء متدل على الكتفين. يمسك الإله باليد اليمنى حجر الرباط وأمامه يضطجع كبش. التفسير : « هذا فأل بالخير بدخ وانجاز في السعادة. قدّم القديس فيليكس وديودور الى المولى ساتورن أضحية كبيرة فجرية.

مولشور : روح لروح، دم لدم حياة لحياة. في سبيل كونسيسا وفي سبيل تحيته، بعد ظهور الإله وإكمالا لرغبة قلب مسرور، فإنهما قد قدّما أضحية، في مكانها خروف »





عملة سيرتا المدينة ذات الإستقلال الذاتي. التمثال النصفي لتيشي.
الظهر : حصان ملجم سائر نحو اليمين BD MLKRT) عملة سابقة لعام 46).


قبائل موريطانيا القيصرية
(بعد بطوليمي)
أرتينيت
بانيور
بايور
أفانغتومات
باڤار
مازيس
زابانس
مازات
دافار
(باڤار)
إينالونس
إيوباليت
ماريبيساس
رونوكسوس
إيكامبولس
موزوني
ناعمو
سوبوربور

أوت 254 : وكيل موريطانيا القيصرية م. أورليوس فيتاليس، والعضو البلدي لألاتراكوم Alathracum يحتفلان بإنتصار محقق في وادي لكّال.

فيفري 255 : كان على قائد المعاونين Vexillationللخيالة المور أصلاء موريطانيا القيصرية أن يدافع عن مقاطعة في ناحية سور الغزلان.

بعد 255 : مرسول الأوغسطسيين الثلاثة إلى نوميدنا، فيتوريوس فيتريانوس يرفع نذرا، في كويكول (جميلة)، إلى جوبيتير ليشكره على تكليل جيوشه بالنجاح.

في 257 : فرقة الخيالة السادريين Sardesالثانية تحقق العديد من الإنتصارات في ناحية ألتافا (أولاد ميمون).

في 259 : س. ماكرنينيوس، مرسول الأغسطسيين إلى نوميديا يشكر الآلهة على الإنتصارات التي أولتها عنايتها في ميلوف (ميلة) وفي تخوم نوميديا وموريطانيا على البافار والكينكجيتاني والفراكسينانس. ويعلن عن إستسلام قائد هؤلاء الاخيرين.

في مارس 260 : ل. جارجيليوس مارتياليوس، قائد خيالة المور، الذى كان قد ضمن استسلام واعدام رئيس الفراكسيناس، بقتل فجأة في ناحية سور الغزلان أثناء معركة مع الباقار.

في 262 : يقام « النظام الروماني » في موريطانيا القيصرية.

تستأنف التمردات في عهد أورليان وفي عهد ذيوكليتيان؛ من 289 الى 297، يحقق بربر جرجرة وبابور ومنطقة الشطوط العديدة من الإنتصارات على الفرق الرومانية. كان الإمبراطور ماكسيميان مضطرا للتدخل شخصيا؛ كان القمع فظيعا؛ ذبح البربر أو أبعدوا. ولكن البربر لا يلقون السلاح ويستغلون الحروب الدينية ليقدموا الضربة القاضية للهيمنة الرومانية. فلانتفاضات اذن كانت سيدة الأطلس في جولات عديدة وذلك خلال سنوات عديدة.

« الجزائر » غير المرومنة أو قليلة الرومنة

ظل جزء كبير من الجزائر اذن خارج السيادة الرومانية و لعديد من القبائل كانت خارج المراقبة الرومانية. لقد عرفتنا نقوش باسم البعض منها

بمناسبة التمردات. في الجبال ربما كان للبفار موطنان أساسيان، كما يرى كامبس، واحد في المنطقة الوهرانية وآخر في جبال البابور. سكن الكاراريانس في الحضنة أو في الأطلس الصحراوي، وسكن الفراكينانس والكينكجنتياني في القبائل الكبرى وكذلك فعل الماسينيسانس. ويتكلم نقش للامبيز عن المازيس. وفي المواقع كانت بعض الجبال أقل سكنا، أو على الأقل ترك سكانها القليل من الأثر، وهذه الحالة جبال مليانة، وجبال البليدة وجبال القبائل الصغرى والكبرى. وفي السهول هناك مثالان هامان : السوبوربور وفالسوبوربور ذكروا من طرف بلين القديم ومن طرف بطليمي، وتجعلهم بعض النقوش في المنطقة القسنطينية، في شمال سطيف البيضاء ومادوروعين كامليل(بين خنشلة والشريعة) وتالا وجيدرة.

لدينا القليل من المعلومات عن هذه القبائل، للاشارة اليها كانت تستعمل كلمة gens, أو natio وكانت تستعمل أحيانا كلمة قوم ETHNIQUE فقط. كان للـ gens أرض نظام خاص وكان يتم في بعض الأحيان الانتقال من الـ gens الى res publica; كانت تدار الـ genes من طرف رئيس يسمى rex في منطقة القبائل.

كان الرومان مجبرين على احترام النظام الإجتماعي البربري، والإكتفاء بمراقبة قبائلهم وكونفيديرالياتهم بواسطة ضباط، وعامل أووكيل. ان ديمومة لقب سوفات لتكشف سر ذلك. فقد كانت روما مضطرة للموافقة على القادة المنتخبين من طرف القبائل وأن تكتفي بتنصيبهم.

المقاومة الدينية

لقد دافعت العبادات القديمة البونيقية أو الليبية عن نفسها. كانت أضرحة المعمرين الرومان تحاذى أبواب المدن وامتداد الطرق، في حين كان البربر يدفنون موتاهم على الطريقة الليبية في مقابر شبيهة بالدولمن. في حانوت وتحت جدار. واستمرت عبادة الآلهة المورية التي يمثلها العديد من النذر. في المدن كانت تشرك الآلهة الوطنية مع الإيطالية ولو كان يعبد بعل هامون تحت اسم ساتورنوس أوغسطس Augustus وتانيت الالهة البونيقية تحت اسم سيليستيس Caelestis لكن في الارياف لم تكن تعرف سوى الآلهة النوميدية؛

فكان يعبد هاووس حول تيفاست، ونيليوس في مادور وجورو في نواحي سيرتا ومادوروس Medaurus القرب من لاميزوبالدير Baldir في قالمة. تواصلت كذلك عبادة الملوك الأهالي؛ فعبادة يوبا كانت شعبية لدرجة أقلقت الاساقفة المسيحيين. ان تاريخ الكنيسة نفسه يفسر في الجزء الأكبر منه بعداوة البربر هذه لروما. لقد اهتدى البربر الى دين المحرومين والمضطهدين الذين كانوا يبجلون المساواة والعدالة الإجتماعية. كانت المسيحية بالنسبة للبربر التعبير عن رفضهم للسيطرة الرومانية. لقد انفصلوا عنها يوم مثلت الكنيسة الرسمية روما. لم تسمح الجمهرة الكبرى من البربر لنفسها أن تتأثر لاعن طريق الدين الروماني ولاعن طريق حضارتها. يضاف الى هذه الديمومة التدينية بقاء اللغة. لقد انتشرت اللغة الليبية خاصة خارج السيطرة البونيقية القديمة، مستعملة في ضرب نقود مدن الساحل؛ انها معروفة بفضل النصب المزدوجة اللغة. لم تبق البونيقية لغة الشعب فحسب بل لغة أفراد الطبقة الوسطى كذلك. فأوغسطس يخبرنا بأن هذه اللغة قد كانت مستعملة في المجادلات مع الدوارين Circo-necllions وهذا البقاء يحمل معنى كبيرا إذا أخذ بعين الإعتبار المعنى الإفريقي الواسع الذي يمنحه كورتواس Courtois للكلمة البونيقية. عبرت الديمومة الإفريقية عن نفسها على مستوى الفن كذلك.

قبائل موريطانيا القيصرية
(من بداية القرن الثاني بعد الميلاد)

العلامات التي تحـدد أراضـي القبـائل

1 ـ علامة تشيـر إلى حد حقل أمبراطوري وحد مستعمرة أميديرا وحد أراضي الموزولام، في آن واحد.

النقـش : Inscriptions Ilties de l'Algérie (n° 1. 939 bis) Exauctoritateimp (eratoris) Ner (vae) Traj [Da] ni Caes (aris) Aug (usti) Germanici [Da] cici,co (n) s (ulis) VI imp (eratoris) XIIII L (ucius) Acilius Strabo Clodius Nummus L (e) g (atus) Aug (usti) pro pr (aetore) inter Aug (ustum) et Amedere (nses) et Musul (amios)

الترجمـــة :

بسلطة الإمبراطور نيرفا تراجان قيصر أو غسطس جيرمانيكوس، قنصل ست مرات، منادى به أمبراطورا 14 مرة، فإن لوسيوس سترابو كلود كلود يوس نوموس، مرسول أوغسطس الحاكم الشرعي (قد نصب هذه العلامة) بين أراضي أوغسطس وأراضي أهل أميديرا والموزولام.

2 ـ علامة تشير إلى الحدود المعينة للنوميديين.

النقش : Corpus Inscriptionum Latinarim (tome VIII, n°8.814) Ex indulgentia imp (eratoris) Caes (aris) Hadriani Aug (usti) fines adsignati genti Numidarim per C (aium) patronianum Cal - crem proc (uratorem) Pro (vinciae) Caes (ariensis)

الترجمـــة :

بتسامح الإمبراطور قيصر هادريان أوسطس، الحدود المعينة لشعب النوميديين من طرف كيوس بترونيانوس سيلير، والى مقاطعة موريطانيا القيصرية.

علامة تشير الى الحد بين مادور والموزولام.

النقـش : St. Gsell, Inscriptions latines de l'Algérie (n°2828) Ex auctorita [te] Imp (eratoris) Nervae Caes (aris) Aug (usti) Germanici, Dacici,L. Minicius, leg (atus) Aug (usti) pro pr (aetore). inter Madaurenses et Musulamios.

الترجمـة :

بسلطة الإمبراطور نيرفا تراجان قيصر أوغسطس جيرما نيكوس داسيكيوس، فإن لوسيوس ناتاليس، مرسول أوغسطس الحاكم الشرعي (قد

نصب هذه العلامة) بين مادور والموزولام.

4 ـ نقش عين عبيد : (A. Berthier, Nicibes et Suburbures dans .Bulletin d'archéologie algerienne (tome III, 1968p; 295)

النقش : EX au (c) torit (ate) Imp/(eratoris) Vespasia (ni) / Cae (saris) Aug(usti) agr (i) / pub(lici) Cir(tensium) ad (signati) Sub / urb(uri) b(us) Reg(ianis) et / Nicibibus pèr / Tu(l)lium Pomponianum / Capitonere / leg(atum) Aug(usti).

الترجمة :

بقرار من الإمبراطور فيسباسيان قيصرأوغسطس؛ أراضي البرتانس الدومينية المعنية للسوبور بور ريجياني وللنيسيب (المنفذة) من طرف توليوس بومبونيانوس كابيتو، مرسول أوغسطس.

شاهدة قبر مزدوجة

لأحد الجنود المسرحين حيث الكنية تبدو لأصل جيتولي.

النقش : Inscriptions Latines de l'Algérie, Paris, 1958, tome I (137).

C. Iulius G(a)e tu lus, vet (eranus), donis donatis torquibus
et armillis, dimissus et in civit (ate) sua Thllio flam(en)perp (etuus).

الترجمة :

كيوس جوليوس كيتولوس جندي مسرح مع رسمه الفلادات والأساور، سرح من الخدمة (العسكرية) والكاهن السرمدي لتولهوم خاضر.

إهداء الى الملك النوميدي هيمبصال

العبارة المقدمة من البربر الى ملوكهم القدامى تؤكدها نقوش عديدة.

النقش : Inscriptios laines de l'Algerie (tome I, n° 1. 242).
Reg [i Numid ? [arum ?] Hiempsa [li] Gaudae reg is[fi] lio, [cives et i] ncolas Thu [bursic (enses) ae] dific [aver(unt).] et in glor (iam opt [imae (?) patriae] Iulius Procu lus.].

الترجمة : الى ملك النوميديين، هيمبصال بن الملك غودة، ان مواطني وسكان تو بورسوكو قد شيدوا ... وعلى شرف أفضل الأوطان، جوليس بروكول.

نقش متعلق بالربة مورا

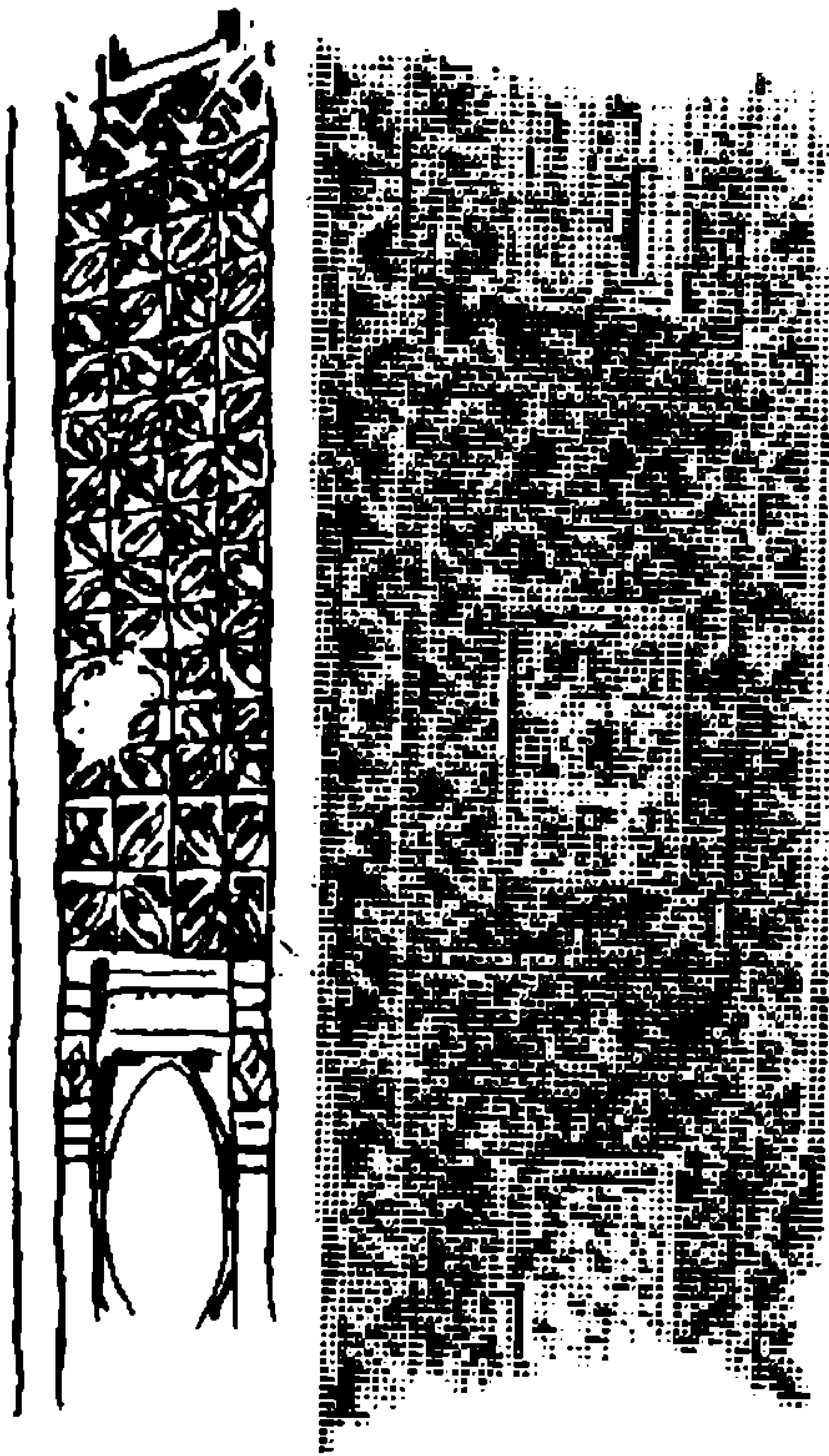
(ديانا أو غوستا مونوروم)

نقش يشير، في عهد حكم ديكليتيار، الى تصليح معبد ديامورا dea Maura من طرف س. ايليوس فورتوناتوس، قيّم ومراقب جمهورية ألبولا. ويعرفنا هذا النقش باسم المدينة الذي سبق اسم عين تموشنت (متحف وهران).

النقش : Imp (eratoribus) Diocletiano et Maximiano Aug (ustis) et C [ons] tantio et Maximiano Caes (aribus) C. jul (ius) Fortina tus cur (ator) ac disp (unctor) reip (ublicae) [AI] bul (ensis) tempulum d eae Mourae ad pristinum statum reformavit, [du] umvira (t) u C. jul (ii) Gaitatis U Jun (ioris et Aur (elius) Dom... str et Aur (elius) quintum et (A) emi [lius]... promissa ? sua ex (h) ibuerunt. T. FL [avius Fortun] a tus scripsit. Anno

[provinci] a (e) CCLX.

الترجمة : في عهد الأباطرة ديكليتيان وماكسيميان أو غسطس وكونستانس (كلور) وماكسيميليان (هيركل) القياصرة النبلاء جدا، أعاد جوليوس فورتوناتوس قيّم ومراقب جمهورية ألبولا معبد الربة مورا الى حالته الأولى تحت سيادة الدومفيرة س. جوليوس غايتاس جونيور ول. سيوس فليكس والقيّم ل. أريوس و س. موسيوس جونيور وأوريليوس كينتوس وايميلوس ... قد وفو بوعودهم (؟). كتب (هذا النص) ت. فلافيوس فورتوناتوس عام المقاطعة 260 (299 بعد الميلاد).



مارس الحرفيون البربر تزيين المعابد
والبازيليك وبيوت الصلاة المسيحية
وزخرفة بيوتهم ومنقولاتهم، ولما كانت
الدوناتية حركة بروليتارية فلاحية على
الخصوص، فان التزيين قد وجد
مكانته في بيوت الصلاة الدوناتية طبعا.
وهذه ركيزة للكنيسة الدوناتية بخنشلة
تعرض حوافا مثلثية النقب تحيط بعبارة
البدعة الافريقية. «ديولوديس».

D'aprés G. Marçais, *Art Chrétien d'Afrique et Art Berbére dans* Annali dell Istituto Universitario Orientale di Nap... 9 e série, volume III

الفصل العاشر

الاستغلال والسيطرة الرومانيتان

أدت الحاجيات الى الأرض بالرومان الى الحاق البلاد. وكان الجيش الوسيلة الممتازة للاستيطان والسيادة الرومانيتين. ودفع البربر الذين نهبت أراضيهم الى الصحراء، الذين ظلوا باقين داخل الليمس، وباستثناء أقلية برجوازية مرونة، كانوا هم العمال المضطهدين الذي يدين لهم الرومان بثرواتهم وازدهارهم. أما الادارة فكانت تختلف تبعا لأقدمية ودرجة رومنة الجهات، وكذلك الحال فيما يخص نظام المدن ووضع الأفراد. فقد كانت روما بأربعة في فنّ فرق تسد.

أدوات السيطــرة

الجيــش :

كانت روما تمتلك جيش احتلال يشمل فيلقا من 5500 رجل و 13000 معاون للدفاع عن البروقنصلية ونوميديا، و 1500 معاون auxiliaires لحماية الموريطانيات. ان الفيلقيين المجندين في أول الأمر من الغرب اللاتيني والشرق اليوناني قد أخذوا ابتداء من القرن الثاني من افريقيا نفسها. كذلك ابتداء من نفس العصر انتهت الكتائب التابعة (المعاونة) الآتية من كل المقاطعات الرومانية في أول الأمر الى احتواء عناصر من السكان الاصليين، كانت بعض فرق الخيالة افريقية كلية. فرقة الخيالة المورية Cohrs Maurorum في نوميديا وفرقة الخيالة الموزولام C. Musulamorum في موريطانيا. كان الجيش كذلك أداة للاستيطان والرومنة. فالبربري المجند كان يتحصل على المواطنة بعد 25 سنة من الخدمة وحينئذ يستقر كجندي مسرح

في احدى المستعمرات وتمنحه الدولة قطعة أرض.

كان الفيلق الثالث أوغسطس مشهورا في افريقيا، فقد كان يرمز لـ « النظام الروماني ». استقر في أول الأمر في حيدرة (في الشمال الشرقي من تبسة)، ثم بعد ذلك في تيفاست (تبسة)، ثم انتقل الى لامبيز. ونجا دائما من يد بروقنصل افريقيا حيث كان مرسوله تابعا للامبراطور مباشرة. في كا سنة يفصل الفيلق الثالث احدى فرق خيالته في قرطاجة، والباقي من التعداد كا يقيم في نوميديا تقدّم لنا آثار لامبيز فكرة دقيقة جدا عن المعسكر المركزي للفيلق الثالث. لنشر كذلك الى أن أسطولا افريقيا موضوعا تحت سلطة حكومة موريطانيا القيصرية قد كان له كقاعدة الميناء العسكري الصغير بشرشال.

الطريق :

كانت الطريق بالنسبة لروما أداة سيطرة واستغلال اقتصادي. والعديد من الطرق فتحت باليد العاملة العسكرية، وقد سمحت بتقدم جبهة الاحتلال من تيفاست الى تاموقادي ومن لاميزيس الى جيميلا ومن قرطاجة الى تيفاست ولاميزيس ومن سيتيفيس الى أوزيا ومن غادوم الى تاسوكرا وألبولا ومن هوهوس بروكوروم الى نوميروس سيروروم. كانت شبكة الطرق كثيفة بالجهة الشرقية من قرطاجة. وغالبا ماكانت الطرق واسعة (7,20م بالنسبة لطريق قسنطينة - سكيكدة)، ومشيدة بطريقة جيدة. حيث كانت تحتوي طبقات منضدة. وكانت تسمح الكثير من أعمال الفن بتجاوز المنخفضات، فالجسور كانت عديدة : « كان لجسر القنطرة عقد من 10 أمتار، وقبة من ثلاثة أضلاع، وتجويفات مزينة بنجميات ورأس حصان منحوت على مدخل قبته العليا ». وكانت العلامات الألفية تشير الى المسافات، وتحمل العديد من النقوش التي أفادت جدا في معرفة تاريخ الناحية.

الإستيــلاء على الأراضــي

«أصبح تقدم الإستيطان بالطبع مرادفا لامتلاك أراضي البربر. تحققت الوثبة الكبرى على يد أوغسطس. وقد رأينا أنه كان هناك ثلاثة أنواع من إحتلال الأراضي : مستعمرات كان يعيش فيها مهاجرون إيطاليون والعديد من البربر الذين كانوا يحتفظون بتنظيم التقليدي، والباغوس الروماني Pagusبأراضيه وتنظيمه الخاص إلى جانب السيفيتاس civitasالبربري ومستعمرات كبرى مثل مستعمرة سيرتا. كان الإستيلاء على الأراضي من إلحاق نوميديا وموريطانيا في أصله.شرع في نقل القبائل وفي حصرها في النواحي الأكثر فقرا وفي سرقة حقولها في عهد تراجان. هكذا فقد الموزولام أغنى أراضيهم، وكان على السوبوربور، بالقرب من العلمة، أن يرضوا بأرض أقل في ناحية شط البيضاء. ويمكن اعتبار أن الدومينات في الأراضي الأقدم احتلالا كانت تدار بواسطة مسيرين يعملون بواسطة أجراء باليوم وأقنان أوعبيد. في الأراضي الأقل رومنة كان يمكن لملاك القدامى أن يستقروا على الدومين العام دافعين أتاوات. وكانت الملكية الصغيرة مرهقة بكل أنواع الضرائب.

استــغــلال البــــلاد

كانت افريقيا البربرية مستعمرة استغلال بالنسبة لروما. لم يكن الرومان عديدين. فلم يقطن افريقيا سوى بعض الموظفين الكبار، وتجار المراكز الكبرى، وبعض الملاك القليلين المقيمين وبعض المنحدرين من الجنود المسرحين. كان العمل مقدما من طرف اليد العاملة البربرية : فلاحين مرتبطين بالأرض وعبيد. وكان الإستغلال الروماني استغلالا للإنسان البربري. وكان يعني كذلك انهاكا للأرض وقضاء على الغابة.

كانت افريقيا في القرن الأول توفر القمح بصفة خاصة. فبلين يخبرنا « أن عزّ البلاد في الحصار». شجعت زراعة القمح جدا، لأن الأرض الإفريقية تدّر مردودا جيدا من جهة، ومن جهة أخرى كان التصريف أكيدا. كانت روما متضخمة السكان فعلا، فكان على الأباطرة أن يزودوا المدينة بتوزيعات مجانية من القمح. وكان الأباطرة يعولون كـ ! حد قمح

افريقيا : أصبح القمح الزراعة الأساسية في استغلال افريقيا، حيث كانت روما تشجع هذه الزراعة الاحادية. وكان الزيتون والكرمة في حالة ارتداد بالمقارنة مع الفترة القرطاجية. وكان هناك التين و الرمان كما كان عناب وكم افريقيا مشهورين، أما التمور فكانت ثمينة جدا. في مملكة الحيوان كانت تجارة البغال والأسود والفهود ملحوظة. وكانت افريقيا توفر منتوجات الرفاهية كذلك : رخاما مشهورا وأخشاب العصفية وأحجارا كريمة وألوانا وقمشا أرجوانيا. ويبقى القمح التجارة التي كانت مهيمنة. لكن من جهة أخرى لايعني هذا أن الانتاج كان يفوق الاستهلاك وأن هناك تحسنا في مستوى المعيشة بالنسبة للفرد.

في القرن الثاني، يفسّر انهاك بعض أراضي القمح واستغلال أراضي جديدة والحرية الكبرى التي تركت للمقاطعات نمو زراعة أشجار الزيتون والتين بالقدر الذى كان فيه الزيت والخمر ينقصان في روما. اتسعت زراعة الزيتون بشكل كبير في ناحية سوق اهراس وتبسة وفي أودية منطقة القبائل. وظلت سهول قسنطينة العليا وقفا على زراعة القمح. نمت في نوميديا تربية القطعان الضخمة : ربما بدأ الجمل يأخذ مكانة هامة في الحياة الريفية في نهاية القرن الثاني. شرع كذلك في استغلال مناجم الحديد والرصاص الفضي والنحاس. وكانت روما تتزود كذلك بخشب بالبناء وخشب التدفئة.

هكذا كان استثمار افريقيا في صالح روما؛ لقد كانت افريقيا مستغلة لتزودها بالقمح في أول الأمر، وبالخمور، وبالزيت وبمنتوجات زراعية أخرى وبالمواد الأولية بعد ذلك. كان العمل مقدما من طرف جماهير العبيد الكبيرة، الشيء أفضى الى تخريب النظام الاجتماعي البربري. هذا الاستغلال كان في فائدة روما، وفي فائدة أقلية من الملاك الكبار والتجار الايطاليين وفي فائدة بعض البربرالملاتنين. شاهدت الجمهرة الكبرى من البربر مستواها المعاشي يتناقص واطارها القلبي والجماعي يتفكك. فلم يكن الازدهار الروماني سوى واقع أقلية؛ فالجمهرة البربرية لم تعرف سوى الاستغلال والكدح الشاق والبؤس.







فسيفساء الحرث بشرشال



الصيد البحري. حافه مزينه لفينوس (جميله)



حب قاطف العنب

(تبسة)



مطحنه وجدت في إحدى

المدن (تيبازا)

التنظيم الإداري الروماني

من وجهة النظر الادارية كانت الجزائر تشمل ثلاث نواحي ذات نظم مختلفة : الجزء الملحق بالبروقنصلية ونوميديا وموريطانيا القيصرية.

كان الشريط الترابي الممتد من عنابة وسوق اهراس وقالمة الى الحدود التونسية الحالية كله تقريبا محتلا من طرف الرومان. فكان يدبره بروقنصل معين مبدئيا لمدة سنة من طرف مجلس الشيوخ ويقيم في قرطاجة.

وكانت نوميديا، الملحقة نظريا بالبروقنصلية، تحكم من طرف مرسول يحمل لقب الوكيل Propréteur يعينه الإمبراطور. وابتداء من القرن الثالث فقط أصبح لنوميديا كيان خاص؛ فعلا، ابتداء من عهد كاليغولا أصبح المرسول الوكيل تابعا للإمبراطور كلية. وأقام على التوالي في ايميدار وتبسة ثم لامبيز ابتداء من القرن الثاني. ولنشر الى أن مدن شمال نوميديا، البعيدة عن العاصمة كان لها حصانات بلدية واسعة.

أما موريطانيا القيصرية فكانت تحكم من طرف وكيل معين من الإمبراطور وله صلاحيات مدنية وعسكرية.

تفسر هذه الأنظمة الإدارية المختلفة بتاريخ دخول النواحي الثلاث ضمن لإمبراطورية الرومانية، ودرجة تطورها وأهمية رومنتها.

كان للمدن كذلك نظم مختلفة. يمكن لمدينة أن تكون مستعمرة رومانية بالفعل، ومعتبرة جزءا من روما وراء البحر، وكان سكانها يعاملون كرومان حقيقيين؛ أو بلدية رومانية Municipa rommain حيث كانت الأملاك العقارية تخضع لاعباء المستعمرات، أو بلدية لاتينية M. latin حيث كان للسكان حق مواطنة دنيا، منخفضة. كانت هناك حواضر مغتربة كذلك حيث السكان كلهم بربر وكان يديرها رئيس قبيلة معترف به من روما.

وضـــع النـــــاس

كان المجتمع البربرى متنوعا جدا تجاه روما فهناك المدمج والرعية وغير مدمج والبربر الحر. هذا الإختلاف كان معقما بنوعية الحياة التي اختلفت في المدن والأرياف أو الصحراء وبواسطة اللغة المنطوقة : بربربة وبونيقية - بربرية أو لاتينية. وكان وضع الأفراد مختلفا اذن أكثر من اختلاف الجماعات. حيث يميز بين الناس الأحرار والعبيد.

كان الناس الأحرار يشملون المواطنين الرومان، والذين يتحصلون على الحق اللاتيني والغرباء. وكان يمكن للاتينيين الدخول في المواطنة الرومانية، وبذلك كان لروما وسيلة للإعتراف بجميل الذين كانوا يخدمونها بوفاء. في 212 منح أمركاراكالا المواطنة للأغلبية الساحقة من الامبراطورية الأحرار. فجاء هذا الإجراء رغم ذلك متأخرا جدا لاشباع رغبة الأقلية البرجوارية. ضمن مرتبة المواطنين كان يحتل الشيوخ (أعضاء مجلس الشيوخ) والفرسان المقام الأول في المجتمع؛ يلي هؤلاء باقي المواطينين المختلفين فيما بينهم : برجوازية الملاك الريفيين، والقضاة وأعضاء مجالس المستعمرات والبلديات، وفي قاعدة السلم كان يأتي الشعب الصغير للمدن والأرياف. وكان للعمال المؤجرين ومعمرى الأملاك الكبرى نظام قضائي خاص بالانسان الحر.

عرفت افريقيا الرومانية العبودية، حيث يذكر جزال، إعتمادا على هذا التأكيد، فقرة بيترون أين تتبجح شخصية خيالية بامتلاك قدر كبير من العبيد موزعين عبر أرياف نوميديا يمكنها أن تستولي بواسطتهم على قرطاجة (القرن الأول). قدمت بودونتيلو، زوجة أبولي، هبة لابنائها لاتشمل على أقل من أربعمائة عبدا (القرن الثاني). وتثبت تعرفة جمركية في زاراى (بين نوميا وموريطانيا القيصرية) نقل عبيد كانوا موضوع تجارة في افريقيا. والإشارات الى العبيد ليست نادرة في عهد الإمبراطورية العليا؛ فمن المعروف أن موريطانيا كانت تصدر منهم في وسط القرن الرابع. ويتكلم القديس اوغسطين عن وجود العبيد في كل البيوت تقريبا. كان أغلب العبيد من البربر المهزومين، ومن الأسرى. حيث كانت الإمبراطورية تملك منهم وكذلك البلديات وال...اص. كان عبيد الأرياف عديد.. جدا، اذ تتكلم النقوش عن العبيد

في المزارع، وفي الأملاك الامبراطورية وعن الذين أجبروا على الإستسلام للانشقاق والفارين المتردين. استثمرت العديد من الدومينات بالعمل الرقي. قسم العبيد الى زمر وكانوا يؤجرون في كثير من الأحيان مع الأرض لأحد المزارعين، أو يسيرون مباشرة من طرف المالك. وفي بعض الأحيان كان هناك قيم، هو عبد كذلك، يسيرهم ويقدم حسابه عن تسييره الى سيده، أو الى معتمد Procurator أو الى مسير (Actor)عبد الملك. في الاقطاعيات الممنوحة الرقية كان السيد يسلم أحد عبيده قطعة أرض يفلحها ويحتفظ بالمنتوجات مقابل دخل يسلم للسيد.

لم يكن للعبيد أية حقوق : لاالحقوق الشخصية، ولا الحقوق الزوجية، اذ لم يكونوا قادرين على عقد زواج معترف به، وتأسيس أسرة وامتلاك ثروة خاصة وكان يمكن الخروج من العبودية بواسطة العتق. ويمكن أن تبقى روابط بين المعتوق وسيده. وكان عدد المعتقين كبيرا فلابد أن يأخذوا مكانة هامة في المجتمع الافريقي.

نقش عين واصل

هذا النقش هو شرح للـ Lex Hadriana(قانون هادريان) الذي كان يطبق إدارة الأملاك الامبراطورية لكل إفريقيا. لقد أعاد منشور الوكلاء-Procu rator tractus في نصه الفقرات التي كان لابد من تطويرها.

أ) تحية الإمبراطور قيصر، لوسيوس سيبتيمون سيفيروس بيوس وجوليا دومنا، أم الكمبيين، فزن بارتوكلوس، معتق الأغسطسيين الثلاثة والوكيل قد أقام هيكلا يحمل قانون الالهي هادريان، وينظم النظام المنقوش أسفله.

ب)نشرت نسخة من قانون هادريان على هيكل منشور الوكلاء.

هاهو كيف يسهر قيصرنا، في عنايته التي لاتعرف الكلل، على منافع الإنسانية.

1 ـ كل الحقول المزروعة زيتونا وأشجار أخرى للفواكه التي تقع في وحدات المئة لسالتوس (أملاك) بلانديانوس أودانسيس وفي أجزاء سالتوس لاميناتوس ودومسيتيانوس المجاورة لسالتوس سومستريتانوس، كل هذه الـ[illegible] أثر فلاحة وحدات المئة ولا أثر احتفاظ المسيرين يخول للمحتلين

حق امتلاكها، والاستفادة من مدخولاتها ود بوريثها نوريتهم، وهو نحق الذى يوافق عليه من طرف قانون هادريان بالنسبة للأراضي البكر والأراضي التي تظل غير مزروعة عشر سنوات متتالية.

2 ـ من جهة أخرى، سوف لن تغرم محاصيل حقول سالتوس بلاتد يانوس أودنسيس المؤجرة من طرف المسيرين للمحتلين الاّ بالماضي. لـ ...

3 ـ اذا غرس أحد الحائزين أو طعّم أشجار الزيتون (في الأراضي البكر أو غير المزروعة منذ عشر سنوات متتالية)، فان أية ثمار يجنيها خلال العشر سنوات الاولى سوف لن تغرّم.

كذلك، سوف لن تغرم الأشجار المثمرة خلال السبع سنوات التي تلي الغرس أو التطعيم.

في جميع الحالات، سوف لن تغرم ثمار الأشجار التي ليست في حالة الإعفاء الاّ اذا عرضها الحائز للبيع.

4 ـ يجب أن تسدد الأتوات المتعلقة بالثمار الجافة للأرض من طرف المحتلين في السنوات الخمس التي تلي الجني ولدى المسير الذى يحتل الأرض.

بعد هذا الأجل (سوف ينتقل الدين) لحساب (الدولة).

Carton La Lex Haddriana et son Commentaire par le Procurateur Patroclus dans Revue archéologique, nº 21, 1893, pp. 24 – 26.

شاهـــدة قبـــر (التقطت بالقرب من ميلة).

ك (ينتوس) ستاتيوس ساسيليوس بوتراعاش سبعين سنة.

قضي في هذا الحقل خمسا وثلاثين سنة.

انتيوشيس، زوجته، وولداه أمبير وبرفوتوروس مع أخواتهما، الى أبيهم الفاضل جدا.

شاهدة قبـر لاحـد أبنـاء هـذا الفـلاح

بروفوتوروس عاش سبعا وخمسين سنة. قضى في هذا الحقل خمسا ثلاثين سنة رفقة أبيه بوترا، واثنين وعشرين سنة بعد وفاة أبيه. أمبير وأخواته

الى أخيهم الفاضل جدا.

عاش الأب بوترا اذن 35 سنة على هذه الأرض، ومن انتبوشيس التي تقول عن نفسها إنها زوجته التي تحمل اسم عبدة، كان له عدة أطفال، حيث الأكبر، وهو بروفوتوروس، ولد حوالي العصر الذي استقر فيه بوترا في هذا المكان . لقد مات بروفوتوروس بدوره في نفس المكان، بعد أبيه بـ 22 سنة. يحمل بوترا أسماء تشير الى أنه مواطن روماني (يحمل، زيادة على اللقب والنسابة، إسمين إثنين، وهذا شيء مفرط). ربما كان قد عتق من طرف مالك الحقل، اسمه كـ. ستاتيوس، حيث كان عليه شرعا أن يحمل اسمه، مضيفا اليه تعسفا إسم سيسيليوس. لاندرى لماذا. والحالة هذه، ظل كل من المرأة التي ظلت رفيقة العبودية واطفالها الذين ولدوا قبل عتقه عبيدا : من الصعب الإعتقاد أن نسابة وإسم بروفوتوروس كانا قد أهملا على شاهدة قبره، لوكان مواطنا مثل أبيه. انني أفترض أن بوترا قد تحصل من سيده على اقطاعية رقبة؛ أصبح حرا، كان عليه أن يحتفظ بها، وبعده، تنتقل الى أطفاله. هذه هي، في اعتقادى، الترجمو الأكثر رجحانا للآثار التي تكشفها .هاتان الشاهدتان البسيطتان.

Stephane Gsell, Esclaves ruraux dans l'Afrique Romaine dans Mélanges Gustave Glotz, 1932, tome I, pp.413 – 414.

الطـــرق والتجـــارة الرومانيـــة

عند الإنتقال من تيفاست الى هيبوريجيوس، وفي الطريق كان يجمع زيت السهول العليا القسنطينية حتى ماذور حبوب ناحية قالمة.

تيليبت وسوفيتولا وسوفيس هي مراكز رئيسية لناحية زيتية مزدهرة جدا كانت تفضل أن تبيع منتوجاتها على الطريق التي كانت تبلغ الساحل بين هيدروميت وتيناى، وكانت تصرف في الوقت نفسه زيت تونس الوسطى وزيت الساحل ومنتوجات بيزاسيوم هذه حيث يفخم الكثير من كتاب العصور القديمة خصوبتها.

ألم تكن روسيكاد المنفذ الطبيعي للقطاع الزيتي للامبيز ـ قيمفاد، وميناء سيرتا ؟ وصلداى وموسلبيوم منفذ قطاع الحصاد العجيب السطايفي ؛

ايجلجيلي ميناء الزيت الذي كان يموّن، من بين الصناعات الأخرى، الصناعات الكبرى لساطافيس ؟.

لم يجد زيت توبوسكتو، المعروف الى غاية مصر، أدنى صعوبة للوصول الى بجاية؛ ربما كانت قموح سور الغزلان تكابد أكثر للوصول الى رسغونيا. وبينما كانت تتمتع تيبازا وقيصرية بأراضي خلفية واسعة نوعا ما كانت المحصولات الجيدة لوادى الشلف تصب في كارتيناس وفي كيزا، وأما محصولات موريطانيا القيصرية الغربية فكانت تصب في بورتوس ماغنوس أو في سيغا.

رغم أسبقية تموين الدولة، فقد كان التصدير الحر يستغل بعض حريات التصرف والتجارة الخارجية لافريقيا مع المقاطعات الغربية للامبراطورية، اسبانيا وبلاد الغال وينشط حركة طرق كبيرة نوعا ما نحو موانى موريطانيا القيصرية.

الأدلّة التي تساعدنا في اعادة رسم مجمل حركات التصدير الواسعة هذه ليست قليلة، فعلى سبيل المثال هناك محطة مسماة هوريا HORREA على الطريق سطيف ـ بجاية، كذلك نصب تذكارى عثر عليه في لامبيريدى بالقرب من لامبيز، يحمل تحت تجويف معد لكيل القمح، إسم روسيكاد: ميناء الأبحار البعيد، كذلك هناك تمثال أقيم لخصية رفيعة، مارست في عهد تراجان شراء الحبوب لحساب الدولة على الأرجح، في دائرة تيفاست، والتي كانت تنتقل فيما بعد إلى هيبون، إن الفسيفساءات الجميلة التي كان أصحابها الأفارقة يزينون بها قاعات إجتماعاتهم في أوستي، ليست بالنسبة لنا سوى نقاط تفصيلية في ميدان فيه كل شيئ يثبت أهمية الطريق، في نفس مستوى الملاحة البحرية وفي السياسة الإقتصادية لروما.

Pierre Salma, Les voics romaines de L'Afrique du Nord, Alger, 1951, pp. .43 – 44

الفصل الحادي عشر

الرومــــنة
المـــــدن

ترجمت بصمة روما في المظهر الريفي وفي المظهر الحضري على مستوى أكبر. فالآثار الحالية تؤكد ذلك بإسهاب. وإذا كان البربر في أغلبيتهم قد عبروا عنم تمردهم على روما، فإن ذلك لاينفي أن جزءا من الحضر، والبرجوازية الحضرية بالتحديد، قد كسبته الرومنة. إن هذه الرومنة قد برزت كذلك في الأدب الإفريقي، وسيكون من المهم معرفة إلى أي حد ظل الكتاب الأفارقة أوفياء لوطنهم. ويمكن التساؤل كذلك حول ماإذا كانت المسيحية والكنيسة قد فضلتا حركة روما أم سمحتا للأفارقة بتأكيد خصوصيتهم ؟

تحويــل المظهــر الطبيعــي

المظهــر الريفــي :

ترجم الحضور الروماني في المظهر الريفي بتحولات هامة. لقد لوحظ توسع وحدات المئة Centuriation، وتعيين حدود الأراضي الزراعية والمناطق البور (آثار وحدة المئة واضحة في جنوب سطيف مثلا). فالصور الفتوغرافية الجوية قد كشفت عن آثار شبكة ريّ؛ وتقدم لنا تعرفة لاماسبا (مروانة) مثالا عن نظام للريّ. وفي ناحية باتنة نظام آخر يحدد بدقة توزيع الماء بين مختلف الملاك؛ أما قنوات شرشال وعنابة فتعطينا فكرة عن أهمية المنشآت المنجزة الخاصة بالريّ. السدود والأنابيب والخزانات عديدة جدا. ستقدم دراسة القرى والمزارع، التي لازالت في الإنتظار زيادة على ذلك، فكرة عن تحول المظهر

الريفي. تحتل المزرعة (المسماة فيلا) مكانة هامة في السكن الريفي.

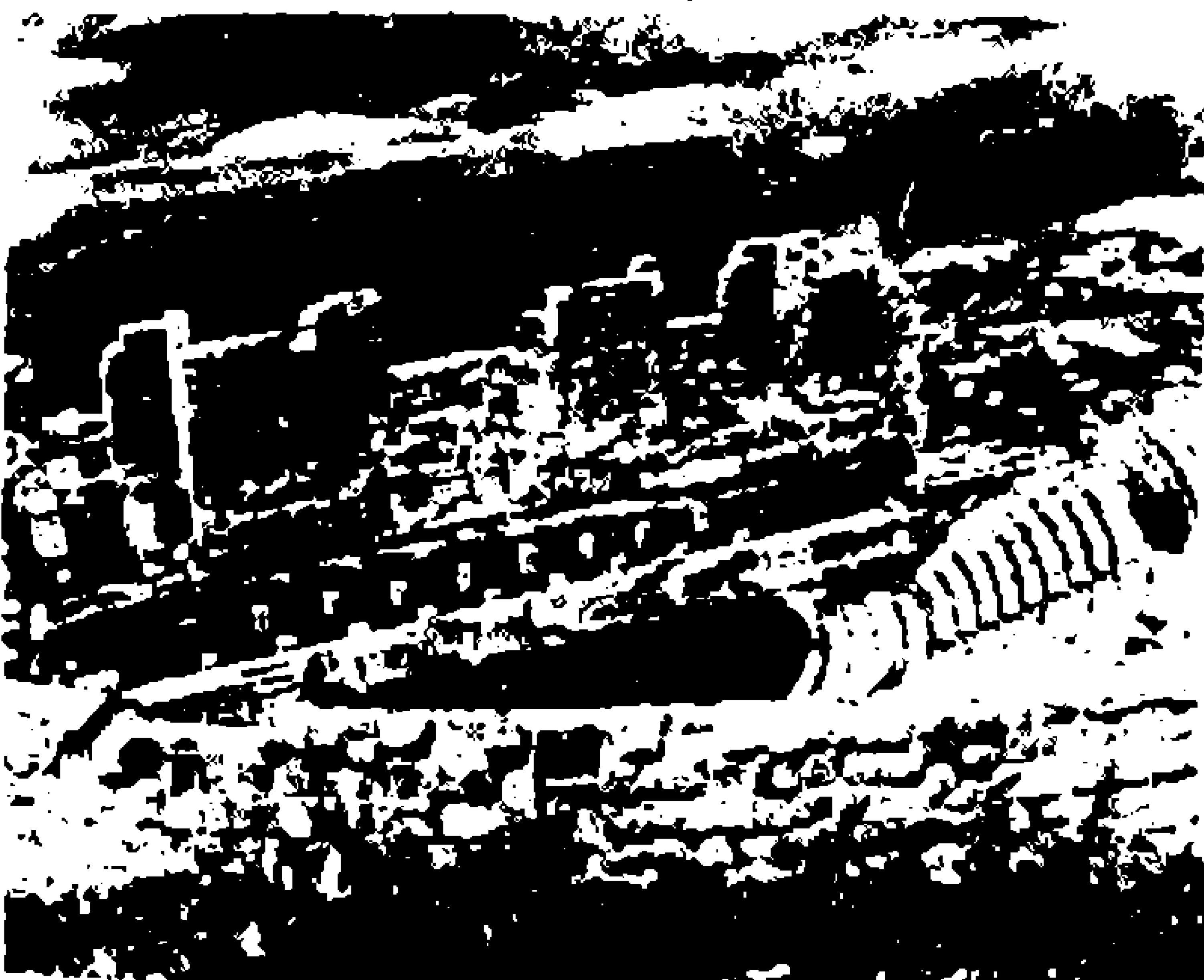
تقدم فسيفساء واد العثمانية، بالقرب من قسنطينة، فكرة عن تلك : بناءات رشيقة بحمامات وقاعات كبيرة تستخدم للسكن ومنظمة حول فناء واسعة بعيدا عن ذلك بقليل بنايات للاستغلال وزريبة بمياه وأرض للطيور. توجد خارج الفيلا جميع الأنواع الممكنة للمساكن الريفية، القرى والقربي والكوخ الأكثر فقرا والمزارع المعزولة الأكثر يسرا.

المظهـــر الحضـــري

تقدم الآثار الحالية فكرة عن أهمية المدن الرومانية. الأغلبية تبرز كمدن صغيرة من 5 الى 6000 ساكن، حوالي 000 10 بالنسبة للكبيرة. لم يكن في هذه المدن تجار وحرفيين فحسب بل كان هناك فلاحون أيضا يقطعون، صباحا ومساء، المسافة بين المدينة وأراضيهم أو الذين يقيمون تبعا للظروف في المدينة أحيانا وفي الريف أحيانا. كانت المدن توجد في كل مكان، على طول الساحل وفي داخل البلاد. على طول الساحل لدينا هيبوريجيوس (عنابة) وروسيكاد (سكيكدة) وشولو (القل) وايجيلجيلي (جيجل) وصلداى (بجاية) وايومنيوم (تيغزرت) وروسوكورو (دلس) وروسغونيا (البرج البحرى) وايكوزيوم (الجزائر) وتيبازا وقيصرية (شرشال) وكارتينالمن (تنس) وبورتوس ماغنوس (بتوية)، وفي السهول العليا الرطبة توجد مادوروس (مداوروش) وتبورسوكو نوميداروم (خميسة) وكويكول (جميلة) وسيتيفي (سطيف). وهناك مدن أخرى توجد على طول طرق التسلل تيفاست (تبسة) وماسكولا (خنشلة) وتاموقادى (تيمقاد) ولاميزيس (لامبيز).



الديكومانوس والقوس المسمى تراجان (تيمقاد) أسست المدينة في عهد تراجان (58 ـ 117).



المســرح (جميلة)



الإمبراطور أوغسطس



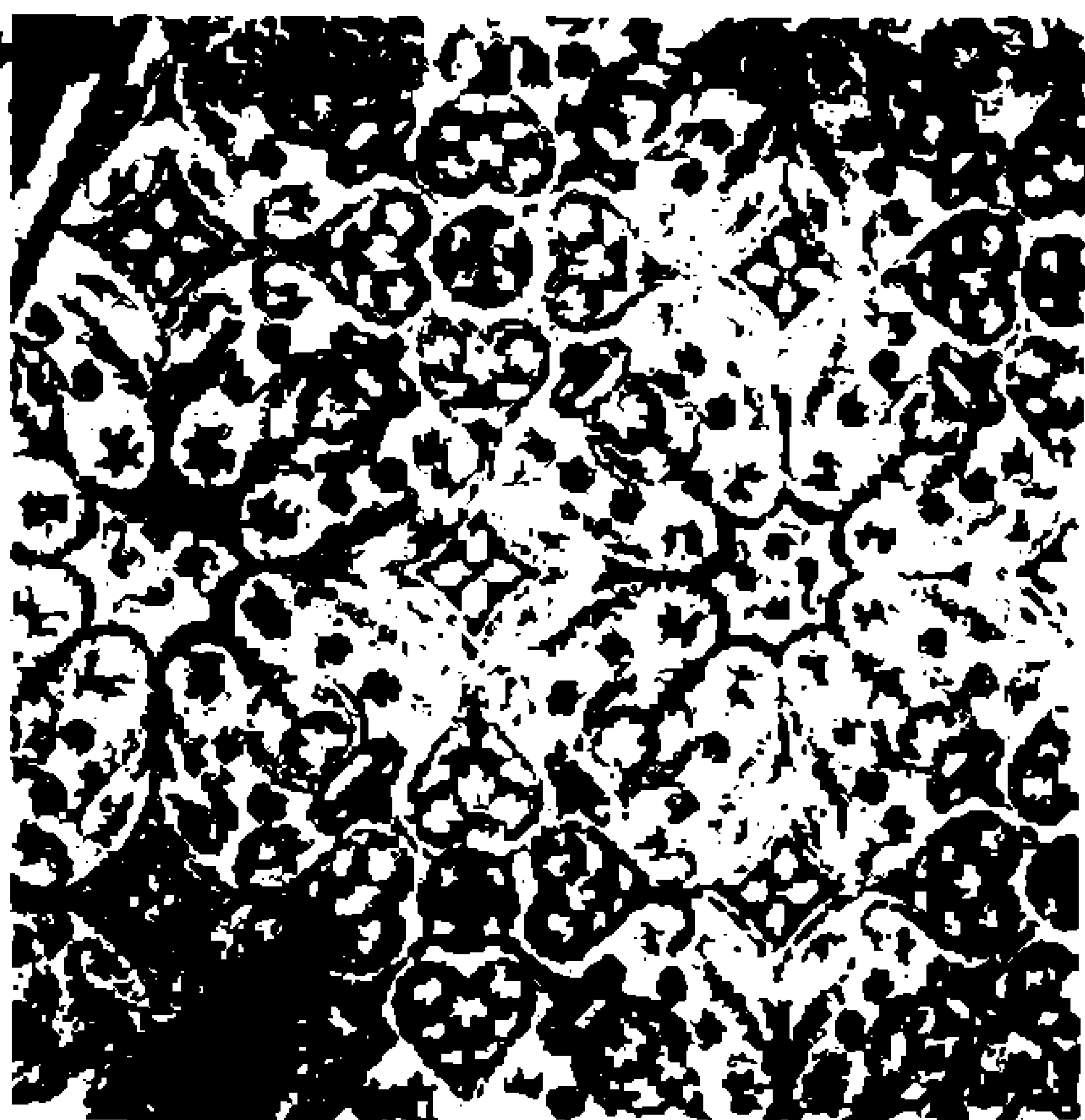
تيمقـــاد (منظر عــــام)



سوق سيرتيوس



عضــو بلــدي (ســوق اهراس



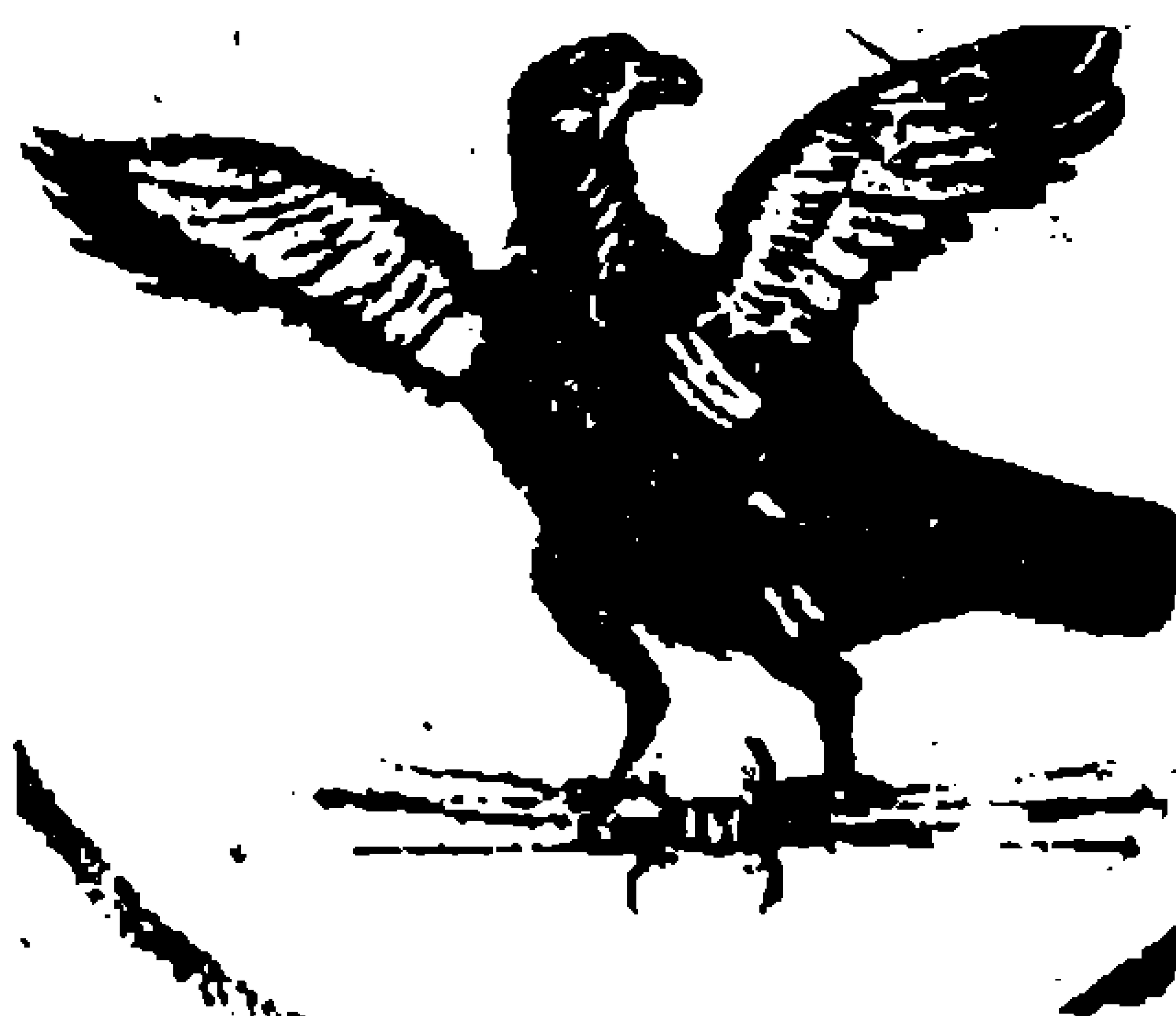
فسيفساء تيمقاد



فسيفساء تيمقاد



فسيفساء جميلة



النسر. فسيفساء سيدي مسيد (قسنطينة)

أنشىء العديد من المدن على مواقع حواضر قديمة، وهذه وضعية عنابة. فقد كان هناك مركز تجاري فينيقي ابتداء من القرن الثاني عشر قبل الميلاد، بعد أربعة قرون ربطت هيبون مصيرها بمصير قرطاجة وكان ذلك عملا تجاريا، وبعد 201 قبل الميلاد اختيرت مقرا للإقامة من طرف الملكين النوميديين سيفاقص وماسينيسا، فكانت هيبو الملكية. وأوضحت رومانية بعد انتصار قيصر، في 46 قبل الميلاد، وكان سالوست أول حاكمها. لقد عرفت المدينة حينذاك ازدهارا سريعا، بلدية بسيطة أولا في عهد أوغسطس، ثم مستعمرة في عهد آل انطونين، فأصبح بربرها مواطنين رومانيين. كانت الرومنة تكسب الأرضية. كانت المدينة تغطي حينذاك 60 هكتارا، وتجمع عددا كبيرا من الدومينات والمزارع المشهورة بكرومها وحبوبها، كما كانت مؤمّنة المواصلات بثماني طرق. حتى الآن يمكننا أن ننبهر أيضا من قناتها وفسيفساءاتها، من حماماتها الحارة ومن مسرحها.

وربما كانت تيبازا أقدم، فقد وجدت محطات بتيبازا تعود الى الباليوليتي الأعلى، وتشير المقبرة الجنائزية الموجودة في مخرج المدينة نحو شرشال مع أثاث يعود تاريخه الى القرون الرابع والثالث والثاني قبل الميلاد، الى أن المركز التجاري كان أكثر أهمية، فقد كان في أول الأمر، حاضرة خاضعة لقرطاجة، ثم ضمت الى مملكتي سيفاقص وماسينيسا، وأخيرا ضمّت الى المملكة الموريطانية، ويعود تاريخ ضريح الملوك الموريطانيين المشهور أكثر باسم القبر الملكي لموريطانيا الى هذا العصر في 46 وافق الإمبراطور كلود لتيبازا على نظام بلدي مع امتياز الحق اللاتيني لسكانها. بين 145 و 150 أضحت تيبازا Colonia Allia Tipasensis, وكانت المدينة في حالة توسع.

المدن العسكرية معروفة بشكل جيد. فتيمقاد، مستعمرة الجنود المسرحين، خططت بشكل واضح ومنتظم : تصميم هندسي منسجم جدا بطريق متعامد بعضها على بعض، وموقع معين لكل بناء. لكن الضواحي أكثر مرونة. في لامبيز حيث المعسكر منتظم، فان المدينة المشيدة بجواره مخططها غير منظم. تناقض جميلة، مستعمرة الجنود المسرحين، مع كويكول الأكثر اتساعا والتي اقترنت بسطح الأرض والتي كانت تبدو مدينة نشيطة جدا.

تسمح لنا الآثار الحالية بتحليل المميزات الاساسية للمدينة الرومانية. فهناك أولا الطريقان الكبيرتان، الـ Cardo maximus، المحور شمال - جنوب والـ Decumanus maximus، المحور شرق - غرب مع •يدان أو عدة ميادين بالقرب من تقاطعهما. ثم العديد من المباني؛ المخصصة للإدارة؛ الكوري (مقر المجلس البلدي) حيث يجتمع المجلس البلدي، البازيليك المدني أين يفصل في المنازعات وتناقش المسائل التجارية؛ المخصصة للعبادة، المعابد أين تقيم الآلهة جوبيتير، جونون Junonومينيرف على الخصوص. كانت الحمامات ، بقاعاتها الخاصة بالتعريق واستحماماتها الحارة والباردة تستوجب بناء Frigidarium و Tepidariumو Calldarium. حتى المراحض الجماعية كانت فاخرة، في أغلب الأحيان. لابد من إضافة المسارح والمدرجات والسيرك فيما يتعلق بأوقات الفراغ. هذا المجموع من المباني تعرف به المدينة الرومانية.

عثر فيها على الكثير من أعمال الفن. ففي شرشال مثلا يمكن حتى اليوم الإنبهار من تماثيل يونانية أو نسخ من نماذج يونانية : أبولون، التمثال الجبار لأوغسطس؛ فسيفساءات هيبون، ونبيتون وأمفيتريت Amphitriteعلى إحدى فسيفساءات قسنطينة، ومشاهد دينية وخمرية إلخ.

المدن هي التي حملت بصمة روما بصفة خاصة. فبعض المرومنين من البربر إستولت عليهم الحياة البلدية حول الميدان والمباني وبواسطة الحياة المريحة لسيد القصر في الفيلا الريفية.

صعود البرجوازية الحضرية

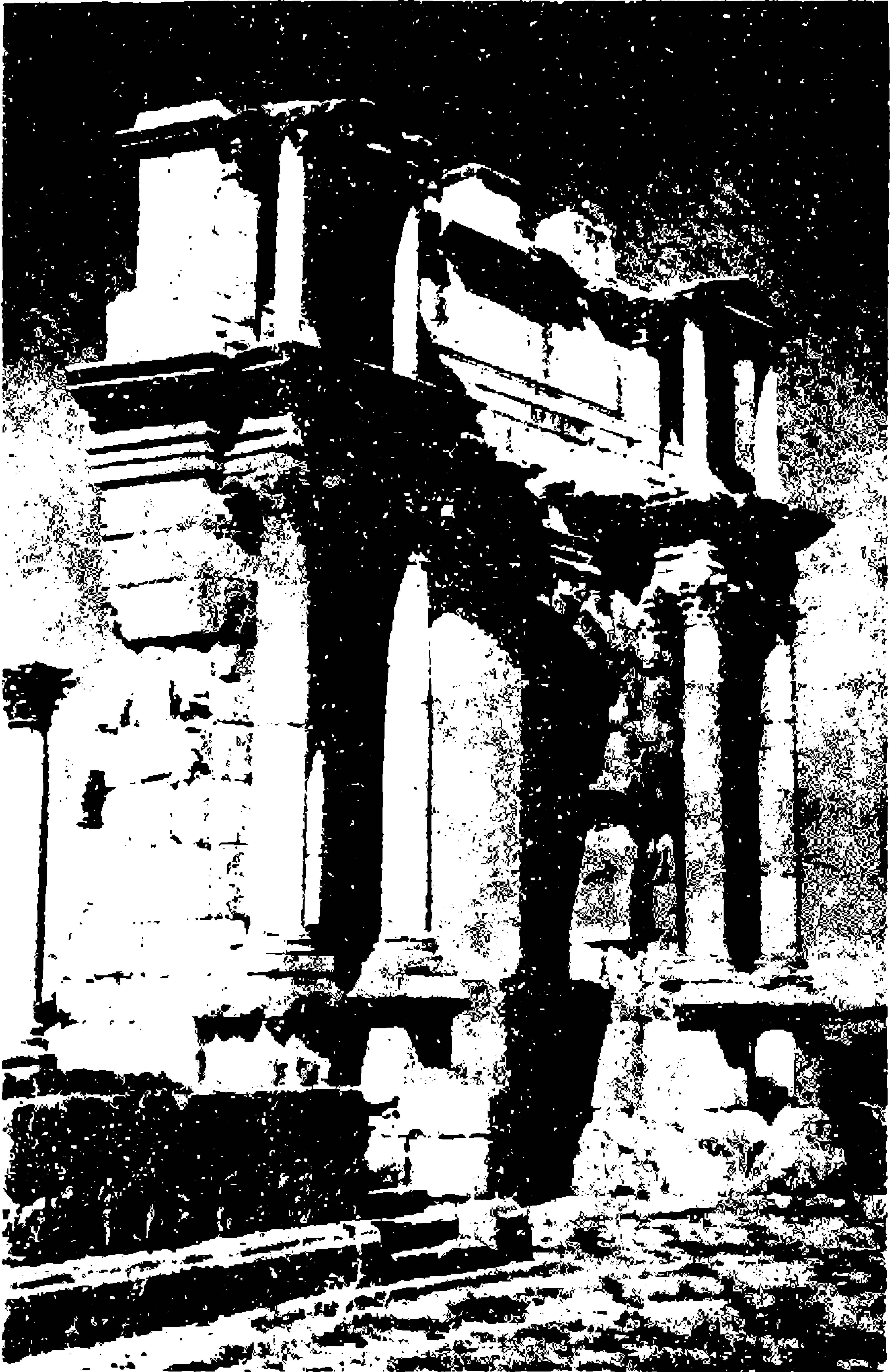
لدينا العديد من الأمثلة عن الرقي الاجتماعي للبرجوازية. إذ تسمح رومنة أسماء البربر بإتباع هذا التحول. يعود هذا الصعود إلى الثقافة (كما كان الحال بالنسبة لأبولي مادور) وإلى الثروة مثل الدخول في الطبقة الفردوسية لأليوس تيمبيموس مادور « صبر في العمل وإقتصاد ويقظة وقناعة، فإنه قد جمع إلى ثروته ثروة لايستهان بها وأدخل سلالته الفقيرة في الطبقة الفردوسية ». لقد تمكن بعض الأفارقة من الدخول إلى مجلس الشيوخ، حتى قبل آل سيفير وفي عهد سيفير وكاراكالا كان 15٪ من أعضاء مجلس الشيوخ أفارقة.

لقد طبعت البرجوازية إفريقيا بنشاطها. يظهر أن أساس ثرائها كان الأرض. ففسيفساء شرشال وفسيفساء قطاف العنب مثلا تكشف عن ذوق حقيقي وروابط أكيدة بين الإستقراطية والأرض. كان الثراء (الذين يبلغون نصابا معيناهم الذين كانوا يدخلون الكوري ويصبحون ولاة) والثقافة يسمحان بممارسة سلطة معينة. إذا كان على القضاة والقساوسة والأعضاء البلديين حين يتقلدون شرفا أن يدفعوا واجبا ماليا، والبعض يقيم نصبا، ففي جميلة مثلا بني السوق من طرف آل كوزيني، وفي تيمقاد سوق آل سيرتيوس؛ يترجم بناء المعابد ونصب أخرى فائضا في الثروات مستثمرا في سياسة البذخ، وعلى الأقل ثروات بعض الطبقات. إن ظاهرة التمدين: ببناءاتها الهامة لتترجم إذن ثروة حقيقية وفي نطاق كبير من العلاقات بين الأرض والمدنية.

هذا الثراء وهذه المدن كانت تترجم رفاهية أقلية من الإستغلال الإقتصادي للبلاد إغتنت، والتي إستفادت من عمل جمهرة البربر الكبرى. لقد كانت ترمز إلى إلى غنى الملاك، حيث الكثير منهم كان لايقطن حتى في إفريقيا.



الميــدان (هيــون)



قوس كاراكالا . (جميلة) نصب مكرس لكاراكالا
الإمبراطور الشعبي بسبب كونه أصيل إفريقيا

شاهدة قبر نوميدي مرومن

النقش : Inscriptions latines de l'Algerie (ttome I, n° 2. 856) Aemil (ius) Cilo, Musavis (fillius), musulamus v (ixit) a (nnis) LXXV.

الترجمة :

قربانا للآلهة مانيس ايميليوس موزافيس الموزولام. عاش 85 سنة.

شاهد قبر بريسيليوس صائغ سيرتا

« أنا الأبكم الآن أروى حياتي في هذه الأشعار، لقد تمتعت خلال مدة طويلة بالأشعة البرّاقة. لقد كنت بريسيليوس، مواطن سيرتا، أين مارست حرفة صياغ. كنت دائما شريفا مخلصا. كان لي نفس الود لجميع الناس، كما شفقت على الجميع. عشت مبتسما عيشة مريحة مع اصدقائي الأعزاء. بعد وفاة السيدة الطاهرة فاليرى، عشت عيشة لذيذة وتقية مع زوجتي. احتفلت بذكرى المولد السعيد مائة مرة بكرامة. لكن يأتي اليوم الذى تغادر فيه الروح الأعضاء المضعفة. شاهدة القبر هذه التي تقرأها حضرتها في حياتي لمماتي المفاجئة في الساعة المختارة من طرف الحظ الذى لم يتخلّ عني أبدا. اتّبعوني كما كنت. انني انتظركم هنا فتعالوا.».

Cité par A. Berthier,LiAlgerie et son passé,pp. 89 – 9

أفارقــة مشهــوريــن

أفارقة آخرون نجحوا في حياة الوظائف العامة نجاحات فعالة أو ساطعة. فابتداء من عهد تيتوس (79 ـ 81) وصل الى القنصلية أحد الأفارقة، باكتيميوس أصيل سيرتا. وفي القرن الثاني كان الموري لوسيوس كيتوس من أحسن ضباط تراجان، ولوليوس من ضواحي سيرتا، كان عاملا لروما؛ كان انتيستيوس أدفانتوس وهو من المدينة الصغيرة تيبيليس (عمونة اليوم، بين قسنطينة وقالمة) قنصلا ومكلفا بقيادات هامة؛ وأصبح اخود، وهو قنصل أيضا، المارك ـ أوريل، فكسب الكثير من النفوذ لدرجة أن يعتقد كومود في ضرورة قتله، باعتباره مشكوكا في طموحه الى الامبراطورية؛ قاد

افريقي آخر هو توليوس جيش اسبانيا. كان الكثير من الفرسان ذوي الأصل الافريقي ضباطا وولاة في المصالح المختلفة للإدارة الإمبراطورية؛ أدرك العديد منهم الظائف العليا ذات المرتبة الخيالية.

تحقق الغزو الأسمى في 193، حين أصبح أحد الأفارقة، سيبتيم سيفير، أمبراطورا. كان من لبتيس بطرابلس، وكانت عائلته مرتبطة جدا بافريقيا، في حين كان جده خطيبا ذائع الصيت في روما، ابتداء من نهاية القرن الأول، بعد حياة ادارية جميلة وحياة عسكرية؛ وصل سيبتيم سيفير، بفضل حيويته وتأثير فرقه العسكرية، الى سدّة الامبراطورية منتصرا على منافسين كان بينهم أفريقي آخر، هو كلوديوس ألبينوس من سوسة. كانت فترة هامة في تطور المؤسسات الرومانية تلك الثمانية عشرة سنة التي دامها عهده (193 ـ 211) : فقد خفّض من دور مجلس الشيوخ بشكل حاسم، ومن دور أرستقراطية دافعي الضرائب والوراثية عمليا، ووسع في دور الرجال الجدد المنحدرين من الجيش أو الوظائف الادارية. خرجت من زواجه بسورية مملكة منها ثلاثة حكموا بعده : كاراكالا (211 ـ 217) وايلاغابال (218 ـ 222) وسيفير ألكسندر (222 ـ 235). بين كاراكالا وايلاغابال أقحم الحكم القصير (217 ـ 218) لأحد المغتصبين، هو ماركين، الأمبراطور الأول الذي لم اختياره من بين أعضاء مجلس الشيوخ، وجدير بالملاحظة أن ماركين كان افريقيا كذلك وفارسا أصيل شرشال.

E. Albertini, L'AFRIQUE DU NORD FRANÇAISE DANS L'HISTOIRE, Paris - Lyon, 1955, pp. 90 - 92.

إهـــداء إلى الأمبراطـور أوريليـوس أنطونينيـوس

(كـاراكـالا) عثر عليـه في سيغـا(متحـف وهــران)

النقـــش: [Imp (eratoris)] Caesari [Marco A] urel (io) Anto (nin) o pioaug (usto) [L. (ucii) Sept]t(imi) Severi pii [Pert (inacis)A]ug (usti) ar(abi..) a(dia) enici... [fiolio] M V. L...

الترجمـــة :

إلى الأمبراطور قيصر ماركوس أوريلوس أنطونينيوس الورع ، أوغسطس بن ل. سيبتيموس سيفيروس الورع ، بيرتيناكس أوغسطس العربي الاديابيني ... مـول ...

الفصـــل الثاني عشر

الرومنة (تابع) المسيحية الأدب النوميدي الموريطاني

في نطاق كون المسيحية قد إرتبطت بالإحتلال الروماني وكون الكنيسة الرسمية قد إنتهت إلى البحث عن حماية الأمبراطورية، يمكن إعتبار الرومنة والمسيحية قد إنتهتا إلى التناظر دون التساوي. لم تكونا كذلك دائما : فقد كانت الكنيسة لمدة طويلة مضطهدة، قبل أن تكون معفوة عنها ومحمية من طرف الإمبراطورية. كان لأوائل المسيحيين موقف معادي للأمبراطورية وإرادة حقيقية في الإستقلال الذاتي يعبر عنها التنظيم الكهنوتي. ولقد تمكن البربر من الإنخراط في الدين الجديد معبرين عن عداوتهم لروما. يمكن أن تطرح المسألة نفسها بنفس الشكل فيما يخص الأدب النوميدي - الموريطاني : فقد إستوعب بعض البربر الثقافة الرومانية وكتبوا باللغة اللاتينية، لكن هذا الأدب ذا التعبير اللاتيني ألا يعكس روحا إفريقية ؟

المسيحيـــــة

إن إحتلال أورشليم من طرف تيتون (70 بعد الميلاد) قد دفع العديد من اليهود إلى الإنتشار في العالم المتوسطي. فنشرت الطوائف اليهودية فكرة دين توحيدي في إفريقيا، والعديد من أفرادها هم الذين إستقبلوا المبشرين بالمسيحية. إنتشر الدين الجديد في المدن على الخصوص. تواجدت كنائس في نوميديا وموريطانيا إبتداء من القرن الثاني. كانت الكنيسة الإفريقية تضمّ حينذاك مائة سقف. لم تكن المسيحية الدين الرسمي، فقد كانت مضطهدة من طرف روما. وتبناها العديد من البربر أيضا، معبرين بذلك

مواجهة روما حينذاك

في حوالي 248 إنتخب القديس سيرياس Saint Cyprien أسقفا لقرطاجة؛ إنه هو الذي نظم الكنيسة الإفريقية. فأشغال المجمع الديني في 256 ، الذي شارك فيه 87 أسقفا إفريقيا، تسمح بتأكيد تقدم المسيحية. كانت سيرتا وميلوف وكويكول وتيفاست و باغاي وتاموقادي ولاميزيس وبادياس المقرات الرئيسية لأسقفيات نوميديا. وفي الغرب كانت هناك أسقفية سيتيفيس وأسقفيات أوزيا وتيبازا وقيصرية. تميز توسع الكنيسة بأهمية البناءات الدينية كذلك. والأكثر لفتا للإنتباه هي كنائس تيفاست وهيبو وتيمقاد وتيبازا. ونشير كذلك إلى وجود العديد من البناءات المنعزلة في الضيعات وحصون الليمس والكنائس الدوناتية المتزايدة في الأرياف الأكثر بعدا. كان تيرتوليان Tertullien يؤكد أن المسيحيين يشكلون أغلبية بالمدن في بداية القرن الثالث : يخبرنا مؤلفهم أن المسيحية في الأرياف كانت أكثر أهمية كذلك. لهذا لم تحل مسألة الدين الجديد وأنه لمن الصعب أيضا تقدير عدد البربر المسيحيين والأكثر من ذلك نوعية هذه المسيحية المنهكة بالإضطهادات والإنقسامات وإستمرار العادات الوثنية.

لقد عاشت كنيسة إفريقيا كثيرا من إضطهادات كومود (80) وإضطهادات ديسيوس (250) بالخصوص. لقد أضحى عدد المتمردين Lapsi أكبر من إعتبار الإرتداد يجر إلى توبة دائمة. وقد وافق كذلك شهداء، رغم إرادة الأسقف، على أذنات لإدماج المرتدين من جديد في حظيرة الكنيسة. هاجم فاليريان قمة التنظيم وفي 258 أعدم القديس سيبريان. كان أعنف إضطهاد هو إضطهاد ديوكليتيان، فقد أراد هذا الأخير تقوية الوطنية بالعودة إلى الديانات الوطنية وإلغاء الديانات غير المثولة ومنها المسيحية. وفرض عبادة الألوهية على الجيش، حينئذ أصبحت الكنيسة معادية للعسكرية. ففي تيفاست أجاب أحد المجندين : « لايمكنني أن أخدم الجيش، لاأستطيع أن أفعل الشر فأنا مسيحي. لايمكنني أن أخدم الجيش. إقطعوا رأسي إني جندي الله .... لاأستطيع أن أكون جندي الدنيا فقد قلت لكم ذلك، إنني مسيحي ». وقطعت رأسه. أمرديوكليتيان (284 ـ 305)

بإتلاف الكتب المقدسة، وسلّم العديد من الأساقفة الكتابات إلى السلطة، مفضوحين هكذا بإسم « مسلّم ». لقد إنقسمت الكنيسة، ستكرس الدوناتية هذا الإنقسام.

الأدب النوميــدي ـ المـوريطانــي

كان للأدب النوميدي منذ القرن الثاني والموريطاني منذ القرن الثالث، ككل الأدب زيادة على ذلك، تقاليده وفنه الخاص به. أثبت الأفارقة أنهم طلبة جيدون. فبعد أن يتابع طلبتنا دروسهم، وكانت هناك مدارس جيدة للقواعد في المدن الإفريقية، كانوا يتجهون للبحث عن تعليم عال في الحواضر الكبرى في حوالي سن السابعة عشرة والثامنة عشرة. كما كان الموريتزودون بالثقافة الهلنستية في قيصرية، وعرفت مدارس سيرتا وتيفاست ومادور زمن شهرتهم. لقد كان شباب موريطانيا ونوميديا المثقفون يسرعون لإتمام دراستهم بمدارس قرطاجة أو بالأحرى يسرعون ليتعلموا على يد المعلمين الأفارقة : فرونتون، وأبولي وأرنوب ولاكتانس وتيرتوليان وسيبريان وأوغسطس.

لقد استوعب المؤلفون الأفارقة الثقافة الكلاسيكية كثيرا، ولكنهم لم يأخذوا إلا ماكان يتلاءم مع مزاجهم. خطباء كلهم تقريبا، لكنهم كانوا خطباء إفريقيا المحافظين على ذكرى لغة البلاد « تحية غير واعية للأسلاف البربر ». الشيء الذي كان يميز الكاتب الإفريقي عن الكاتب الروماني هو أن الكاتب الإفريقي يرث مزايا وعيوب الأجناس الإفريقية القديمة : الخيال الخصب والحساسية المؤثرة وروح المبشر والباحث عن الإقناع والهدى. والكل يترجم في أسلوب تأخذ فيه الصورة والغلو والمبالغة مكانة كبيرة. أما الروابط بين المؤلف والبلاد فصريحة.

المؤلفــون الوثنيــــون

قائمة المؤلفين الوثنيين الأفارقة كبيرة. الشاعر مانيليوس مؤلف Astronomiques, وهي نوع من الأبحاث في التنجيم شعرا، الخطباء كورنوتوس من ليبتيس، وفلوروس الكاتب الإفريقي الأول الذى لازلنا نملك له مؤلفات لاتينية نثرا، وفرونتون الفصيح الذي يعتبر كسيسيرون آخر، وأبولينير قرطاجة

النحوي العلامة الموهوب، وأبولي الذي أدركت افريقيا معه عبقريته الأدبية. اثنان من بين هذه الأسماء الكبيرة كانا أصيلي نوميديا : فرونتون سيرتا وأبولي مادور.

فرونتـــون FRONTON

فرونتون « الخطيب والقنصل والمعلم لأمبراطورين » كان في وقته في المرتبة الأولى بين الكتاب. ولد في سيرتا، في بداية عهد تراجان، ودرس في نوميديا ثم تابع دروسه في قرطاجة وفي روما بعد ذلك. نجح نجاحا باهرا ودخل مجلس الشيوخ وهو صغير جدا، وكان عشير ثلاثة أباطرة، أدهش المدنيين والسياسيين بفصاحة خطبة وبمرافعاته. ولم يبق من خطبه الاّ بعض المقاطع؛ حيث الكثير من مؤلفاته المحفوظة غير كامل. في عمله، الذي يعود كلية الى الفصاحة، فإنه لم يوجد الاّ بالخطابة وللخطابة. فظل خطيبا أفريقيا حتى نهاية، وكتب يوما الى الإمبراطورة : « انني باربار ... وانني ليبي ومن دين الليبيين البدو ». قال عنه مونصو : « مرة أخرة، كان يبتهل بأبهة الى الآلهة الأهلية، لهامون والآلهة الليبية، ونعلم من مينوسيوس فيليكس بأن حديثه ضد المسيحيين كان له دوي قوي في قدم الأطلس. في طبعه سمات افريقية : مغالاته المفرطة؛ كثرة تعلقه المسرحي بمارك - أوريل الذي صرح أنه يقبله حتى في الحلم؛ عادته في تفخيم حمايته، والمباهاة جهرا بعقائده الدينية؛ طلاقة لسانه المستفيضة حين يتكلم عن نفسه، وصراحته الفظة التي لا تعفي حتى الأباطرة. هذا الطبع الإفريقي يكتشف في اللغة أيضا : مزيج من الكلمات الهلنستية القديمة، ومن الكلمات الشعبية، وتلك هي اللاتينية التي كان ينطق بها منذ مدة قديمة في نوميديا كما هو الشأن في قرطاجة.».

أبولـــي مـــادور APULEE DE MADAURE

ربما هو أكبر كاتب لافريقيا، ومؤلف بلاد مولده الأثير، فقد رسم أبولي طريق الأدب الإفريقي. كان أبولي فخورا بأصوله، وفخورا بمادور، أين رأى النور حوالي 125.

مثل الكثير من المؤلفين، فبعد ان درس في مادور وفي قرطاجة اكمل دراسته برحلة في اليونان الى أثينا أين قال : « لقد شربت كل الأقداح ». لكم كان تعطشه الى المعرفة كبيرا. رحل الى الإسكندرية كذلك لكنّه توقف في أويا OEa(طرابلس) أين استقبل من طرف عائلته أحد أصدقاء الدراسة، بونتيانوس. وانتهى بالزواج من والدة هذا الأخير، الأرملة بودونتيلا. ولما كانت غنية فإن أعداء أبولي قد اتهموه بالالتجاء الى السحر للاستيلاء على قلب الأرملة. فدافع عن نفسه في هذاالشأن بمرافعة ماهرة Apologie (التبرير). مستقرا بعد ذلك في قرطاجة؛ فقد مارس وبنفع مهنة محامي وطبيب وفيلسوف وعالم وخطيب وشاعر رومانسي.. . من جهة أخرى، كان يتباهى بكفاءاته : « انني أنظم أشعارا من كل نوع وأبياتا مصحوبة بالقيثارة مع القوس، وبالرباب مع الأصابع، وأبياتا تطابق السحاقة أو الكوثرن. هذا قليل : هيجاء، وألغاز، وقصص مختلفة، وخطب مفخمة من طرف الرجال الفصحاء، ومحاورات ممدوحة من طرف الفلاسفة؛ انني أكتب عن كل شيء وذلك باليونانية وباللاتينية، ودائما بنفس الرضى عن الذات، وبنفس الحماسة وبنفس النجاح.».

ضاع الجزء الأكبر من أعماله، وبقي لنا الإستحالات-Métamorpho ses,ومجموعة النباتات Florides والتبرير، وبعض مقالات الفلسفة البحتة. ترك كعالم كتابا في علم الحساب وآخر في الفلك، ومؤلفات حول الفلاحة، وكتابا ضخما مسائل طبيعية Questions Naturelles حول الأسماك، وأبحاث طبية Recherches médicalesلازال لدينا كتابه حول اله سقراط Le Dieu de Socrate, وكتابه عقيدة افلاطون Doctrine de Platon, ودراسة العالم Taraité du Monde. لكن شهرته تعود الى فصاحته. فروايته الاستحالات المكناة حمار الذهب أثارت الإعجاب الحماسي لقرائه. إنها نوع من الرواية ذات التدرجات في حلقات عديدة جدا ومتنوعة جدا حيث الإطار توفره مغامرات رجل استحال حمارا. إنها مجموعة من الخرافات المؤرخة التي كانت شعبية جدا في القديم. يقدم لنا أبولي مجموعة من الحكايات الخلابة جدا بعضها منحوت بدقة. اينما حلّ عيره يلاحظ أبولي المظهر الطبيعي والمجتمع يقدم لنا ألف مخطط لعادات عصره. لقد شخص أبولي العبقرية الأدبية لبلاد مولده.

المؤلفـــون المسيحيـــون

لاكتـــانس LACTANCE

مهما إنقاد لاكتانس بحياته المهنية بعيدا عن بلاد مولده، فإنه يظل إفريقيا بمولده وبتربيته وبعض سمات عمله. يفيدنا نقش بأن عائلة كاتبنا قد كانت أصلية سيرتا. سيولد في حوالي 250. كان عليه أن يعلّم في إفريقيا قبل أن يشتغل في نيكوميدي. وأقام كذلك في بلاد الغال.

عمل لاكتانس عمل معتبر ومتنوع، فلنذكر كتبه : الـ Symposim أو الوليمة، الـ Grammatius مؤلف حول النحو أو علم العروض. ضاع العديد من مؤلفاته : مقالات الجغرافيا، والنحو، والفلسفة، لقد حاول أن يحصل حتى على مجد الشعر. في الـ De Mortibus يبدو ولاكتانس مؤرخا، ويقدم معلومات نادرة حول السنوات الأخيرة من القرن الرابع، حول الإضطهادات ودور ديوكليتيان. يشتمل عمله التبريري والفلسفي على الـ Divinae instotutiionnes (الأنظمة الإلهية) في خمسة كتب، والـ Epitome أو ملخص الأنظمة الإلهية؛ كتيبي De opificio Dei و .De ira dei كان لاكتانس يعرض في عمله التبريري مذهبا، مذهب درجات المعرفة. التقدم نحو الحقيقة عبر مجموعة من المراحل : انكار الشرك، ثم الإنظمام الى الوحدانية والمجاهرة بالمسيحية. كان لاكتانس يثبت أيضا بطلان الشرك، ووحدانية الله وعدم كفاية الفلسفة وضرورة دين وحقيقة المسيحية. يميّز التوفيق بين العقل والإيمان كل عمله.

القديـــس أوبتـــا

أوبتا المولود حوالي 320 هو أصيل ميلوف (ميلة)، وقد كان اسقفها في الثلث الأخير من القرن الرابع. أنه نوميدي، وكان يهتم بكل ما يمس نوميديا و « غطرسته الإفريقية يسخر من الأصل الأجنبي لبارمينياس؛ وهو لا يغفر لمنشقي البلاد ارادتهم في اختيار اسباني أو غالي رئيسا. تبدو هذه الوطنية الإفريقية والمتحيزة بهذا القدر مقتصرة لديه على أبعاد وطنية نوميدية أحيانا ». والقديس أوبتا هو أقدم ممثل للأدب اللادوناتي. فالـ Libri Optati (كتب

اوبتا) ، والمعروفة ايضا تحت العنوانين Dchismate Donatistarum او Contra Parmenianum تشكل العمل الأساسي لأوبتا ضد الدوناتيين. وكان أول من طرح مسألة شرعية الإنشقاق بوضوح. فأوبتا مشهور كمؤرخ كذلك، حيث أجهد نفسه لإعادة بناء تاريخ الإنشقاق مستعملا المؤلفات المتعلقة بالدوناتية بأسلوب علمي : المعطيات التقليدية والشهادات المعاصرة. لقد كان أوبتا مجادلا .كذلك والتاريخ بالنسبة له كان سلاحا ضد الكنيسة المنشقة. في شكل رسالة بارمينيانوس، يقدم لنا أوبتا نوعا من المحاورة بين دوناتي وكاثوليكي ؛ أن مؤلفه، الذي هو شكل من أشكال الحوار المتناقض، هو أقدم كتاب من هذا النوع. مجادلا أثبت براعته في اتقاءالضربات ظالا على الاخلاص والدقة دائما. في مواجهة اتهامات الدوناتيين قدم براهين حسب الأصول. رغم ذلك ترجم الوقائع بطريقته الخاصة حين نفى مسؤولية الدولة في الاضطهادات. فقد وافق على اجراءات الإكراه لإقامة الوحدة من جديد والنضال ضد أهل البدعة. كما وافقت الكنيسة حينذاك على طلب تدخل الامبراطور في الشؤون الدينية.

كان أوبتا المجادل والمدون للوقائع والكاتب الموهوب مشهورا في زمنه. لقد كان نذير ومعلم أوغسطين.

بيتيليانوس قسنطينة PETILIANUS DE CONSTANTINE

بيتيليانوس، الوجه الأقوى للكنيسة الدوناتية، في زمن أوغسطين، كان اسقفا لقسنطينة خلال فترة الصراعات الكبرى بين الكنيستين الإفريقيتين. ولد حوالي 365 وكان في أول الأمر محاميا لامعا، وخطيبا كبيرا، ولهذا السبب قرر دوناتيو المدينة أن يجعلوه أسقفهم حوالي 395. فهاجم من اسقفيته الكاثوليك ثم الكنيسة الرسمية وكل ممثليها في افريقيا. خاض مجادلات مباشرة ضد أسقف هيبون الكبير. كان خطيبا نشيطا، وكاتبا ماهرا، لكنه كان رجل نشاط كذلك. مؤلفاته الرئيسية هي : مقالة نقد ضد الكنيسة الكاثوليكية ورسالة حول الكنيسة الكاثولوكية ومقالة نقد ضد أوغسطين ودراسة إنشقاق الماكسيميانيين ودراسة حول التعميد والعديد من الخطب في ندوة قرطاجة. كان عمله جداليا على الخصوص. فكان بيتيليانوس الخصم الكفء الوحيد

العبقرية هي التي تعوزك؛ لكن قضيتك هي السيئة ».

غودنتيوس تيمقاد GAUDENTIUS DE TIMGAD

ولد غودنتيوس حوالي 355 بتاموقادي أحد الأماكن القوية للدونانية. أنتخب أسقفا في بداية عام 398 ، فاشتهر بصفة خاصة برفضه المثول لأوامر القاضي العسكري دولسيتيوس الذي كلّف من طرف الإمبراطور بتطبيق القوانين المضادة للدوناتيين في نوميديا. فقد إنزوى غود ونتيوس في مدينته وصرح أنه يفضل أن يحرق فيها على أن يسلّم نفسه. ظهر غودونتيوس في حياته كما في عمله مكرسا نفسه لكنيسته بشكل أعمى، فانتصب يوم القمع « لتأكيد إيمانه، الوفي الخالص في ثباته، عنيدا دائما، عنيدا حتى الموت ».

ليست لدينا وثائق لتقييم غودونتيوس الخطيب في ندوة قرطاجة ومقدم المواعظ للأوفياء الذين إنزووا معه في بازيليك تاموغادي : « الحقيقة الحقيقة الدوناتية، واجب مقاومة القمع، شرعية الإنتحار أمام المعذبين والجزاء المحتمل هو الجنة المفتوحة للشهداء ». رسائله إلى دولسينيوس ورسائله إلى أوغسطين معروفة. وبالإضافة إلى القيمة الأدبية فإن لمؤلفاته فائدة تاريخية أكيدة لدراسة الدوناتية ولمعرفة الحياة الإفريقية في تيمقاد.

إيميريتوس سيزاريا EMERITUS DE CAESAREA

كان إيميريتوس خطيبا دوناتيا كبيرا؛ تميز الحماسة والإعتقاد الراسخ والصبر بلاغته. وهو معروف بأعماله ولكنه معروف بشهادات أوغسطين بصفة خاصة. كان في قيصرية، المولود بها حوالي 350 ، أسقفا دوناتيا إبتداء من 385. بعد مجمع باغاي في 384 أعتبر قائدا للحزب الدوناتي في موريطانيا. وكانت سمعته متينة بقدر تحاول معها أوغسطين أن يدخل في علاقة معه وأن يجره إلى محاورة، لكن بدون جدوى. هنالك منه خطب بصفة خاصة؛ الـ Sentencia(الحكمة)، المحررة في 394 لمجمع باغاي، والخطب الملقاة في ندوة قرطاجة والعظات الملقاة بعد هذه الندوة. كان الخطيب يبدو من خلال هذه الأعمال محاميا داهية وغير موجز أبدا في قرطاجة حيث كان

واحدا من المحامين السبعة المفوضين من الحزب الدوناتي صمد لهجومات أوغسطين. واصل وهو المهزوم المبعد النضال محتجا ضد قرار قرطاجة وضد أمر الإتحاد، إلى غاية ندوة قيصرية أين رفض أن يردّ، تطوعا أم لا، على إنتقادات وتهكمات أحد الأوغسطين الظافرين.

القديـــس أوغسطيــن SAINT AUGUSTIN

ولد في 354 بتاغاست (سوق أهراس)، وتوفي في 430، ينتمي أوغسطين إلى « العصر الذهبي لآباء الكنيسة ». وطنه هو إفريقيا بكل ما تمثل من « روابط مادية، وعاطفية وروحية ». كما يعود طبعه العنيف والحماسي إلى إفريقيا. درس في تاغاست، ثم في مادور وقرطاجة. كلا لم يكن طفلا نموذجا وإنما كان ولدا صغيرا مثل الآخرين. عاش عيشة جد حرة وكانت له في الثامنة عشرة من عمره عشيقة. فحطمت أمه المسيحية المحتدمة علاقته هذه أمضى ثلاث سنوات حاسمة بعيدا عن وطنه : في روما وفي ميلان وفي أوستي. لم يعمد أوغسطين إلاّ في سن الثلاثة والثلاثين عاما، ويمثل في الكنيسة النوع المهتدى زيادة على ذلك.

عائدا إلى البلاد، فكرس نفسه لوطنه ومخصصا له ألمع نشاطه. قضى ثلاث سنوات في تاغاست متقاعدا؛ في 1391 إنتخبه شعب هيبون عرافا وفي 395 خلف فاليريوس أسقفا. بعيدا عن الإستقرار في عاصمتها لم يتوقف أوغسطين عن أن يجوب إفريقيا بهدف التنصير ومواجهة حجج خصومه بأدلته خلال الندوات والمجادلات. كان بطلا مسلما به في هذه المباريات فأصبح أوغسطين مشهورا جدا. كان يحكم بالعدل ويقوم بدور القاضي أحيانا. فيتدخل في كل ما يهم شعبه : الإدارة والتحكيم والعمل الخيرى ودون التخلي عن الحياة الداخلية والسامية للعقل. وكان يحتفظ بمهمته لخدمة شعبه، راجعا بدون ملل الى فكرة : « أن الأسقف وجد ليخدم لا ليستعبد، وليكون عند الأقدام لا على الرأس » وأنه لمع الشعب بوجد الأسقف عند أقدام الأسياد.

كان كاتبا وخطيبا من الدرجة الأولى. ثبّت صيغه في زابور أبجادى مع العديد من المقالات التي رفضت المسائل الدوناتية ومسائل بلاج Pelage الذي كان يصر على أن الإنسان يستطيع أن يصنع خلاصه بنفسه دون عون

من النعمة (الالهية). العمل الأدبي لأوغسطين وفير، فهو يملأ أربعة عشر حجما من الـ Patrologie latine لمينيات Mignet . وتنوع هذا الانتاج مدهش، فكل الأنواع الأدبية للعصور القديمة ممثلة؛ وكل الفروع الثقافية مطروقة. هناك مؤلفان بارزان؛ مدينة الله أين يقارن أوغسطين مدن الأرض الزائلة بمدينة الله الخالدة، بمدينة الله الخالدة، والإعترافات، المؤلف المتعلق بالسيرة الذاتية أين يظهر نفسه كما فعل « رجل سلّم نفسه لقواه الخاصة، لخطاياه ».

لا الأريوسية سلمت منه ولا المانوية. فقدم هاجم أوغسطين الديانات الوثنية واليهودية. وكانت الدوناتية بالنسبة لأوغسطين « المحنة العظمى بالنسبة لخدمته الكهنوتية ». أن تحليل موقف أوغسطين لأكثر حساسية من الدوناتية التي كانت تظهر غموضا خطيرا، غموضا يعود الى التشابك المعقد للعناصر السياسية والعناصر الدينية التي وجدت نفسهامورطة في هذا الانشقاق الإفريقي. لقد حاول أوغسطين في أول الأمر أن يقدم حوارا مع زملائه الدوناتيين، محاولا لاتصال بدل القطيعة. ولكن، خشية من بلاغة أوغسطين، تجنب القيادة الدوناتيون الحوار « وحدة الكنيسة، وكاثوليكية الكنيسة هكذا بدت لأوغسطين المسألة الحقيقية المطروحة من تواجد كنائس مختلفة ». رجل النشاط الشجاع وعالم اللاهوت الشامل هو الذي ناظره أوغسطين الى أقصى حد، وكانت تكيفه دزينة سنوات لأن يجعل الكنيسة الكاثوليكية تنتصر. لقد اكتمل ملفه الشيء الذى انجزه مؤرخ جيد استعمل فيه علم اللهجات « أنه كان يعالج مسألة من مسائل الحقوق كمحامي روما، ومسألة تأويل كأحد دكاترة الاسكندرية. وكان يبرهن كأحد فلاسفة أثينا، ويعقوب وثيقة أرشيف كالأكثر بحثا من المؤرخين. ويروى نادرة كأحد برجوازيي قرطاجة، ومفخرة دواوين كعامل في ميناء هيبون... ليس هو صاحب الخبار ربما، وليس قادرا على أن يكون فعلا كمحامي، فإن أوغسطين قد حمى كنيسته المهاجمة من الدوناتيين. لقد صاغ مبدأ مريعا « الارهاب » النافع وبرأ قهر الدولة ».

الجندى المسرح تيباسيوس

استجواب الجندى المسرح الذى لم يقبل بخدمة الجيش أبدا والذى استشهد في 298 بيتغافا في ناحية قيصرية.

- الكونت كلوديوس يقول لتيباسيوس : « ماأسمك؟ وماتفعل؟ ».

- اسمي تيباسيوس. انني جندى مسرح. الآن أخدم المصلوب (Christ) في السابق كنت اخدم الدنيا ».

- يجيب تيباسيوس : « أنه ليس سواد الحداد، فلباسي في الحقيقة أبيض. عندما يلبس المسيحيون نسيجا رديئا، فذلك في سبيل الحصول على الغفران، لخطياهم. يقرأ في الكتابة : « سعداء هم الذين يبكون، لأنهم سوف يحصلون على العزاء. »

- الكونت كلوديوس يقول : « دع عنك هذه الحماقات. امتثل لأوامر الأباطرة وعد الى راياتنا الظافرة.».

: يجيب تيباسيوس : « لاأحد يعود الى المعركة، بعد الظفر. أنا هزمت الدنيا؛ أنا مجند بين خدّام المصلوب، انني جندى المصلوب، انني أخدم المصلوب واذا أردت أن تعاقبني بقسوة فللمصلوب سأتعذب ».

: الكونت كلوديوس يقول : « ألا تعلم أن الفارين من الجيش الذين يغادرون الرايات يلقى لهم الى الحيوانات ».

- يجيب تيباسيوس « أنا، لست فارا من الجيش. كما يعلم كل مواطني، فانني قد خدمت دون أن استحق العتاب. لقد استلمت اجازتي المشرفة مع تهاني الامبراطور ماكسيميان».

: الكونت كلوديوس يقول : « كنت قد سرحت بقوانين الإمبراطور؛ لكن الامبراطور يستطيع أن يغير ما كان قد أمر به. قلت أنه هو الذى وافق على اجازتك المشرفة؛ انه هو نفسه يأمرك الآن بواسطة قرار من الوحي الالهي بالعودة الى الخدمة مع كل الجنود المسرحين.».

: يجيب تيباسيوس : « أنا جندى المصلوب. لاأستطيع أن أخدم تحت أوامرك »

: الكونت كلوديوس يجيب : « ضحّ للآلهة ».

: يجيب تياسيوس : « أنا أقدم تضحية المجد للمصلوب؛ مجده دائما في فمي أما بالنسبة لأوثانكم الخشبية فانني لن أعبدها ».

: كلوديوس يقول : « انني لا أدرى أى قرار ميؤوس منه اقتنعت به للاستخفاف بأوامر أمبراطوريينا، افعل ما أمرك به الأوغسطيون أباطرتنا: عد الى الخدمة والا فإن عبرة موتك ستعلم الفارين من الجندية ما يخشونه.».

: يجيب تياسيوس : « لقد قلت لك بعد، انني جندى المصلوب. انني لا أستطيع أن أعود الى حياة الدنيا ».

يقول الكونت كلوديوس : « ماجدوى الأقوال؟ ليوضع له النطاق، ولتعط له الأسلحة.».

Pau. Monceaux, la craie légende dorée dorée, Paris, 1928, pp. 263 – 265.

وطـن أبـولـي

أما بشأن وطني فانكم قد تذكرتم، حسب كتاباتي الخاصة، أنه كان يوجد على حدود نوميديا وبلاد الجيتول نفسها. لقد صرحت بالفعل، في ندوة عامة بحضور اوليانوس أفيتوس، انني كنت نصف نوميدى ونصف جيتولي. ولكنني لا أرى أن هناك شيئا آخر بالنسبة لي أكثر خزيا مما هو عليه كوروس القديم لكونه من دم مختلط نصف ميدى ونصف فارسي. اذ يجب الى مكان مولد الفرد بل يجب النظر الى طبع؛ لا في أى بلاد لكن ما يجب اعتباره هو على أية أسس يرتكز وجوده. من المقبول وبحق أن يتكلم بائع خضر، وبائع خمر عم المزدرع لوضع سعر مرتفع لخضرهما و لخمورهما. فيقال خمر تاسوس وخضر فليونت. فمحاصيل الأرض هذه تكتسب طعما أكثر لذة من خصوبة البلاد، ومن رطوبة المناخ، ومن لطافة الأنسمة؛ ومن النشاط الخيرى للشمس من سخاء التربة. ولكن بالنسبة لروح الانسانية، هذه الأجنبية التي تأتي لتقيم في الجسد كضيف عابر، ماذا تستطيع هذه الشروط أن تضيف اليها أو تزرع فيها شيئا من فضائلها أو عيوبها؟ ألم يشاهد أنه في كل عصر تنتج كل الأجناس عبقريات مختلفة؛ مع أن البعض منها تبدو متميزة أكثر بالغباوة أو الذكاء؟ أنه لعند السيت، القوم السمان، ولد الحكيم أنا رشارسيس؛ لدى الأثنين النبهين ولد ميليتبديس الأبله.

حول مواهب الجنس البربري وفضائله النبيلة

لنذكر بعد ذلك الفضائل التي تعتبر شرفا للرجل والتي أصبحت طبيعة ثانية، تسارعهم الى اكتساب خصال حميدة، نبل الروح الذي يجعلهم في مقدمة الأمم، الأفعال التي استحقوا بها ثناء الكون، بسالة وحيوية الدفاع عن ضيوفهم ومواليهم؛ الوفاء بالوعود والإلتزامات والمعاهدات، الصبر عند الشدة، الحزم في البلاوى الكبرى، لطف المزاج، التسامح أمام أخطاء الغير، العزوف عن الثأر، الطيبة تجاه التعساء، إحترام الشيوخ والأتقياء، التسارع في إغاثة المعوزين، مهارة، ضيافة، إحسان، شهامة، بغض الجور، القيمة الأخلاقية التي كانت تبذل ضد الإمبراطوريات التي كانت تهددهم؛ الإنتصارات المحققة على أمراء الأرض، الإخلاص لله ولدينه؛ تلك هي، بالنسبة للبربر، مجموعة من الخصال المشهورة وهي صفات موروثة عن أسلافهم حيث عرضها كتابة يمكن أن يكون مثلا للأمم اللاحقة.

Iben Khaldoun, Histoire des Berbéres, Paris, 1925, TomeI,pp. 199-200.

هذا لايعني أنني اخجل من وطني ولو مازلنا مدينة سيفاقص. لكن بعد هزيمة هذا الأمير، نقلنا فضل الشعب الروماني الى تحت سيادة ماسينيسا؛ لعد ذلك أنشئت حاضرتنا من جديد من اقامة الجنود المسرحين؛ ونحن الآن مستعمرة مزدهرة. في هذا المستعمرة شغل أبي الصف الأول من الدومفيرة duumvir بعد أن مر على كل التشريفات؛ منذ أن أصبحت انتمي الى المجلس البلدى، فانني أحتفظ بوضعيته في الدولة، دون الحياد عن الطريق، مكرما معتبرا، اتمنى ذلك.

لما كل هذه التفاصيل؟ انها من أجل تسكين غيظك يا ايميليانوس، وبالاحرى للحصول على عفوك، اذا لم أكن قد اخترت موطن دقة التعبير وهذا ربما خطأ؛ فان ذلك من أجل مولد زارتك Zarath.

Apulée, Apologie, Collection Guillaume Budé, 1960, pp. 29 – 30.

الفصل الثالث عشر

نهاية روما

ترومنت نوميديا وموريطانيا بدرجة أقل مما ترومنت المقاطعات الأخرى كالبروقنصلية وبلاد الغال مثلا. اذ لم يبلغ النفوذ الروماني سوى الساحل والسهول، ولم يلمس تقريبا سكان الجبال وسكان الصحراء. لقد شاهدنا البربر أنهم كانوا باقين على وفائهم لملابسهم وأدواتهم وممارساتهم الجنائزية وآلهتهم. كانت القبائل المستنزفة من طرف الموظفين الرومان تنتظر اللحظة المواتية لكي تنتفض. ولما بدأ الصرح الروماني يتحطم أراد حتى البربر المرومنون أن يخلعوا عنهم نير الأجانب. بمعنى كم كانت الرومنة سطحية.

اكتست الأزمة مظاهر عديدة : سياسية بنظام قائم منذ 238 على ارادة وقوة الجيش الذى كان يضع ويخلع الأباطرة؛ اقتصادية بانخفاض العملة وعدم استقرار الأسعار وارتفاعها، والمصادرات التعسفية للمحصول؛ اجتماعية بتفوق ارستقراطية عاطلة مستغلة لعبيدها بل ولصغار ومتوسطي الملاك أيضا.

وهن النظـام الـرومانـي

كان الأباطرة المشغولون بالصراع مع الطامعين الذين كانوا يسعون لخلعهم وبالدفاع عن حدود الامبراطورية المهددة من البرابرة، وبقمع واضطهاد المسيحيين ، لايتمكنون من فرض احترامهم في المقاطعات؛ لم يكن الموظفون يمتثلون ولم يمتثل لهم. فكان البربر يشاهدون الامبراطورية وهي تتصدع. فهذه الفوضى تفسر الى حد ما الهجوم البربرى. لم يكن

المدنيون الايطاليون صالحين، عند التجنيد، الآ للاختلاف وراء أسوار مدنهم؛ والدفع بالمسرحين الى الحكومة لاتمام الخدمة العسكرية. ولما كانوا أقل استعداد لخدمة الجيش فانهم قد أصبحوا غير أكفاء للدفاع عن الإمبراطورة. كان الجيش يتحول نحو التجنيد من العائلات العسكرية البربرية. ولم ينس الجنود والضباط الأفارقة أصلهم؛ خلال انتفاضة فيرموس التحقت فرقتان من الفرق الرومانية بالقائد المنتفض؛ انتفض كذلك جيلدون، قائد كل فرق افريقيا، ضد روما ورفض أن يسلمها القمح الذى كانت في حاجة اليه. وأضحت قبائل الحدود التابعة تهديد المعمرين الإيطاليين.

في الحواضر زاد انحلال النظام البلدى في وهن روما. حيث أصبح ممثلو العائلات البلدية الموعودين بعضوية مجلس الشيوخ مواطني روما؛ فقدوا بالنسبة لحاضرة مولدهم؛ وكانت أراضيهم معفية من الرسوم التي تجبيها البلدية. وسقط ممثلو الطبقات الوسطى في البؤس واللاأمن. فدفعتهم الأوبئة والجفاف الى ربيع أملاكهم الى الأغنياء فأضحوا مزارعين بسطاء ومعمرين وأكارين أو عمالا فلاحين. وكان أعضاء مجلس هم المستفيدين من هذه الأزمة في أغلب الأحيان. وكانت الحواضر تفقد سكانها، فلم يعد الرجال يبحثون عن المناصب الحكومية المكلفة، ولم تعد الجمعيات الشعبية تنعقد. ففقدت الحياة البلدية أهميتها رغم مجهودات الإمبراطور للابقاء على تنظيم يضمن مدخولات الضريبة.

ان الأزمة التي ضربت الملاك الصغار قد أدركت كذلك معمرى الدومينات الخاصة والإمبراطورية. اضحى الاستيطان في عهد الإمبراطور السفلى اجباريا ودائما. وربط المعمرين بالأراضي التي كانوا يستغلونها؛ فلم يتمكنوا من الارتقاء الى وضعية سامية. وفقدوا جزيتهم. اذ أرغموا على ممارسة دين ملاك الدومينيات التي كانوا يعملون بها. وأدمج بعضهم في العبيد المستخدمين في الزراعة. لقد عرف القرن الرابع عدة تمردات فلاحية؛ كان بروليتاريو الأرياف يرفضون دفع الأتاوة، وينهبون ويهاجمون أسيادهم.

هكذا فان ضعف السلطة الإمبراطورة، وانحلال النظام في الجيش، وانحطاط الحياة البلدية، والأزمة الاقتصادية والاجتماعية تفسر بشكل كبير تراجع السيادة الرومانية. لقدساهمت المسيحية نفسها في تفسخ افريقيا الرومانية.

الأزمــة الدينيــة

لم تحصل الإنتخابات الإسقفية على اجماع، في 305 بقسنطينة، وفي 11 بقرطاجة. انتخب سيسيليانوس أسقفا لقرطاجة. فأعلن خصومه، الذين لاموه على منعه المسيحيين من زيارة الضحايا المسجونين، وعلى اقراره لأحد المسلّمين، دونات Donat رئيسا لهم (313). وانضم الى هذا النزاع سبعون أسقفا من نوميديا. لقد لقي الإنشقاق تجاوبا عبر افريقيا. وكان الدوناتيون عديدين وأقوياء جدا في نوميديا؛ كانت باغاى وتاموقادى معقليهم.

كانوا لاينوون انشاء كنيسة منشقة عن باقي الكاثوليك وتوجهوا كذلك الى الامبراطور كونستانتان ليطلبوا منه التحكيم في الخلاف. بعد ادانتهم فقط من طرف مجمعي روما وآرل، ثم من طرف كونستانتان، أنشأوا كنيسة خاصة، معارضة للكاثوليك وللامبراطورية. ودعموا في عهد فالانتان تمرد فيرموس الى درجة أن اطلق عليهم اسم « الفيرميين ». ولكن الواقعة الأهم كانت تحالفهم مع المتمردين، بروليتاربي الأرياف والدواوين (الذين يحومون حول مستودعات الحصيد).

ظهر نشاط الدواوين كمطالبة بعدالة اجتماعية أكبر. فقد تجندوا الى جانب الدهماء الريفيين أكثر مما تجندوا الى جانب دهماء المدن. يقدمهم أوغسطين كجوالين، رجال بدون عمل، ضالين وعائشين على النهب وحتى من قطاع الطرق. أما بالنسبة للديوان الإمبراطورى فانهم كانوا رجالا أحرارا لم يكونوا عبيدا يتمردون. يمكن التأكيد على أن الدواوين كانوا يشكلون في القرن الرابع نوعا من البروليتاريا الفلاحية الحرة. فنحن بعيدون عن قطاع الطرق الموصوفين من طرف أوبتا وأغسطين اللذين وصفا الذوارين بالمعتوهين وبالأفراد الذين لا ايمان ولا قانون لهم. لقد أرهبت افريقيا الغنية والعاقلة من طرف ثوار القرن الرابع المجدد. كان ذلك « محاولة حقيقية لثورة اجتماعية تتوجه نحو تحرير المضطهدين العبيد أو اليد العاملة البطالة ذات الوضع الحر ». فلأمر يتعلق « بظاهرة اقتصادية ذات ردّ فعل البروليتاريا زراعية مذقعة ».

لم تنظم هذه الجمهرة من الدوارين كلها الى الدوناتية. يبدو، كما استنتج بريسون، أن « ثوار سنوات 340 هؤلاء قد كانوا ينادون عفويا في مطالبهم بكنيسة منشقة حيث القيادة كانت ترى بضرورة عدم الجازفة مع الثوار معرضين لأن يسببوا لكنيستها اضطهادات جديدة ». رغم مقاومات القيادة فإن الدوارين قد اتخذوا هم بأنفسهم قرار تقربهم من الدوناتيين. كان هناك انزلاق من ظاهرة اقتصادية الى ظاهرة اجتماعية. فقد كان الدوارون يرون في الإنشقاق الديني دين الفقراء. فكان على الكنيسة الدوناتية أن تخصص مكانا للذين كانوا ينادون بها. وقد قدم الدوارون للدوناتيين المضطهدين دعما لم يكن منتظرا، وعاملوا الاساقفة الكاثوليك معاملة الملاك العقاريين الكبار. لقد احتلوا مكانة هامة في تمردى فيرموس جيلدون، والمسألة تطرح نفسها فيما اذا لم تكن الدوناتية بالنسبة لهم التعبير عن ارادة في استقلال سياسي.

الرفـــض البـربـرى

انقلبت القبائل الخاضعة على الرومان، واقتربت القبائل المستقلة من النواحي المحتلة وشددت على الدوائر التي تحد منطقة الرومان.

في 372 ، حمل القائد البربرى فيرموس لواء التمرد في جبال جرجرة. وينتمي فيرموس بن نوبال الى عائلة مرومنة، وهو وحده بين اخوته الذى كان له اسم روماني. كان فيرموس مسيحيا ودوناتيا بالتأكيد تقريبا. كان قصره بالقرب من الثنية بممر بني عائشة من أين كان بإمكانه مراقبة ممر مهم، هو ممر متيجة الى القبائل أو الى ناحية سور الغزلان. لم يكن فيرموس قادرا على تحمل سلطة كونت افريقيا، فحمل السلاح ضد الرومان. وحلمه هو : أن ينفصل عن روما وأن يقيم لقب أوغسطين لصالحه ربما. وجه نداء الى « البلاد » وتحالف مع الدوناتيين. فأحرز انتصارات ساطعة على رأس عشرين ألف رجل؛ احتل ايكوزيوم، وقيصرية التي أحرقها عن آخرها، وتنس ولكنه فشل أمام تيبازا. هزم الكونت رومانوس قائد جيش افريقيا، وبلغت الإنتفاضة القبائل الشرقية والأوراس. ونودى بفيرموس ملكا.

فيرموس معترفة به بذلك كانت هدنة فقط اذ عادت الحرب فدامت ثلاث سنوات : لم ينهزم فيرموس ولكنه تعرض للخيانة. ففضل الإنتحار على السجن (375). وتواصلت المعركة من طرف أخيه ساماك. وتوفي هذا الأخير، الذى جرح بعد مدة من هزيمة أخيه، نتيجة تعمق جرحه.

أما جيلدون وأخوه فيبدو أنه ظل وثنيا. فقد وقف موقفا معاديا لأخيه وكوفيء من طرف الرومان في 387 عمل كونت افريقيا، سيد المليشباتين وقائدا بهذه الصفة لكل جيوش الإمبراطورية من منطقة طرابلس الى الملوية. ولم يتأخر جليدون في مواجهة السلطة الرومانية. فرفض لثيودوز الفرق التي كان يطلبها منه؛ في 395 انتفض ضد الإمبراطور هونوريوس موقفا أسطول قرطاجة الذى كان ينقل قمح افريقيا الى روما. أراد جيلدون أن يقيم الإستقلال الافريقي هو بدوره، فوجه نداء الى القبائل البربرية والى الدوناتيين. وأرسلت روما 5000 من خيرة جنودها، فدارت المعركة في ايميدرا (حيدرة). هزم جيلدون، وأراد أن يرحل الى القسطنطينية لكنه قبض عليه وزجّ به في السجن أين شنق نفسه. لقدكان القمع رهيبا، فكان على انصار جيلدون والدوناتيين أن ينتقلوا الى الجبال. في هذه القضية خانت الكنيسة المتحالفة مع الإمبراطورية والملكية آمال البربر. كان اخفاق الكنيسة يضاف الى اخفاق السيادة الرومانية. كانت القلاقل تتواصل، فكان النظام الروماني ينهار.

حــرب فيــرمــوس

كان المجزال الكبير، وهو هائج بفعل استبشاره بمآثره وبأشياء مماثلة، يريد أن يجعل من نفسه معكرا للنظام بصفة شخصية، وكان، منشغلا كل وسائله ومتوقفا لذلك طويلا عند. مونيمونتوم ميديانوم، يتمنى أن يتمكن من تسليم الرجل بالالتجاء الى عدة مناورات نابعة من التفكير الناضج. وهو يفحص الوضعية بتأمل وباهتمام عميق، يدرك أن هذا قد عاد الى عند الايزافلانس : يدفع بجيوشه نحو هؤلاء ويهاجمهم على التو. تقدم ملكهم الملقب اغمازن، وهو شخصية مرموقة جدا في أرضيها ومعروفة بثرواتها، بجسارة أمامه وقال : « من أين أنت وماذا جئت تفعل هنا؟ ». فيسلط عليه

ثيودوز نظرة تهديدية ويقول برباطة الجأش : « انني كونت فلانتيانوس، سيد العالم، أرسلت لأسحق قاطع طرق مشؤوم؛ ان لم تسلمه لي في الحال، كما قرر الامبراطور الذى لايقهر، فانك ستهلك كلية، مع الشعب الذى تحكمه ». عند هذه الكلمات انسحب اغمازن تحت طائلة الغضب، والألم، بعد أن قذف الجنرال بشتائم عديدة.

عند أول اليوم التالي تقدمت الجيوش الى المعركة، مهددة، وانتصبت حوالي عشرين ألف بارباري في الخطوط الامامية، في حين كانت فصائل احتياط مخفية خلفهم، بالشكل الذى تطوق به شيئا فشيئا جنودنا الذين كانوا يثبون، بفضل كثرتهم التي لم تكن منتظرة؛ يضاف اليهم الأتباع الايزالانس العديدين، الذين قلنا أنهم وعدونا بالامدادات والتموين. وفي مواجهة الرومان الذين، رغم قلتهم، منحتهم بسالتهم وانتصاراتهم السابقة الجرأة، دعموا ميسرتهم ميمنتهم وشكلوا القفعة بواسطة الأدرع، ودعموا الصدام بثبات ودامت المعركة من طلوع الشمس الى نهاية النهار؛ قبل المساء بقليل شوهد فيرموس ممتطيا حصانا كبيرا، ومرتديا معطفا أرجوانيا واسعا جدا، يحث الجنود بصيحات عالية، اذا كانوا يريدون أن يتحرروا من الأخطار المحدقة بهم عليهم أن يسلموا ثيودوز بانتهاز لحظة مناسبة، ومسميا هذا بالوحشي البارباري مخترع التعذيبات الفظة. دفعت اقواله غير المنتظرة ببعضهم الى الإقتتال بحماس أكبر، ودفعت البعض الآخر الى التخلي عن المعركة؛ ثم حين بدأت الراحة الليلية، كان جزء من الرجال فزعا من الظلمات التي طوقتهم، وعاد الجنرال الى كاستيلوم دووديونس فاستعرض الجنود، وقتل الذين غيّر الخوف من فيرموس وأقواله من رسم معركتهم، مصدرا أحكاما بمعاملات مختلفة، فالبعض كانت ايديهم اليمنى مفروعة والبعض الآخر أحرق حيا. رتب الحراسة بعناية يقظة، وأباد البعض من البرارة الذين كانوا يتجرأون على مهاجمة معسكره خفية، بعد اختفاء القمر، أو سجن الذين كانوا يقتربون منهم بجسارة كبيرة جدا؛ بعد ذلك ابتعد، في مشية حيوية، وهاجم الايزالانس بسبب ولائهم المريب، عبر دروب ضيقة ملتوية لايمكن توقعها، وانزلهم الى حضيض الفقر؛ ثم عاد الى اسيتيفليس مرورا بأوبيدوم موريطانيا القيصرية؛ فقد تبعت من ألم نار كاستور ومارتينيانوس، الشه بكين في نشاطات وجرائم رومانوس.

استؤنف الحرب، بعد ذلك، مع الايزافلانس، ومنذ الصدام الأول تراجع عدد كبير من البرابرة وذبحوا، واستسلم ملكهم اغمازن، الذى تعود الانتصار حتى ذلك الوقت، خائفا من الإرهاب الذى أوحى بها الشر الحاضر، واعتقد أنه، اذا امتنع عن المتاجرة وانقاد للعناد الكبير، لن يبقى له أي أمل في الحياة، فمع قدر من الإحتراس والسرية يمكن الاّ يحدث ذلك فتقدم وحده خارج الصفوف وحين رأى تيود وز ترجّاه أن يحضر اليه مازيس مازيلا - عن طريق هذه الواسطة المرسلة كما طلب الملك، نصح هذا الجنرال المنصلب طبعا بمباحثات سرية بتهديد مواطنيه بحيوية حتى يترك له امكانية عمل ما كان يريده، وبواسطة ازعاج دائم يؤدي بهم الى الخوف والإنهاك بالخسائر المتزايدة، رغم تعاطفهم مع المتمردة طبقا لتلك العقود، وبواسطة معارك متتالية أرهق تيودوز الايزافلانس بالقدر الذي كانوا يسقطون فيه هم أنفسهم كالقطيع، وكان فيرموس يفر خفية، لكن بفراره عبر دروب خفية غير مستعملة ومليئة بالمنعرجات، أمسك ثانية أسيرا من طرف اغمازن في الوقت الذي كان يفكر فيه في هذا الفرار؛ ولأنه كان قد علم من مازيلا بالمساومات السرية؛ اعتبارا منه أنه في أقصى الحالات لن يكون هناك سوى حل واحد، قرر أن يدرس ارادته في الحياة ويمنح نفسه وبارادته الموت : في الوقت الذي كان فيه حراسه الذين أشبعوا أنفسهم خمرا متعمدين ذلك وسبحوا في النشوة، مغمورين بنوم عميق وفي سكون لليل كان هو يقظا بفعل هلع متولد عن الأسرة الذي يعانيه، غادره فراشه بخطوات صامتة زاحفا على اليدين والقدمين، وابتعد قليلا فوجد الحبل الذي كان قد أعدّه للانتحار المتحمل، وثبته في مسمار مغروز في الجدار، ومرّر عنقه فيه وتوفي محدثا أنين الموت.

Ammien-Marcellin (XXIX,45,55) (traduction M. M. Moreau)

الجدليـــة الأوغـــسطينيـــة

تعود الجدلية الاوغسطينية الى مايلي :

1 ـ الذي يعيش خارج الطائفة الكاثوليكية يحرم تلقائيا من نعمة خلاصه الفعالة من طقس الاسرار المقدسة التي يحفظها المسيحي المعزول رغم ذلك.

2 ـ لانقاذه، لابد اذن من تحريره من الانعزال.

3 ـ القضية بالاحرى أصعب من الإنسان الضعيف عموما.

4 ـ لاغاثة الانسان الضعيف وتحريره من الخطيئة، فانه يجدر اذن تحريره من ارهاب الانتقامات موضوع تهديده من اخوته في الدين.

5 ـ لابعاد هؤلاء عن حالة متابعة تهديداتهم، هناك اجراءات مشتركة منصوص عليها من طرف القانون.

6 ـ بقدر ما هي شرعية مقاومة المسيحيين للقوانين الجائرة حتى الاستشهاد بقدر ما هو مطابق للكتاب السهر على القوانين حينما تكون جيدة.

7 ـ « يجب ألاّ يؤخذ بعين الإعتبار الاكراه في ذاته لكن يجب اعتبار ما يهدف اليه الإكراه، أن كان خيرا أم شرا».

8 ـ حسب استعمال هذه الكلمة المستعملة في الإنجيل، « إنه اضطهاد غير عادل ما يلحقه الكفار بكنيسة المصلوب، وهو اضطهاد عادل ما تلحقه كنائس المصلوب بالكفار».

A.Mandouze, Saint Augustin, Paris, 1968 ,pp. 379 – 382

كيفية تقييـــم أوغسطيـــن

في هذا الميدان، يجب القول في الواقع ودون تردد، ان النقد يوضع نوعا من المانوية التلقائية عموما :

ـ فإما أن يكون المؤول « مؤمنا » وكاثوليكيا بتحديد أكثر و (أو)قليل التأثر بالمسائل ذات الطبيعة السياسية (الشيء الذي غالبا ما يكون حال أعضاء الاكليروس بصفة خاصة) : حينئذ فهو على استعداد لتبرئة أوغسطين، في جميع النقاط واتهام الدوناتية منهجيا. وإمّا أن يكون المؤول معاديا

للكاثوليكية، لاسباب دينية أو لأسباب سياسية : محافظا أو « تقدميا » كان فهو حينئذ على استعداد للوقوف الى جانب الدوناتيين وادانة موقف أوغسطين راديكاليا فيما يخصهم (مع احتمال تمييز عدة شخصيات فيه؛ من جهة أخرى، وامتداح « دكتور اليونان »؛ لابدون أثر، لأنه عرف كيف يكون « بروتستانيا » قبل الرسالة، في مواجهة البلاجيين).

يبدولي أن الوقت قد حان ليعيّ النقد هذه الحدود، وإن تبذل الانتقادات الجهد الحاسم لمحاولة الخلاص، أكثر ما يمكن فعله، لـ « تكييف » ها الخاص، فإن ما هو مستلزم قبل كل شيء :

1 ـ لما كا شخصية دينية، فإن أوغسطين يدرس أولا تبعا للمعايير الدينية : فيما يخص هذه النقطة، فإن من يمتنع عن تعاطف منهجي، على الأقل بهدف البحث، فإنه يجعل نفسه مشبوها بتحيز يبعده قبليا عن كل امكانية في الدراسات الأوغسطينية السليمة.

2 ـ لما كان شخصية هامة ولما أدخل في أحداث خطيرة، فهو اذن « معرض للخطر »، فان أوغسطين يجب أن يخضع الى تحليل يأخذ في الحسبان العوامل السياسية، الإجتماعية، الخ : من يرفض ذلك سيكون بكل بساطة متهما رأسا باهمال ما يخص مؤلف مدينة الله De civitate Dei والتمييز الأساسي بين المدينتين و« اختلاط »هما في الدنيا.

3 ـ يتم تدخل عناصر التقييم غيز الدينية، مثل تدخل المعايير الدينية البحتة، تبعا لمعرفة دقيقة أكثر ما يمكن للسياق نفسه الذي عاش فيه أوغسطين، وليس تبعا لايديولوجياتنا الحديثة أبدا مهما كانت.

A.Mandouze. Sagustin. Paris. 1968 .pp. 334 – 335.

الفصل الرابع عشر

الجزائر والوندال

يبدأ تاريخ الوندال قبل وصولهم الى افريقيا بقرون عديدة. فقد وصلت القبائل الوندالية سهول أودير فيستول، تاركة وراءها البلطيق، وأقامت في ناحية الراين الأوسط، ثم عبرت بلاد الغال، وتسللت الى اسبانيا، ثم استولت على الباليار بعد ذلك. وفي 428 لم يكن ملك الوندال الجديد جنسريق قادرا على الاّ يهتم بافريقيا.

اذا لم يكن الوندال بدون شك هم البرابرة الذين وصفوا في أغلب الأحيان، فإنه لن يبقى سوى أنهم كانوا مهتمين قبل كل شيء بقضاياهم وليس بقضايا الأفارقة. وقد عجل الغزو الجرماني في وتيرة تاريخ افريقيا.

غزو الدولــة « النوميديــة »

انتقل الوندال من اسبانيا الى افريقيا في شهر ماى 429 . ويمكن التساؤل لماذا؟ فقد اتهم كونت افريقيا بونيفاس، آخر الجنرالات الرومان، بدعوة الوندال لمعاونته. فقد استدعى بونيفاس الذى اضحى مشهورا بانتصاراته على البربر والذي كان يشك أن له نية انشاء امارة مستقلة في افريقيا، من طرف الإمبراطورية ثانية (427). ورفض الإمتثال. أنه لفي ذلك الوقت طلب عون الوندال. ويؤكد علي سبب آخر أيضا : ثروة افريقيا؛ اذ لم يغادر جنسريق الاندلس الاّ من أجل الأراض الغنية أكثر، أراضي موريطانيا القيصرية، نوميديا وكذلك أ.اضي البروقنصلية. زيادة على ذلك فإن افريقيا كلها كانت أمام ضعف روما تريد أن تسترجع استقلالها. فكان بامكان جنسريق أن يأمل في فتح سهل.

من المؤكد أنه سلك طريقا بريا، فالخريطة المنظمة من طرف كورتواس توضح خطوط السيرة المفترضة والحملات التي أثبتت النصوص مرور الوندال بها. انطلاقا من السواحل الرملية لطنجة بدأت المسيرة الطويلة نحو الشرق. ويصل الوندال ألتافا (أولاد ميمون) في 429 ، ويتواجدون قبالة هيبون في ماي أو في جوان 430 ثم يحتلونها بعد أربعة عشر شهرا من الحصار. فكان على بونيفاس أن يبحر الى ايطاليا مهزوما هزيمة جاسمة. وأضحى جنسريق سيد افريقيا.

لقد سبب وصول الوندال الى افريقيا ذعرا حقيقيا. وحث أوغسطين أساقفته على الاّ يرحلوا. وأن يشاركوا الرعية مصيرها. ان العديد من النصوص تتكلم عن فظاعات الوندال، ففظاعات بوسيديوس كالا ما تستدعي اتهامات خطيرة : فيلات مخربة وكنائس لها كهنة لها ونهب ومجازر وتعذيبات وانتهاكات. ان نقدا جدليا لخطب الاساقفة الكاثوليك ليثير الشك . فعلا كان الغزو فظا لكنه لم يخرب البلاد، فما أن مرّ على الإعصار حتى عاد السكان الى حواضرهم ومساكنهم. ولم يمس جنسريق الفلاحين، مصدر الحرث والضرائب. أنه لضد الكاثوليك والنبلاء كان قاسيا. فصادر أراضيهم وخزائنهم. ونقل الكثير من الكنائس الى العبادة الأريوسية. وكان القمع ضد الكاثوليك قاسيا جدا في عهد خلفاء جنسريق.

في 435 وقعت اتفاقية هيبون، حيث يدخل الوندال في خدمة الإمبراطورية بصفتهم أعضاء في اتحادية فيديرالي، وعليهم أن يدفعوا ضريبة خفيفة، ومنحوا قطعة أرض. كانت دولة الوندال الأولى في نوميديا تحدّ منطقة ستيفيس والبروقنصلية وربما بيزاسين. في 539 احتل قرطاجة. فأحرز على دولة أوسع وأهم، وبواسطة اتفاقية (439) أصبغ سلطته بالشرعية. في كل المناطق المحتلة. فكان جنسريق يرى كل سلطاته معترفا بها من قبل الإمبراطورية. ويجد نفسه على رأس دولة حقيقية فكان يتصرف كملك حقيقي.

التقسيمان بين الوندال والبيزنطيين

هيبوريجيوس
قارطاجو
البروقنصلية
بيزاسين
سيرتا
نوميديا
موريطانيا
سطافة
سيتيفيس
موريطانيا القيصرية



الجدار في أول الصورة. القاعدة والغرفة ذات الأغراض الثقافية.



جدار (جبل الاخضـر).

تشير النصوص، ابتداء من القرن الثالث، الى البربر غير المرونيين بموري Mauri والى الذين كانوا ينتمون الى الحضارة الرومانية بروماني Romani. فاموري اذن هو البربري الذي بقي في اطار الحياة القبلية، الذي ظلّ افريقيا؛ فلا الإزدواجية، ولا حتى التحول استطاع أن يجعل منه رومانيا. واذا كان الكثير من المدن قد غادرها سكانها أو فقدت أهميتها، فإن الحياة الحضرية لم تختف لهذا السبب من الأراضي التي أخليت من طرف الرومان. تشهد على ذلك بعض الأمثلة من البناءات في المدن الآفلة؛ فهناك تحصينات في ألتافا وكنيسة دوناتية في ألاميلياريا (بنيان) وكنيسة في كاستيلوم تانجيتانوم (الأصنام) وترميم لبازيليك روسغونيا (رأس ماتيفو). أما الجدران فهي دليل على عدم اهمال فنّ البناء.

كان على رأس المدن مؤولون يرتبطون بالتقليد الروماني. حيث يذكر نقش مؤرخ 474 بالنسبة لتاناراموزا (البروقية) بريفيكتوس praefectus رئيسا للمدينة والضواحي. ويحمل الرؤساء المحليون أسماء بربرية أكثر فأكثر : ايوغمينا وايدير وماسجيوينوس؛ وكان رعاياهم أقارب بربر في أغلب الأحيان. ومن المؤكد أن المسيحية هي التي حفظت بوفاء أكبر من الفترة الرومانية. حيث حفظت ذكرى هونوروس كاسيرونسيس (بوحنيفية) الدوناتية، وذكرى أساقفة كاستيليوم تانجيتانوم، وموزايافيل وميناء الثلاثة (بين 455 و 533).

نزل الجبليون البربر الى الجبل، ليس لتخريب المدن دائما والفتك بالأرياف، بل لأنهم كانوا غالبا ما يذكرون أهمية وقيمة القمح، وفي سبيل اقامة الروابط بين الأرياف والسهول من جديد. وتقدم لنا اقامة ممالك أهلية معلومات جيدة تقريبا عن هذا الإسترداد البربري.

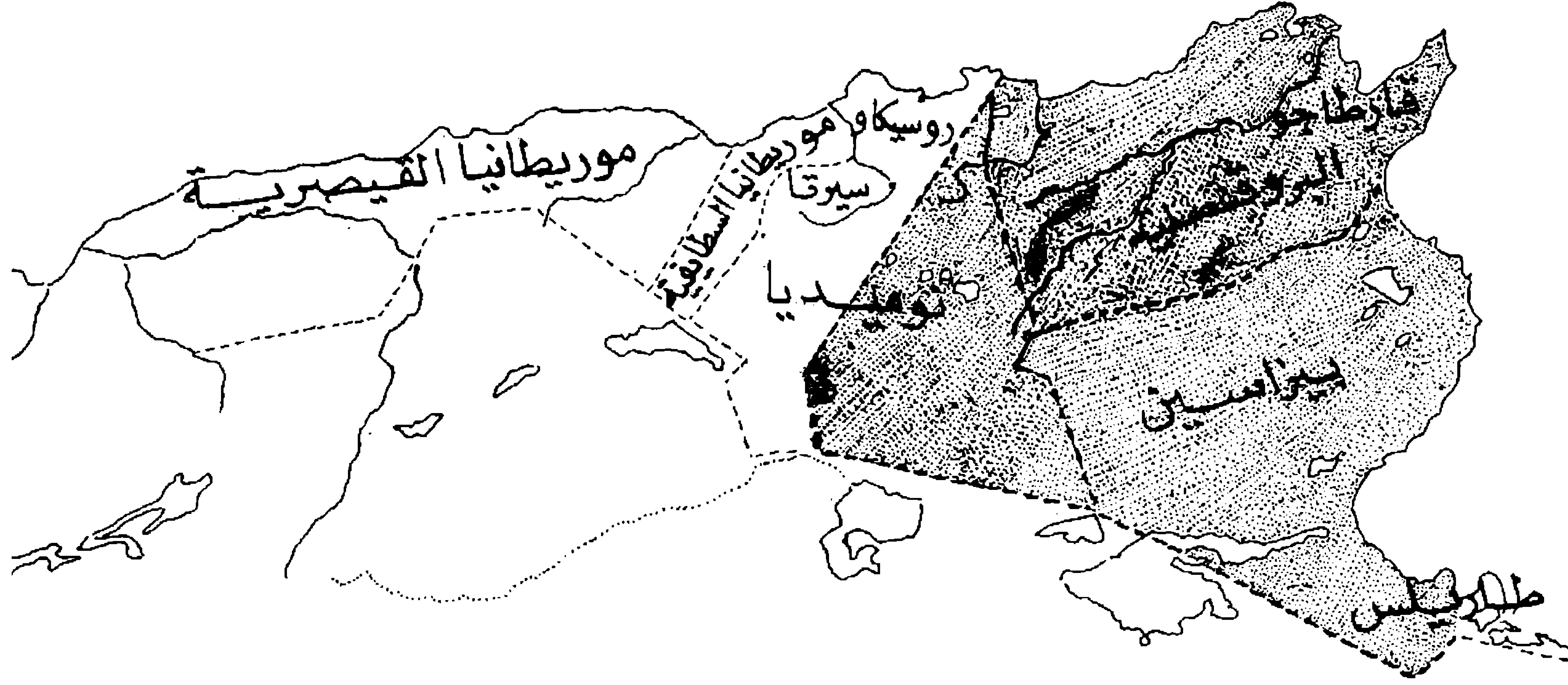
كان قادة هذه الدول يصفون أنفسهم بريكس Rex وحتى بأمبراطور أحيانا. أولى الممالك كانت هي مملكة ناحية وهران، حيث عرفت بفضل نقش ألتافا (أولاد ميمون)، كانت تحت حكم شخص إسمه ماروناا الذي كان يقول عن نفسه ريكس جنتيوم موروروم Rex gentium Maurorum

وروما نوروم .Romanorum بعيدا إلى الشرق كانت هناك مملكة الونشريس التي تمتد الى الشمال على بلاد الشلف وربما الحضنة شرقا. وبهذه المملكة ترتبط الجدران، أضرحة مشيدة على التلال والتي تترك إنطباعا حقيقيا عن العظمة. كما يشير علنا بروكوب فإن البلاد الواقعة بين طنجة وشرشال قد سقطت من جديد في أيدي البربر. ويتكلم ذلك عن تكتل معقود بين ماستيناس الذي كان يسيطر على موريطانيا القيصرية وملك الأوراس أيوداس من أجل الإستيلاء على أراضي عاهل آخر هو اورتاياس. وما هو أكيد هو أنه منذ إختفاء السلطة الرومانية أستؤنف الحوار بين الريف والسهل، وقربت أساليب الحياة بين الجبل ذي الحياة الصعبة دائماوالحضر المعوز. لقد كان البربري يثأر من روما.

علاقات الوندال بالرومان والمور

كان الوندال قليلي العدد، 000 50 محارب في بداية الغزو، 000 80. بعد قرن. في الجزائر لم يشكلوا جماعات ملتحمة ولكنهم إكتفوا بالحفاظ على بعض الحاميات. وإستغلت الدومينات الامبراطورية من طرف المزارعين وأديرت من طرف مسيرين لحساب الملك. أما قسوة الوندال فكانت ضد الاريستقراطية الرومانية والكنيسة. فقد فقد النبلاء أراضيهم والمقدمة التي كانوا يحتلونها في الدولة؛ فكان على البعض منهم أن يستسلم للتحول الى معمر بسيط. وحارب الوندال الكاثوليك سواء كان ذلك حقدا - كان الوندال يمارسون المذاهب الموروثة عن أريوس وكانوا يشهرون العبادة الإلهية باللغة الغوتية - أو إحتراما، لأن الكاثوليك كانوا يقيمون علاقات مشبوهة مع البابا، وإمبراطور القسطنطينية والكنائس الأجنبية. لقد طاردوا العديد من الأساقفة؛ فكان على أسقف بسكرة، أوبتا فيسيرا Optat del Vescera ، أن يذهب الى ايطاليا أين هو مدفون اليوم بجانب ضريح أحد البابوات، في أحد سراديب الأموات بروما. لقد كان القمع قاسيا جدا، في عهد خلفاء جنسريق؛ استدعى هونريق (477 - 484) مجمعا دينيا في قرطاجة (من 406 أساقفة جاء 120 من موريطانيا القيصرية و44 من موريطانيا سيتيفيس) واستغل الفرصة ليعلن عن مرسوم انتقام يطبق على

الكاثوليك الأنظمة الامبراطورية ضد الهراطقة؛ فهلك حوالي 90 أسقفا افريقيا خلال سنتين. وفي تيبازا رفض المؤمنون الإعتراف بالأسقف الأريوسي وفرّوا نحو اسبانيا؛ قطعت ألسنة الذين لم يفعلوا. واستسلم الكثير من الكاثوليك وخضعوا لقبول التعميد الأريوسي.


موريطانيا القيصرية
موريطانيا السطايفية
روسيكا و
سيرتا
نوميديا
قارطاجة البروقنصلية
بيزاسين
طرابلس

عاش المور والوندال في النواحي المحتلة من طرف الوندال منفصلين بعضهم عن بعض. ومع ذلك كما يسجل كورتواس، فإن تعبير البرابرة والوندال كان، على المستوى النظري على الأقل، أفضل مما كان عليه الحال مع الرومان. زيادة على ذلك لم يعرف نظام الملكية تعديلا كبيرا في نوميديا، بعكس ما حدث في زوجيتان Zeugitane . استطاع البربر أن يحتفظوا بأراضيهم، سواء كملاك أوكمعمرين في أغلب الأحيان. وكانت هناك إمكانية إنشاء ممالك، تحت سيادة الوندال، فلم يكن الجبليون يخشون احتلال سهول الحضنة الخصبة، كما أنشئت مملكة من نوع الجبلي في السنوات الأخيرة من القرن الخامس. وهذه المملكة هي التعبير على التمرد على السلطة الوندالية، انها مملكة النهضة البربرية. ولم تكن مملكة الأوراس وحيدة، فقد لوحظ نفس التطور في ناحية جبال تالا المتوسطة، وفي الدورسال، وفي ايدوغ. إن لم تكن هناك نهضة عامة ضد الوندال فعلى الأقل مارس البربر نوعا من احياء التدريجي انطلاقا من المناطق الجبلية. فكورتواس يخبرنا أن أفريقيا المنسية « كانت تجد سبل قوتها الخالدة ». استأنف مازونا، وايبوداس تقاليد ماسينيسا ويوغرطة. إن تشكيل الدول البربرية في القرنين الخامس والسادس « قد كان نوعا من تأكيد الذات، والتعبير عن حيوية لم يصبها الزمن ».

ففي عشية اعادة الغزو البيزنطي، كانت مملكة الوندال مهددة بخطر مزدوج : الكونفيديراليات، وظهور قبائل الجمل الجنوبية. إنه لبين القرنين الأول والرابع تعمم استخدام الجمل في ناحية طرابلس، لكن لاشيء يشير الى أنه استعمل في الجزائر. لقد ترك لنا بروكوب وصفا مفصلا عن المعركة التي اتصل الوندال خلالها بمور يمتطون الجمل. فقد أدرك المور، الذين كان يقودهم كاباون، الوندال خلف معسكر متنقل حيث كان الجدار مشكلا من خط من الجمال، خط متواصل العمق بحوالي دزينة من الدواب. كانت القبيلة بكل ثرواتها محصنة بداخل الدائرة؛ كان على البربر أن يخوضوا معركة حتى الموت : إما النصر أو الموت.

« بعد ما ألحق المور العديد من الهزائم بالوندال احتلوا الموريطانيين الطنجية والقيصرية (ماعدا مدينة شرشال نفسها طبعا) وفي الجزء الأكبر من

الباقي » كما يخبرنا بروكوب. لقد انتهت افريقيا الرومانية، وبدأت افريقيا البربرية.

نقش تذكاري على شرف مازولا (وجد في ألتافا) متحف وهران

أنه شهادة من الشهادات النادرة التي تسمح بتأكيد تواجد مملكة بربرية استطاعت، وهي تابعة للرومان، أن تسود قبل الغزو الوندالي، وأن تتحالف مع البيزنطيين حتى مجيء العرب.

النص: Pro sal (ute) et incol (umiat'ate) reg (is) Masunae gent (ium) : Maur (crum) et Romanor (um) castrum edific (atum) aMasgivini pref (ccto) de Safar, Jidir proc (uratore) castra Severian (a), quem Masuna Algava posuit. Et Maxim (us) proc--) urator) Alt (avae) perfec (it) pr (ovincíae anno).

CCCC LXVIIII.

الترجمة :

لأجل صحة وبقاء مازونا، ملك قبائل المور هذه الحاضرة شيدت من طرف ماسغيفين عامل سافار، وجيدير وكيل كاسترا سيفيريانا، الذي أقامة مازونا في ألتافا. وأنجزها ماكسيموس، وكيل ألتاقا في عام المقاطعة 469 (508 م).

نسخة من القرار الإمبراطوري الآمر بفلاحة كل الأراضي غير المزروعة الخاصة بالحبوب

قرار تنفيذ لوكلاء الأمبراطورية هادريان أوغسطس.

بما أن أمبراطورنا.. يأمر بأن تفلح كل قطع الأرض القادرة على إنتاج الزيتون والكروم أكثر من الحبوب.

لهذا السبب وبتفويض من سلطته :

حول امكانية الشغل.

تمنح القدرة على الشغل للجميع (لابالنسبة للأراضي الغدرانية والطينية لغرسها زيتونا وكروما، تطبيقا لليكس مانسيانا)فحسب، بل وبالسبة كذلك للقطع (المرتبطة) بوحدات المئة المخصصة لايجار سالتوس (X) وسالتوس .(Y) ،غير المزروعة من طرف الذين استأجروها

حول تخويل حق الشغل.

يمنح للذين سيشغلون (هذه الأراضي) هذا الحق في حيازتها، والانتفاع بها ونقلها لورثتهم، الذى تتضمنه كذلك اجراءات قانون هدريان المعنون : « قانون متعلق بالاراضي التي لازالت لم تفلح أو التي ظلت مخصصة للزراعة خلال العشر سنوات الأخيرة متتالية ».

أ) حول التزامات الشاغل لل (سالتوس (X) ».

بالنسبة للسالتوس X سوف لن تفرض سوى أنصبة المنتوجات التي (يسمح بها الإكس) ما (نسيانا).

اذا تعلق الأمر بالقطع (الواقعة في وحدات المئة الخاضعة للإيجارو) التي تركها مزارعوها مهملة، فإن الذي سيشغلها سيدفع الأتاوة التقليدية التي هي النصيب الثالث من محصول (الحبوب).

ب) حول التزامات الشاغل لل « سالتوس .(Y)

فيما يخص النواحي المرتبطة كذلك بالسالتوس (Y) ... التي ستمارس عليها قدرة شغلها سوف تخضع لنفس الأداءات.

حول الإعفاء من الإعفاء من الأتاوات في صالح غارسي « الليغ مانسيانا manciana ».

أ)فيما يخص أشجار الزيتون التي سوف يغرسها كل « شاغل » في الحفر ويطعمها على زيتونيات، فان أي نصيب من الإنتاج المجني لن يفرض خلال العشر سنوات التي تلي (الغرس أو التطعيم).

ب) أما فيما يخص الثمار الأخرى فإن الإعفاء (لن) يكون (الآ) خلال السبع سنوات التالية.

وأى ثمار سوف لن تدخل في مجموع حساب الأنصبة: الآ التي يوجهها الحائزون (الشاغلون لليغ مانسيانا) للبيع.

حول دائن الأنصبة الحنطية واجبة لأداء على « الليغ هادريانا ».

أما ما يخص الأنصبة الحنطية للثمار التي على كل (شاغل) أن يقدمها فإن (هذا الشاغل، حتى انتهاء المدة الرباعية للإيجار التي ستتبع الشغل)، يقدمها الى المزارع ضمن الإيجار الذي سيكون بما فيها الأرض التي سيشغلها. بمرور هذه الفترة الزمنية، فإنه سيقدمها الى إدارة « الأملاك الإمبراطورية ».

Gouvernement General de l'Algérie :Tablettes Albertini. Actes privés de l'epoque vandale (fin du Ve siécle),Paris, 1952, pp. 105 - 106.

الفصل الخامس عشر

الجزائر والبزنطيون

لم يتخل الأباطرة أبدا عن محاولات إعادة غزو المقاطعة المفقودة. فقد حاولت كل من روما والقسطنطينية في جولات عديدة إسقاط نظام الوندال. وانتهت حملة 468 الكبرى بنكبة مأثورة. ونظم كل من ماوجورين أحد أواخر أباطرة الغرب وليون الأول إمبراطور الشرق حملات ضد جنسريق بدون جدوى. إن إغتصاب السلطة من طرف جيليمار، الذي كان يعيب على الملك الوندالي هيلدريق هزائمه أمام البربر، وتسامحه إزاء الكاثوليك، وتحالفه مع الامبراطور، قد وفّر بالنسبة لهذا الأخير فرصة التدخل في إفريقيا. حيث ناشد أنصار الملك المهزوم، والتجار الشرقيون والارستقراطية الكاثولوكية والرومانية الامبراطور البيزنطي لدعم هيلدريق بواسطة السلاح، ووعد بالنجاح تنبؤ أحد أساقفة الشرق القديس ساباس. فقرر جوستينيان نقل الحرب الى إفريقيا.

الى هذا القرار بالذعر في المجلس الامبراطوري. ففضلا عن الأسباب الدينية : وصول عدد كبير من المبعدين الأفارقة والأساقفة المعذبين بشدة لأجل إيمانهم وجدوا مساندة من طرف معارضة في حاشية جوستينيان. أسندت قيادة الحملة الى بيليزير، غادر جيش من 16 000 رجل منقولين بواسطة 500 مركب مرفوق بـ 92 مراقبة بحرية القسطنطينية يوم 22 جوان 533.

إعادة الغزو البيزنطي

هزيمة الوندال

كانت الظروف مناسبة لبليزير : فالجيش الوندالي لم يكن يتجاوز، في مجموعه، 30 الى 40 ألف محارب، ممثلا لسكان مجموعهم 000 200 فردا. ولم يكن للوندال حماسات بدايتهم الحربية؛ يوضح لنا بركوب كم غيرت فيهم الحضارة : « من الأمم التي أعرفها، فان أمة الوندال هي الأكثر تخنثا، فمن يوم أن احتلوا افريقيا تعودوا على الحمام اليومي وزودوا موائدهم من كل ما تعطي الأرض والبحر من ألذ الأشياء، وملأوا أنفسهم بمجوهرات الذهب وملابس الحرير، وجعلوا شهواتهم في المسرح، وميدان الخيل وشهوات أخرى مماثلة والصيد بصفة خاصة : لقد ألقوا بأنفسهم في الرقص وفي التقليد، في الموسيقى والفرجات، وفي كل ما يمكنه أن يبهر العيون والآذان. وكان أغلبهم يقطن فيلات عجيبة محاطة كلية بالأشجار والماء الجاري؛ كانوا يمضون الوقت في الولائم الكبيرة ويصبرون لشهوات الحب ». لم تلعب البحرية الوندالية أي دور، فلم تظهر لا لتغطية سواحل افريقيا ولا لاعاقة لانزال البيزنطي. ففي عشية وصول البيزنطيين كان 000 5 وندالي ومعهم 120 سفينة في حملة على سردينيا وكان الوندال مقسمين على أنفسهم، فالكثير منهم هم الذين انتقلوا الى جانب الإمبراطور. ووقفت الكنيسة الكاثوليكية والارستقراطية الرومانية طبعا الى جانب الإمبراطور. وكان البربر قد واجهوا خلفاء جنسريق : أعلن جبليو الأوراس، وبربر الحضنة والزيبان وقادة موريطانيا استقلالهم. كما لم تكن للمور أية مصلحة في الإنضمام الى الوندال أو الى البيزنطيين.

إن تحالف أوستروغوت Ostrogoth ايطاليا مع البيزنطيين وانتفاضة سردينيا قد أضعفا الوندال. نزل البيزنطيون جنوب هيدروميترم (سوسة)، وعرف بليزير كيف يظهر المحرر المنقذ : جيش منظم ومطيع، والنهب ممنوع؛ فكان السير الى قرطاجة نزهة عسكرية. سهلتها الترتيبات الجيدة التي اتخذهاالاكليروس والكاثوليك وحياد القبائل المور. لقد فتح انتصار ديسيمرم أبواب قرطاجة، بعد ثلاثة أشهر سلّم جيليمار نفسه(مارس 534). وانتهت

الممالك البربرية في القرنين الخامس والساد

هيبو ريجيوس

قارطاجو

هيدروميتوم

مملكة ماسونا

مملكة جدار الونشريس

مملكة الحضنة

مملكة الأوراس

مملكة الدورسال

مملكة النمامشة

مملكة كابسوس

مملكة التافا

حرب الوندال. وخلال ثلاثة أشهر اختفت مملكة جنسريق.

النتائج. المقاومة

هل تمّ احتلال افريقيا فعلا؟ لقد كانت الجزائر بصفة خاصة وبقسمها الأكبر تنجو من اليونانيين. فقد استقر البيزنطيون في البرو قنصلية وفي جزء من بيزاسين. لكن ثلثي نوميديا كانا بين أيدي البربر. في الشمال بين قسنطينة وقرطاجة تشخص مراكز تاغورا (تاورة) ومادور تيبازا (تيفيش) وغاديوفالا (قصر صبيحي) وآد سونتيناريوم وتيجيسيس (عين البرج) المرحلة الأولى من التسلل البيزنطي في الناحية القسنطينية. وظلت الموريطانيات الثلاث : السطايفية والطنجية في حاجة الى اخضاع، ولم يحتل الأسطول البيزنطي سوى بعض الموانيء : ايجيلجيلي (جيجل) وصالداى (بجاية) وقيصرية؛ هذه الموانى ظلت معزولة في بلاد مستقلة.

خلّص بليزير البلاد من الوندال، ونقل الى الشرق نخبة القيادة في الجيش الوندالي، وأضحى الجنود عبيدا، و وزعت النساء والأطفال على المنتصرين كما صودرت أراضيهم وسمح للملاك القدامى بتقييم حقهم. واضطهد الوندال في دينهم أيضا. واختفو شيئا فشيئا دون أن يتركوا أثرا.

استقبل الاكليروس والرومان البيزنطيين بحفاوة، فعاملهم جوستينيان برفق كذلك. واستعادت الكنيسة أملاكها واستفادت من كل الإمتيازات التي منحت للكنائس المتروبولية، فتمكنت من اشباع غلّها ضد مضطهديها : الاريوسيين واليهود والدوناتيين والوثنيين. وتمكن السكان الريمان هم أيضا من المطالبة بأراضيهم التي سلبها منهم الوندال. وماذا كان مصير البربر؟

* كان البربر مضطربين بفعل النجاحات السريعة للبيزنطيين، بدا قادة نوميديا وموريطانيا وكأنهم موافقون على السيادة الإمبراطورية، لكن منذ 534، استعدوا لمحاربة الغزاة الجدد.

ففي الجزائر شكلت القبائل مجموعة كبيرة من الدول هاجمت القبائل الأوراس مدن لامبيز وديانا فيتيرانوروم (عين زانة) وتاموغادي، وباغاى (قصر باغاى)؛ كان الملك أيوداس، الذي تمكن من

جمع 000 30 فارس، أقوى واحد بين قادتهم؛ كان الملك أورتاياس قائد قبائل الحضنة، وحكم ماستيغاس في ناحية قيصرية. وأسس مازونا أمبراطورية واسعة بين ألتافا (أولاد ميمون) وسافر (عين تيموشنت). لقد ترك البربر الخصمين ينهكان بعضهما البعض. فقد وعدهم بليزير بوعود رائعة في مقابل حيادهم ولم يف بالوعود. انتج حصاد سيء مجاعة، فقرر البربر الإنتقال الى العمل. إن تهديد انتفاضة البربر قد كان يقف في وجه مشروع جوستينيان الطموح الى مواصلة طريق روما في افريقيا.وسمح Le De Bello Vandalco بروكوب و Johannis كوريبوس لديهل Diehl بتقديم البربر و وصف أسلحتهم وتكتيكهم العسكري.

هاجم البربر مواقع الحدود والفرق البيزنطية لبيزاسين منذ 534 . ومن هناك انتقلت الإنتفاضة الى نوميديا، فنزل 000 30 رجل من الأوراس مع ايوداس، وكان بليزير قد ترك القيادة لقائد أركانه سليمان Salomon الذي كانت له السلطات المدنية والعسكرية. استطاع هذا الأخير أن ينتصر على البربر في بيزاسين، لكن النضال استمر في نوميديا، فاستقبل ملك الأوراس مهزومي بيزاسين ومنحهم أراضي جهو تيمقاد ولامبيز. وتقدم حتى التل في 535 ؛ قرر سليما اقتحام الأوراس (نهاية 535) من الشرق لكن كلما كان البيزنطيون يتقدمون كان البربر يختفون مكتفين بنصب كمائنهم و تنمية الصعوبات فكان على سليمان أن يتقهقر. وبقيت الحدود مفتوحة أمام البربر، فكان على سليمان أن يبني مجموعة من المواقع المحصنة : حصن تاغورة، وقصر مادور، وحصن تيبازا، وموقع سانتيناريوم والمدينة القوية تيجيس لاغلاق التل في وجه الجبليين.

في 536 لم تكن صعوبات سليمان قد انتهت، اذ كان عليه ان يواجه تمردا للجنود : تحركت فرق كثيرة فكان عليه أن يفرّفي 536 . تواصلت الإضطرابات،وكان على بليزير أن يتدخل بنفسه، فأسند العناية باعادة تنظيم السلطة الى جيرمان شقيق الإمبراطور. وفي 539 رقّي سليمان المرة الثانية الى وظائف الحاكم، فقام بحملة صد الأوراس. ونزح أيوداس الجريح الى موريطانيا، وعثر البيزنطيون على خزائن الملك، واحتلوا موقعين أستراتيجيين؛ أجبروا بربر الحضنة وناحية ستيفيس على الخضوع. وسار سليمان حتى تاكدمت إن كان إبن خلدون صادقا.



مادور. القلعة البيزنطية والمزيتة في أول الصورة.

إعادة تنظيم إفريقيا البزنطية

أراد جوستينيان أن يمنح المقاطعات الإدارة التي عرفتها قديما لمحو ذكرى « عبودية الوندال ». فعلى رأس الحكم عامل، أي شخصية كبيرة تقيم في قرطاجة عاصمة أسقفية خاصة كذلك. كان لعامل الحاكمية صلاحيات سامية : تشريع وادارة وعدل ومالية. وتحت سلطته سبع حكومات، من بينها في الجزائر، حكومات نوميديا وموريطانيا الأولى أو السطايفية وموريطانيا الثانية (القيصرية والطنجية)، كان يقودها رؤساء praesides لهم كل صلاحيات الحكام الرومان القدامى.

أوصى الامبراطور حكامه بإعارة اهتمام خاص للسكان ومعاملتهم « طبقا للتعليمات وفي خشية الله ». ولم تكن هذه النوايا مهملة، فقد كان الإمبراطور يريد أن يرى مقاطعته « مصلّحة ومزدهرة »، حيث كما يريد أن يرى دافعي الضرائب قادرين على أدائها وهي التي كان في حاجة اليها لاصلاح المالية ومواجهة أعباء حرب افريقيا والمؤسسات المستقبلية. وقد احتكر هو لنفسه استغلال دافعي الضرائب.

كانت أداة التواجد البيزنطي هي جيش الاحتلال قبل كل شيء، وزعت فرق الحدود بين مسيرات مختلفة عسكرية، والبعض الآخر منها وزع على البلاد. وقسمت الجزائر من وجهة النظر العسكرية الى دائرتين : نوميديا وموريطانيا على رأسيهما حاكمان عسكريان مقيمان في قسنطينة وقيصرية.

وغطى جوستينيان الحدود العسكرية بالعديد من المنشآت العسكرية. على طول الليمس خط أول من المدن المحصنة مرتبطة بمواقع متتالية مشيدة جيدا، ومزودة بالماء والأحياء، مكلفة بقطع الحدود وحراسة البربر. والى الخلف خط آخر من المراكز الأكثر أهمية مع كبريات المدن والمعاقل القوية لحماية المسالك الأساسية.

كانت حدود نوميديا تبدأ بموقع تيفاست الهام والقوى أين كانت تنفذ من جميع الجهات طرق هامة، ثم تمتد بعد ذلك على طول السفح الشمالي للأوراس أين كانت طرق الغزو عديدة على مجال 200 كلم. وضاعف البيزنطيون مواقعهم كذلك. وكانت المراكز الأساسية فيجيزالا Vegesala (قصر

الكلب) وسيديا Cedia (أم كيف) وماسكولا (خنشلة) وباغاى (قصر باغاى) وتوموقادى (تيمقاد) ولاميزيس (لاميز). كانت توجد أيضا بعض المواقع المتقدمة في الجنوب، مثل مركز بالقرب من طولقة؛ الى الغرب من طريق بسكرة - لاميز في المنفذ الواسع بين شطوط الحضنة والجبال كان ينتصب مركزا توبونا Tubunae (طبنة) اليوم مخرب تماما والى الخلف قليلا لاميريدي Lambiridi (أولاد عريف) ولاماسبا (مروانة)(زرغة) وزيراى (زغاية) وديانا (عين زانة) وزابي جستينيانا Zabi Justiniana (مسيلة) وتامالا Thamalla (رأس الواد) وهي في المجموع 22 موقعا تقريبا.

تيمقاد. مخطط الحصن البيزنطي

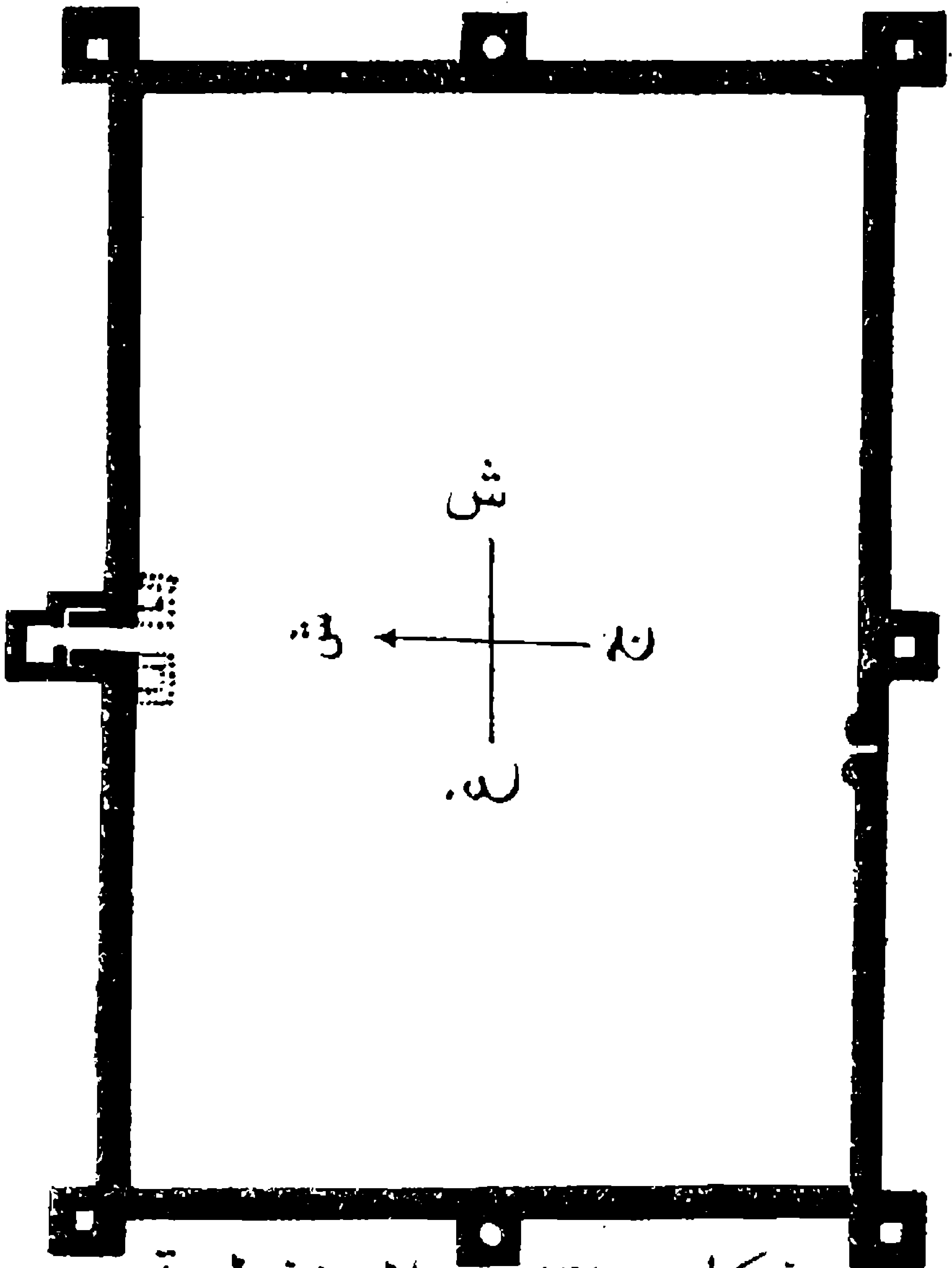
الحضيرة ذات الشكل المستطيل المحصنة في الزوايا الأربعة بواسطة قلاع مربعة، في وسط كل ستارة تنتصب قلعة أخرى مربعة، والجدران غالبا ماتبلغ ارتفاع ستة وسبعة أمتار، يتراوح السمك بين 2ر40 و 2ر70م. وتبلغ أضلاع الزوايا 7م على 6م والدخول من داخل القصر عبر ممرات ضيقة.

Ch. Diehl, L'Afriqui Byzantine, Paris, 1896p.200

في موريطانيا السطايفية تصعد الحدود من زابي جستينيانا لتدرك مجانة ثم وادى بوسالم ويشرف عليها الموقع المنيع لسطيف. توجد بعد ذلك مواقع في كويكول (جميلة) وميلوف (ميلة)؛ على الساحل توجد ايجيلجيلي (جيجل) وشوبا (زيامة) صالداى (بجاية).

أما في موريطانيا القيصرية فلم يحوزوا البيزنطيون الاّ على قيصرية وبعض المواقع. والى هذه المقاطعة نزح بربر الشرق لمواصلة مقاومتهم. وعلى الساحل يبدو أن اليونانيين قد أقاموا في روزيبيزير Rusippisir (عزفون)؛ في روسوكورو (تيغزرت) وفي روسغونيا (رأس ماتيفو) وتيبازا وغونوغو (غورايا).

تيمقاد



شكل القلعة البيزنطية

الحكومة البيزنطية
والسكان البربر

في نوميديا أضحت الكتلة الجبلية للأوراس مركز دولة هامة. فقد تمكن قائدها ايوداس من احتلال السهول الواقعة شرق وغرب الكتلة الجبلية، وكان يدفع الهجومات حتى التل. وكان له نفوذ كبير في جنوب الكتلة الجبلية أين كان السكان الصحراويون حوالي مركز أوفياء له. وأقامت على السفح الشمالي للأوراس قبائل مطاردة من طرف ابيزنطيين. في شمال نوميديا تجمعت قبائل أخرى حول الملك البربرى ايفيسداياس. وفي موريطانيا اقتطع قادة بربر أراضي واسعة؛ قادة أورتاياس في القرن السادس قبائل جنوب موريطانيا السطايفية، وفي الباهورس Bahors ؛ كان يسود ماسيغاس في موريطانيا القيصرية، وفي جنوب التل الوهراني كان مازونا يحكم في القرن السادس تحت لقب ملك « المور والرومان » وربما كان ايوداس أعظمهم فهو عاهل طموح وصاحب شجاعة محسوسة « في مأمن جبالة المنيعة كان يعرف ينهك خصومه بواسطة حرب كمائن طويلة الأمد. يظهر أنه كان صلبا في مقاومته العنيدة؛ فبدلا من أن يتخلى فإنه سيترك نفسه للمطاردة من دولة ».

كان البربر يخوضون حياة خشنة في بلادهم، وقد ترك لنا بروكوب لوحة مؤثرة عنهم رغم بعض المغالاة. أرغمت بعض القبائل على الخضوع، هناك اتفاقية محددة تنظم العلاقات المستقبلية بين الطرفين. حيث يصبح القادة البربر أتباعا وكانوا يستلمون نياشينهم : العصا وتاج والفضة والمعطف الأبيض والنعال المرصعة بزينة الذهب. كان الإمبراطور يلتزم بدفع إعانة مالية لهؤلاء القادة وفي المقابل كان على هؤلاء الأخيرين أداء الخدمة العسكرية. حيث كانت القبائل تقدم وحدات الفرق غير المنتظمة foederati أو gentiles. وكان القادة مكلفين أيضا بالحفاظ على الأمن في قبائلهم. وكان الحاكم العام ودوقات كل مقاطعات يراقبون هؤلاء الأتباع.

كانت الدعاية الدينية وسيلة للسيطرة. حقا فقد سهّل إحترام البربر لديانة المصلوب والاكليروس مهمة اليونانيين. ففي كل يوم كانت الأثودوكسية تحقق غزوا، وفي بداية القرن السابع كانت هناك طوائف مسيحية تعيش في

مدن الساحل، بل وفي مدن الداخل كذلك : لامبديا (لمدية) وأويبدوم نوفوم (عين الدفلة) وبوماريوم (تلمسان) وألتافا (أولاد ميمون) واهتدى ماكوريتا الونشريس الى المسيحية في 569 ؛ وتوجد في الجدران شعارات مسيحية كثيرة. لقد كان النفوذ البيزنطي يتسع تحت ستار الدين.

لكن رغم خضوعهم لم يكن البربر ليتخلوا عن النضال، فأية اتفاقية لم تكن لتفرض سلما دائما. فلاشيء استطاع أن ينسي البربر في الإستقلال، وأقل من ذلك الإتفاقيات المفروضة. أنه هذا الرفض الذي سماه المحتل خداع البربر.

كان على البيزنطيين أن يواجهوا انتفاضة عامة جديدة في 544. فقد استغلت القبائل البربرية تمرد العساكر البيزنطيين لاستئناف النضال ومماثلة سليمان الذي قتل. عين الإمبراطور جون تروغليتا Jean Troglita حاكما بيزنطيا في تونس وناحية قسنطينة، أما باقي الجزائر كله فقد أضحى مستقلا.

في حوالي وسط القرن السابع كانت السيادة البيزنطية تمتد على الأقل مظهريا على جزء نوميذيا أين كان اليونانيون يحتلون في قدم الأوراس باغاى وتاموغادى ولامبيز وكان لهم بعض النفوذ على السكان المسيحيين في الزاب وفي موريطانيا القيصرية. وأضحى الموظفون مستقلين عن السلطة المركزية ولم تعد القبائل الفيديرالية تدفع شيئا. والعديد من الدول البربرية نظمت نفسها : جروة، وايفرن ومغراوة في الأوراس، وأوربة الذين كانوا يستحقون قيادة كل الشعب البربري في موريطانيا القيصرية، كما يقول إبن خلدون. في الغرب كانت توجد قبائل زناتة، وهذه القبائل لم تتبع سوى مصالحها وكانت قليلة الإنشغال بالتحالف مع البيزنطيين. يوضح لنا إبن خلدون البيزنطيين المتخلين عن الجبال والبلاد المنبسطة للبربر. كانت الخصومات أيضا مصدر آخر لإضعاف البيزنطيين.

لقد دقّ وصول العرب ومجيء الإسلام قرع حزن الإمبراطورية الرومانية.

الجـــدار

نصوص :

في طرف جبال فرندة، حيث يستند الحد الغربي لسرسو، ينتصب جبل الأخضر وجبل عروى. على هذين الموقعين المهيمنين اللذين يبلغان بالتالي 21 . 1 و 282 . 1م من الإرتفاع، تنتصب الأضرحة البربرية للعصر البيزنطي المعروفة بالاسم العربي جدار. تبدو ومن بعيد وكأنها تمتزج بقمم الجبل بقدر الإندماج الوثيق بالمظهر الطبيعي المحيط بها. هذا النصب البالغ عددها ثلاثة عشر منقسمة الى مجموعتين : ثلاثة منها توجد في جبل الأخضر وعشرة تحتل مرتفعات جبل عروى. تسمح اعادة استعمال النقوش الجنائزية التي استخدمت في بعضها بمنحها تاريخا متأخرا : إنها متأخرة عن نهاية القرن الخامس الميلادي. ولا شك أنها شيدت في سبيل عائلات كبيرة محلية وسعت سلطتها على ناحية تيارت، بفضل تراجع السيطرة الرومانية في موريطانيا القيصرية. فتواجد هؤلاء الأمراء مؤكد بواسطة مقطع لابن خلدون، يروى فيه المعركة التي شنها الأمراء البربر ضد سيدي عقبة. إن بناء الأضرحة، التي ينتصب فيها الميل الى العظمة، قد أملته الإرادة في منح الذرية فكرة سامية عن قوتهم. وبفعل وضعيتها المهيمنة على السهل وشكلها المدهش فإن الجدران لا تنقصها العظمة رغم خرابها الحالي.

تحتوي على قاعدة مربعة يعلوها هرم متدرج. ويوجد منفذها في الجهة الشرقية. وتختفي أروقة الدخول والغرف الجنائزية في داخل كتلة النصب. شيدت بعض التحضيرات الثقافية خارج النصب، الى الأمام من الجهة الشرقية. إنها تنتمي الى الأضرحة الكبيرة ذات التقليد البربري مثل انميدراسن والضرح الملكي لموريطانيا، ولكنها تمتلك بعض الصفات الخاصة بها.

Fatima Kadra Djedar de Frenda dans El Djezair 1970 N° 12 pp. 60 – 6I.

ردّ المور على سليمان

لمّا علما سليمان Salomon بمجزرة إيغان Aigan وروفين, Rufin استعد للحرب، وكتب الى قادة المور بهذه العبارات : « لقد شهد العالم دائما الكثير من الحماقات التي لقيت حتفها بسرعة، ولم يتمكن من توقع مخرج لمشاريعها الجنونية. لكن انتم الذين أمامكم مثال جيرانكم الوندال، خذرتم بسقوطهم، فأي جنون يدفعكم للتضحية بحياتكم، ولحمل السلاح ضد مثل هذا الإمبراطور القوي ؟ أتنسون عهودكم الرسمية الموقعة بأيديكم، وأطفالكم المسلّمين كرهائن ؟ أتريدون أن تقولوا للدنيا أنكم لادين ولا إيمان ولا عناية لكم بأقاربكم ؟ اذا كنتم تونون الله بهذه الطريقة، فمن يكون عونكم في الحرب ضد إمبراطور الرومان ؟ إن كنتم تجهلون بدايتها دون فقدان أطفالكم، فما هو السبب القوي الذي يجعلكم تواجهون الأخطار ؟ فكروا؛ واذا ندمتم على أخطائكم برهنوا لي عن ذلك برسالة. اذا لم تضعوا حدا لذنوبكم الكبيرة، انتظروا لترونا قادمين اليكم مسلحين بالعهود التي انتهكتموها، وبالآلام التي فرضتموها على رهائنكم ». تلك كانت رسالة سليمان، وها هي إجابة المور : « التزم بليزير تجاهنا بوعود دراثغية للإعتراف بسلطة الإمبراطور جستينيان؛ لكن الرومان، دون أن يقدموا لنا أي خير، وجالبين لنا حتى المجاعة، يريدوننا أصدقاء وحلفاء. أوليس واضحاأنكم أنتم الذين تنتهكون وعودكم وليس المور، الذين يحطمون تحالفا بسبب مظالم بيّنة. ولا يستحقون بغض الله أولئك الذين يهاجمون الغاصبين لإعادة أملاكهم الخاصة، لكن الذين يبدأون الحرب والذين ينهبون ثورة الغير هم الذين يستحقون ذلك. إنكم أنتم، الذين لاتستطيعون أن تأخذوا سوى امرأة واحدة، تصابون بالعناية بأطفالكم؛ أما نحن، الذين نستطيع أخذ خمسين، فلا نخشى نقص الذرية ».

D'aprés Procope cité par Dureau de la Malle, L'Algérie, Paris, 1852 pp. 278 – 279

التاكتيك العسكري البربري

أكيد أن البربر كانوا بالسلاح أدنى بكثير من البيزنطيين، وتبين أن الجنيرالات الإمبراطوريين يعاملونهم باستخفاف كخصوم لا دفاع لهم. فأقدمهم وأذرعهم عارية؛ والجسم والرأس ملفوفان في برنوس من النسيج، وليس لهم، مشاة وفرسانا، سلاح دفاعي آخر سوى درع صغيرة من الجلد؛ للهجوم يتسلحون بسيف قصير وعريض، بالإضافة الى ذلك يحمل كل واحد منهم رمحين طويلين ومتينين : لكن هذا التجهيز الخفيف يسمح لهم بحركية فائقة، ويكتفون بهذه الميزة لإنهاك وتطويق وتحطيم المشاة البيزنطيين. مثل ما يفعل الرحل، يصطحبون، في جولاتهم، الأطفال وقطعان القبيلة خلفهم : لكن ذلك ليس عائقا لهم في مسيرتهم كما يتبادر الى الذهن : فالدواب، كما سيتضح بعد قليل، لها دورها في المعركة؛ النساء بإقامتهن لتحصينات المخيم، والعناية بالخيول وتوفير الأسلحة يجعلن المحاربين أكثر حيوية للنضال، انهن، زيادة على ذلك، قد شاركن في المعركة بحدّة أكثر من مرّة. أما بشأن الأهالي فإنه يتحدد بمعرفتهم الجيدة للبلاد وبالتفوق العددي لخيالتهم التي لاتحصى. يعجبهم أن يخوضوا حرب مناوشات وكمائن، محتلين ممرات الجبال الصعبة، مختفين خلف الأخشاب أو في أسرّة السيول الجافة : يحبون أن يباغتوا العدو في مسيرته، وأن يحدثوا حول صفوفه شبه المنهكة دوامة الجولة السريعة بسراياهم؛ فيتفقون على الفرار البارع الذي يقود الخصم الى متابعة حذرة ويجرونه، منهوكا بدون نظام، الى الفخ المحضر بعناية؛ يناوشونه بمئة غارة ثانوية ودائما يتوارون أمامه، دون المخاطرة بمعركة منتظمة أبدا، دون القبول بمعركة مواجهة مخططة في السهل بصفة خاصة؛ يتشبثون بالمرتفعات، محتلين القمم، محتمين بجذوع الأشجار، مراقبين سير العدو لاستغلال أقل اضطراب للإنقضاض على معسكر سيء التحصين، لأخذه في وقت القيلولة، يصطنعون التراجع وأحيانا يصطنعون الهزيمة لخداع الخصم وجرّه لملاحقتهم في الجهات الصحراوية أين يحطم الجوع والعطش والحرارة شجاعته؛ حتى أنهم يحدثون الضرر أمامه لإنهاكه أكثر للإتحاق بهؤلاء الفرسان الذين يتعذر القبض عليهم ولاجبارهم على

نشاط حاسم، فإن طريقة قتالهم تبلبل كل التوقعات. يشكلون في وسط السهل تحصينا واسعا دائريا بجمالهم المصففة في خطوط عديدة سميكة : وراء هذا الدفاع الأول يقيمون الباقي من قطعانهم، أبقارا، وأغناما، وماعزا مربوطة بعضها لبعض بأحكام، وداخل هذا الجدار الحي حبال ممدودة ومذاري وأوتاد مغروزة في الأرض وأفخاخ منصوبة على الأرض، أما الأطفال والشيوخ فيتركون لحراسة المخيم وحين يدرك المشاة أنهم غير قادرين على مواجهة صدمة الخيالة البيزنطية، يختفون في طرف التحصين بين أفخاد الجمال ويريدون بحرابهم هجومات الخصم؛ تتخذ الخيالة موقعها على المرتفعات المجاورة، مستعدة لتنهال على مؤخرة أو جناح السرايا العدوة المبلبلة : يقدر الأهالي بالفعل أن مشاهدة وخوار الجمال يرعبان خيول البيزنطيين ويحطمان حماسة الهجمة الأولى بدون مشقة. ولاقناع اليونانيين بأفضلية الهجوم، يتبختر بعض الفرسان المنتخبين أمام صفوف البيزنطيين، بعض فصائل الخيالة البربرية تهاجم وتطلق صراخا عنيفا كذلك، وتستعجل المعركة : لكن حين اندحارها أو فرارها تقود السرايا اليونانية الى حاشية المخيم وحينئذ ينكشف التاكتيك الأهالي بنجاح كامل : أمام جمال هائجة تفرّ الخيول أو تهيج فينقض المشاة الخارجون من مخابئهم على الخيول الهائجة أوالمنهوكة، في حين يكمل النازلون من المرتفعات الهزيمة بهجماتهم.

D'après le Bellum Vandalorum de Procope et le Iohannidos libri de Corripus dans Ch. Diehl, L'Afrique byzantine,Histoire de la domination byzantine en Afrique (539 – 709), Paris, 1896,pp. 58 – 61.

الفهــرس

طبع بمطابع المؤسسة الوطنية للكتاب
3 شارع زيروت يوسف ـ الجزائر
بمطبعة باب الزوار